الزاهد

أنور الجندي
حياته - أدبه - فكره

الأستاذ الدكتور
حلمي محمد القاعود

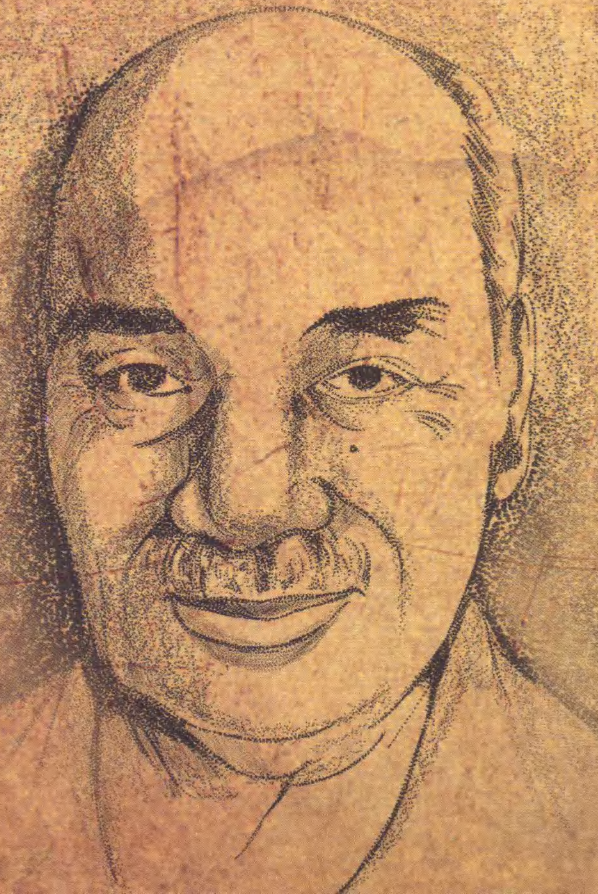

دار البشير
للثقافة والعلوم

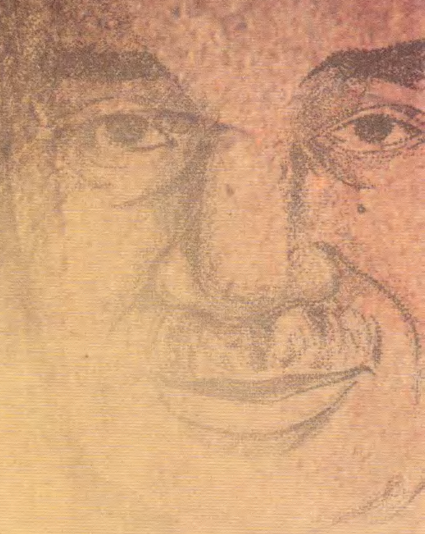

الزاهد

الأستاذ الدكتور
حلمي محمد القاعود

الزاهد أنور الجندي نموذج فريد للكاتب المسلم في جهاده وعطائه، وصبره وتضحيته، قدم للمكتبة العربية المعاصرة مئات الكتب والدراسات، دفاعًا عن الإسلام وشرحًا لمقاصده، وبيانًا لجوهره وغاياته. وظل قرابة ستين عامًا والإسلام هو قضيته الأولى التي شكلت محور حياته الأدبية والفكرية، في ظل مناخ مسموم يكره من يكتب عن الإسلام بوعي وإصرار، ويحاصره ويحاربه، ولكن الرجل كان يتقرب بكتابته إلى الله، وينتظر جائزته من رب الناس بالرحمة والغفران.

لقد رضي أن يعيش حياة متقشفة بسيطة يبحث وينقب ، فكشف كثيرًا من المناطق المجهولة في التاريخ والأدب والفكر، وأضاء للأمة معالم الطريق المستقيم الذي حاول خصوم الإسلام طمسه أو تحويل الناس عنه. إنه رجل أمّة !

9789772785506

دار البشير للثقافة
01152806533 - 01012355714
darelbasheerealla@gmail.com
darelbasheer@hotmail.com
www.darelbasheer.com

الزاهد

في صحبة الأستاذ أنور الجندي

حياته - أدبه - فكره

للثقافة والعلوم

اسم الكتاب: الزاهد، في صحبة الأستاذ أنور الجندي

المؤلف: أ.د. القاعود، حلمي محمد

موضوع الكتاب: تراجم، أدب، فكر

عدد الصفحات: 297 صفحة

عدد الملازم: 17.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 17 × 24

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 13771 / 2015

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 550 - 6

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 - 01012355714

١٤٣٧ هـ

٢٠١٦ م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من:

دار البشير للثقافة والعلوم

الزاهد

في صحبة الأستاذ أنور الجندي

بقلم:

أ.د. حلمي محمد القاعود

دار البشير
للثقافة والعلوم

المحتويات

استهلال ٨

الفصل الأول: الإنسان

١ – الطريق إلى الطالبية ١٣

٢ – النشأة والتكوين ١٦

٣ – مصادر ثقافته ٢٠

٤ – الكتابة والصحافة ٣٦

٥ – ملامح شخصية ٤١

الفصل الثاني: الأديب

توطئة ٨١

أولًا – الفنون الأدبية ٨٣

ثانيًا – القضايا التي عالجها ١١٣

ثالثًا – الأدب والنقد ١٢٧

رابعًا – الشعوبية ١٣٩

الفصل الثالث: المفكر

توطئة ١٥١

أولًا – التأريخ لجهاد المسلمين ١٥٤

ثانيًا – مواجهة العلمانية ١٦٧

ثالثًا – تحرير الواقع الثقافي: طه حسين نموذجًا ١٨٢

رابعًا – تصحيح المفاهيم ٢١٢

خامسًا – الفكر الوافد ومخططاته ٢٣٩

خاتمة ٢٦٧

المصادر والمراجع ٢٧١

كتب للمؤلف ٢٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ
طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا
كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ
مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ
ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ (إبراهيم: ٢٤ - ٢٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين. اللهم صل وسلم عليه وعلى أبويه إبراهيم وإسماعيل..

وبعد:

فالصفحات التالية محاولة لإنصاف كاتب كبير وباحث دءوب- رحمه الله- هو الأستاذ أنور الجندي الذي قدم للمكتبة العربية المعاصرة مئات الكتب والدراسات، دفاعًا عن الإسلام وشرحًا لمقاصده، وبيانًا لجوهره وغاياته.

الرجل نموذج فريد في جهاده وعطائه، وصبره وتضحيته، وظل قرابة ستين عامًا والإسلام هو قضيته الأولى التي شكلت محور حياته الأدبية والفكرية، في ظل مناخ مسموم يكره من يكتب عن الإسلام بوعي وإصرار، ويحاصره ويحاربه، فلا ينشر له كتابًا في مؤسسة رسمية، ولا يشير إلى إصداراته أو كتبه بكلمة، اللهم إلا إذا أخرج الوثائق التي تدين أتباع الغرب واليهود من الكتّاب والمثقفين، فينتفض أركان الحقل الثقافي دفاعًا عن أصنامهم وأوثانهم البشرية دفاعًا متهافتًا، ويتهمون الرجل بتهم رخيصة لا تمت إلى الحقيقة بصلة.

لم يُمنح الرجل جائزة حكومية، ولم يتولّ منصبًا ثقافيًّا، كما أتيح لمن هم أقل منه علمًا وفضلًا، بل إنه في الصحيفة الحكومية التي كان يعمل بها حُرم من النشر، ومُنع أن يتجاوز منصب سكرتير التحرير الذي يعمل في الظل (الديسك)، ولكنه كان يعمل في اتجاه أهم وأخطر وهو البحث والتنقيب عن حقائق القضايا الشائكة والملتبسة التي ترتبط بالإسلام وروَّج لها الخصوم وأتباعهم، ثم جهاده في سبيل استقلال الأمة وعزتها، وبناء مستقبلها على أساس من الدين الحنيف وقيمه العظيمة.

لقد رضي أن يعيش حياة متقشفة أقرب إلى الزهد، وكان يتقرب بكتابته إلى الله، لدرجة أن بعض المجلات الإسلامية التي كانت تنشر له مقالاته ودراساته نشرت على صفحاتها إعلانًا تطلب منه أن يوافيها بعنوانه لترسل إليه المكافآت المتراكمة لديها، وهي المكافآت التي لم يطلبها أو يفكر فيها؛ لأنه كان يرسل موضوعاته في البريد العادي، ويكتفي بكتابة اسمه وعنوانه الذي لا يفصّل المكان[1].

أما كتبه فقد كان ينشرها على حسابه في صورة متواضعة، ولم يطلب من الموزعين شيئًا، وكنت شاهدًا على ذلك، وأظنه لم يتلقَّ مقابلًا من معظم الناشرين.

لقد رأيت الرجل الواعي المجاهد قد ظُلم ظلمًا شديدًا من الحياة الثقافية في بلادنا، بينما تحتفي بكل أعداء الإسلام وخصومه ومن لا طعم لهم ولا لون، وتمنحهم جوائزها، وتنشر لهم كتبهم ودراساتهم الهزيلة، وتقيم لهم السرادقات على الطريقة الفرعونية! وكنت أسأله عن ذلك، فيقول: إنني أنتظر جائزة من ربي بالرحمة والغفران.

ومن ثم كان جهدي المتواضع للتعريف بالرجل وتقديمه للأجيال الجديدة؛ كي تتعرف على حياته وجهاده، وأدبه وإبداعه، وتصوراته وفكره، ووددت لو توسعت في الدراسة لتتكافأ مع حجم إنتاجه ونشاطاته الفكرية، ولكن عذري حين أقدم هذه الإطلالة السريعة، هو طبيعة الظروف الصحية التي أعانيها، وانشغالي

(١) كان يكتب الجيزة– الهرم.

الأكبر بما يجري على ساحة الوطن من أحداث تضطرني إلى المتابعة المستمرة.

أرجو أن يكون ما كتبته هدية متواضعة إليه في العالم الآخر إن كانت تُقْبل مثل هذه الهدايا، وأن يكون حافزًا للباحثين والكتاب الجادّين المخلصين على مواصلة البحث عن الرجل وأدبه وفكره وإبداعه؛ ليتعرف الناس على الحقائق التي يخفيها التجاهل والتهميش والتعتيم.

هذا وبالله التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المجد في ٢٧ من صفر ١٤٣٧ هـ

حلمي محمد القاعود

٩ من ديسمبر ٢٠١٥ م

الفصل الأول

الإنســـان

١ - الطريق إلى الطالبية

كيف عرفته؟

لا أذكر على وجه الدقة متى أو كيف اتصلت بالأستاذ أنور الجندي - رحمه الله - لأول مرة. ولكنني أرجح أن يكون ذلك في أواسط الستينيات من القرن العشرين، ولعلي أرسلت إليه خطابًا مثل الخطابات التي كنت أرسلها للكتّاب والصحفيين على عناوينهم في الصحف، وكان بعضهم يرد عليّ، والبعض الآخر كان يستنكف أن يرد على شاب ريفي مثلي، لسبب أو لآخر.

الذي أذكره جيدًا أن رسالة حانية وردتني من الأستاذ أنور، وكانت مترعة بالتشجيع والترحيب، وتبادلنا الرسائل حتى جاءتني رسالة تشرح لي مكان سكنه في الطالبية بحي الهرم أو منطقة شارع الأهرامات.

في عام ١٩٦٨م جُنّدت في القوات المسلحة، على غير موعد فقد كنت أحمل تأجيلًا للتجنيد؛ لأنني أيامها كنت مُدرّسًا بالتعليم العام، وكانت الحاجةُ إلى المدرسين في المدارس تقتضي أن يؤجل تجنيد المدرسين إلى أجل ما، أو منحهم شهادة « لم يصبه الدور».

عقب هزيمة ٦٧ المخزية، كان الأمر يستوجب تجنيد كل أبناء مصر ممن يحملون شهادات دراسية أو جامعية أو لا يحملون، وإلغاء التأجيلات وشهادات « لم يصبه الدور»، مع التسامح في شروط اللياقة البدنية، ومن لا يستطيع أن يُجَنّد في الأسلحة المتقدمة التي تقتضي لياقة بدنية عالية، يمكن أن يقوم بدور ما في سلاح آخر، أو يحرس المهمات أو الذخائر على الأقل، ولم يستثن في هذه الفترة أحد؛ فقد كان معنا في معسكر

توزيع المستجدين ابن وزير الإسكان يومها، وكانت الأحوال بصفة عامة تفرض نمطًا معينًا من مواجهة العدو النازي اليهودي على ضفة القناة الشرقية.

***

الطالبية:

في سبتمبر ١٩٦٨م ارتديت الزي العسكري ضمن سلاح المهندسين، وكان مركز التدريب على بعد عدة كيلو مترات من الهرم، وفي أول إجازة عسكرية ذهبت إلى الطالبية، مقر إقامة أنور الجندي؛ قبل أن أذهب إلى بيتي في أعماق الريف بمحافظة البحيرة، رأيت بيتًا منفردًا من طابقين وسط مساحات زراعية خضراء، بالقرب منه مسجد بناه الشيخ أحمد الجندي ابن عم الأستاذ أنور الجندي، وبعض البيوت التي تقف في انتظام هادئة وادعة بالقرب من شارع الهرم الرئيسي؛ حيث تقف على أوله شركة للمياه الغازية.

لم تكن الطالبية كما هي عليه الآن بامتداداتها العشوائية، وصخبها الذي يصمي، وزحامها القاتل، واختفاء البيت المنفرد الذي رأيته قبل أكثر من أربعين عامًا وسط مبان جهمة متوحشة، مرتفعة وغير مرتفعة، تحيا وسط التراب والغبار وأنكر الأصوات.

في البيت المتواضع رأيت رجلًا بسيطًا، أشفق على منظري العسكري الذي يبدو لافتًا للأنظار؛ حيث تبدو علامات التعب والإجهاد واضحة لمن يراني نتيجة التدريب وسوء التغذية وقلة النوم.

الرجل:

صعدنا إلى المكتبة، وتبادلنا الحديث حول كتبه ومؤلفاته، وأهداني بعضها، وكتب على كتاب منها صيغة امتداح لي لا أستحقها، ولكن الرجل العظيم آثر أن يمنحني صفات لا أستطيع أن أذكرها، ولكنها ما زالت مدونة على الكتاب وكتب أخرى سطرها فيما بعد، وهي وسام على صدري أعتز به.

كانت معرفتي بالأستاذ أنور الجندي طريقًا إلى عالم الأدب والفكر والثقافة بمعناها الواسع، فقد عرفني ببعض المجلات والصحف التي كان ينشر فيها يومئذ، وعرفت بعض دور النشر وأصحابها، وأخذت أنشر مقالاتي الأدبية والإسلامية في أكثر من عاصمة عربية، وتعددت لقاءاتنا ومشاركاتنا في تحرير بعض المجلات الإسلامية، وظللنا نتراسل بعد أن خرجت للعمل خارج مصر. وتشاركنا في كثير من المسرات والأحزان.

وعندما عدت إلى مصر قبيل وفاته علمت أنه في حالة مرضية صعبة، ولكنه مع ذلك رد على الهاتف بصوته الواهن، ولم يقل لي ممّ يشكو، أصرّ على أن يطمئنني، وكلمات الحمد والشكر والرضا تتردد على لسانه في معظم وقت المهاتفة، وبعدها بأيام قليلة جاءني نعيه عبر إذاعة القرآن الكريم، فأحسست أني فقدت والدًا أحبني في الله، وأغدق عليّ من فيض أبوته أكثر مما كنت أتوقع.

***

٢ - النشأة والتكوين

الزمان والمكان:

على ضفاف النيل ولد أحمد أنور سيد أحمد الجندي.. في الخامس من ربيع الأول من العام خمسة وثلاثين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة ١٩١٧م بقرية النخيلة التابعة لديروط، مديرية أسيوط بصعيد مصر، وهي واحدة من أجمل بلاد الصعيد؛ حيث تسقيها ثلاثة روافد للنيل هي: الإبراهيمية، وبحر يوسف، والدلجاوي، وهي المنطقة التي شهدت مولد شاعر عظيم في وقت معاصر لأنور الجندي، هو شاعر الكوخ محمود حسن إسماعيل. بالإضافة إلى أن الشاعر الكبير حافظ إبراهيم ممن ينتسبون إلى ديروط، ويمثل بالنسبة لأنور الجندي ومحمود حسن إسماعيل وهج الجيل الرائد والأسوة الذي يُقتدَى به.

يمتد نسب الجندي لعائلة عريقة عُرفت بالعلم، فجدّه لوالدته كان قاضيًا شرعيًّا يشتغل بتحقيق التراث، وكان والده مثقفًا يهتم بالثقافة الإسلامية، ويشتغل بتجارة الأقطان. ويتابع الأحداث الوطنية والعالمية، وكان بيته مكتظًّا بالصحف والمجلات وصور الأبطال من أمثال عبد الكريم الخطابي زعيم الريف المغربي، وأنور باشا القائد التركي الذي اشترك في حرب فلسطين- وكان ذائع الشهرة حينئذ -وباسمه تَسَمّى أنور الجندي من قبل والديه تيمنًا وإعجابًا.

التعليم والعمل:

حفظ «أنور» القرآن الكريم كاملًا في كتَّاب القرية في سن مبكرة، درس المرحلة الابتدائية في ديروط، ثم حصل على شهادة الثانوية التجارية؛ فألحقه والده بوظيفة في بنك مصر، ثم واصل دراسته في أثناء عمله؛ حيث التحق بالجامعة الأميركية في الفترة

المسائية ليدرس الاقتصاد وإدارة الأعمال، إلى أن تخرج بعد أن أجاد اللغة الإنجليزية التي سعى لدراستها؛ حتى يطلع على شبهات الغربيين التي تطعن في الإسلام.

كانت حياة أنور الجندي هادئة ناعمة لولا أن واجهها التحدي فحولها إلى حياة ذات أغوار على النحو الذي نطالعه على امتداد السطور التالية.

لقد عمل أنور الجندي بالبنك والصحافة من بعده، وكلاهما شكَّل له معضلة نفسية وشرعية، وقد واجه الموقف بما ينبغي على رجل مسلم يتحرى عقيدته وإيمانه، ويحرص على التفريق بين الحلال والحرام، ويقول عن التجربتين:

«الحقيقة أنني مررت بمحنتين، الأولى هي «المصرف (البنك) الربوي» والثانية هي «الصحافة» وهي أشد خطرًا من ذلك.

أما المصرف فقد حرصت أن يكون عملي بعيدًا عن حسابات الربا، ويكون قاصرًا على الأعمال التجارية وحدها، مع خوفي وحذري من الخطر الذي يلحق بي. وكنت حريصًا على نظافة اليد وطهارة التعامل، وبث روح الإيمان فيمن حولنا، وكنا في هذا أشبه بالمضطر الذي لا يغفل عن مصدر الخطر، ويدعو الله أن يحرره منه، فلما جاء العمل الصحفي كان أول أمره إسلاميًّا خالصًا ثم تحول إلى الصحافة الحزبية والسياسية، وقد كنت حريصًا على ألا تأكلني الصحافة في خضمها الخطير؛ فاقتصرت على صفحات الأدب أول الأمر ثم الصفحات الإسلامية.

وقد امتحنت في العمل الصحفي بمحنة العمل مع الماركسيين، واستطعت - بعون الله - أن أتجاوز إغراءاتهم، وأن أحصر نفسي في حيز قليل مضحيًا بكل أسباب الكسب والترقي، حتى أني أمضيت عشر سنوات كاملة دون أن أحصل على مكافأة واحدة، وكان عزائي في ذلك عملي الفكري الذي كنت أعده وأتفرغ له»[1].

(١) محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ٥١ / ٢ وما بعدها

بيد أن بداياته الأولى في مجال الكتابة تشي بقوة إيمانه بالأخلاق والقيم العليا، وعمق صلابته في مواجهة خصوم الدين، وأعداء الوطن، ومن ذلك أن كتابه الأدبي الأول «مصابيح على الطريق»، وهو لم يتجاوز العشرين من عمره عالج فيه قضية القيم في القرية والريف المصري، وضرورة الحفاظ عليها، ثم ما لبث أن ألَّف كتابه الثائر الذي طالب فيه الإنجليز بالخروج من مصر حيث سماه «اخرجوا من ديارنا»، ولم يشأ الإنجليز في تلك الفترة إلا الإسراع بجمع نسخ الكتاب من الباعة والمكتبات والزج به في السجن، وهو لم يزل فتى يافعًا يانعًا، ولم يثنه ذلك عن مواصلة مسيرته، بل أصقلته تلك التجربة وقوّت من عزيمته فخرج بعد عدة أشهر أكثر بأسًا وشدة مما كان، وعكف على التأليف بجانب مهنته الصحفية[1].

وقد تحدث أنور الجندي طويلًا في أحد كتبه عن فترة التكوين التي عاشها في القرية، والتي أعقبت انتقاله إلى القاهرة، فقد خصص بابًا بأكمله ليتناول ذكرياته في فترة البدايات، وتحول رؤاه من الكتابات الوجدانية والتهويمات الرومانتيكية والحلم بمشروع فكري وأدبي حتى اهتدى إلى مشروعه الكبير في إنشاء الموسوعات الكبيرة التي تتناول مراحل مختلفة في العصر الحديث عبر الأدب والثقافة والترجمة والتاريخ والفلسفة والشريعة والدعوة والصحوة الإسلامية، وغيرها.

وقد أضاف إلى ذلك حديثًا طريفًا عن طريقة إفادته من قوائم الكتب التي كانت ترسلها المكتبات آنئذ لمن يطلبونها وتتضمن ملخصات لما أصدرته من مؤلفات ومترجمات تعطي القارئ فكرة عامة عن الإصدار ومضمونه.

كما أشار إلى المصادر التي ألهمته الكتابة، وتوقف طويلًا عند القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب السيرة أو ما يعرف بالمصادر الإسلامية الأساسية[2]..

(١) إسماعيل الفخراني، الأهرام، ١٨ / ٢ / ٢٠٠٣م

(٢) انظر: أنور الجندي، آفاق جديدة في الأدب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت. ص ٢٢٠ وما بعدها

وفي معرض شهادته على العصر والتاريخ يقول أنور الجندي: «قرأت بطاقات دار الكتب وهي تربو على مليوني بطاقة، وأحصيت في كراريس بعض أسمائها وراجعت فهارس المجلات الكثيرة الكبرى كالهلال والمقتطف، والمشرق والمنار والرسالة والثقافة، وأحصيت بعض رؤوس موضوعات، وراجعت جريدة الأهرام على مدى عشرين عامًا، وراجعت المقطم واللواء والبلاغ وكوكب الشرق والجهاد وغيرها من الصحف وعشرات من المجلات العديدة والدوريات التي عرفت في بلادنا في خلال هذا القرن؛ كل ذلك من أجل تقدير موقف القدرة على التعرف على موضوع معين في وقت ما»[1]

***

الأسرة:

تزوج مبكّرًا من إحدى قريباته الفضليات؛ وعمره لم يتجاوز سبعة عشر عامًا، وأنجب ابنة واحدة هي الحاجة «فايزة» التي ربَّاها تربية إسلامية، وتزوجت من رجل فاضل وأنجبت عددًا من الأبناء، وتقوم الآن على خدمة تراث والدها ومكتبته.

ويبدو أن قلة عدد أفراد أسرته ساعدته على النهوض بعمله الأدبي والفكري والثقافي بصفة عامة، فضلًا عن إخلاصه في البحث والكتابة، واستثمار وقته منذ يقظته قبيل الفجر حتى نومه بعد صلاة العشاء مباشرة؛ إلى آخر مدى في خدمة مهمته الرسالية من أجل الإسلام والعروبة والمسلمين.

***

(١) أنور الجندي، شهادة العصر والتاريخ، ص ١٠٤

٣ - مصادر ثقافته

الثقافة الإسلامية:

نشأ أنور الجندي - رحمه الله - في بيئة إسلامية مشبعة بروح الإيمان والأمل والعمل، واهتمت بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، والثقافة الإسلامية الأصيلة، وحب التراث، وقراءته في مصادره الأولى التي يقول عنها:

" لقد نشأت في بيت علم ودين، وتفتحت عيناي منه على كتب التراث الجميلة مكتوبة بالمداد الشيني الأسود، وقد مُيِّزت عنواناتها باللون الأحمر، مما ترك في نفسي هوى خالصًا لهذا النوع من كتب التراث.

وكان والدي - رحمه الله - إلى جانب عنايته بتلك الأسفار متابعًا للحديث من مقالات المعاصرين التي تنشرها الصحف والكتب الجديدة. فكان من إيحاء ذلك الجو أن بدأت اتصالي بالكتب عن طريق مقدمة ابن خلدون ودائرة معارف فريد وجدي وما إليهما من مؤلفات بعضها في مكتبة الوالد، وأستعير بعضها من الآخرين.. فكنت أقرأ ما يتيسر من هذه الكتب دون الإحاطة الكاملة بما تحتويه، وكان لذلك أثره البعيد في تكويني الإنشائي والفكري، حتى لقد أقدمت على إلقاء محاضرة عن الأدب العربي الحديث أثناء دراستي الابتدائية[١]، كان لها ردود فعل غريبة، إذ تعذر على مستمعيها أن تكون من عملي، ولذلك عمد بعضهم إلى إجراء البحث عن مصادر هذه المحاضرة، وقد علمت ذلك من أوضاع الغرفة التي أسكنها، إذ عدت ذات يوم فوجدت آثارهم في درجي وأوراقي. فقد قدروا أن المحاضرة منقولة لا محالة؛ لأن أسلوبها الأدبي فوق طاقة تلميذ من تلك المرحلة، فأرادوا التيقن من ذلك[٢]..

(١) كانت تعادل المرحلة الإعدادية الآن

(٢) من مذكرات مخطوطة كتبها بيده

وهذه الحادثة تكشف لنا عن نمو مبكر للوعي الإسلامي والحس الأدبي لدى أنور الجندي، فقد كانت تربيته الإسلامية وارتباطه بالمسجد، وإمامه، ومجالس العلم في رحابه تشكل كيانه ووجدانه، فنشأ محبًا للإسلام، متشبعًا بروح الإيمان منذ صغره، مُلمًّا بأصول الأدب العربي، ويصف ذلك بقوله:

« كانت صلتي وثيقة بأئمة المساجد في بلدنا، وهي التي ساعدت على اتجاهي في اختيار نوعية الأصدقاء الذين تركوا آثارهم عميقة في سلوكي الشخصي.. ففي ذاكرتي صور لا تنسى عن ذلك الوسط الطيب يتمثل في أجواء المساجد وهيئات المصلين ومواسم العبادات. وما زلت أتذكر مجلسًا للعلم في مسجد ديروط الكبير بين العصر والمغرب من كل يوم، وألمح من وراء السنين ذلك الشيخ الوقور الذي يمس بإشراق وجهه وملامحه أعمق المشاعر، وأستعيد ذكرى والدي وأنا أصاحبه إلى حلق الذكر، وأستشف تلك النشوة الروحية التي كانت تغمرنا نحن الصغار إذ نتنادى للخروج إلى المسجد، قبيل الفجر، فنرافق المؤذنين إلى المنائر، وندير السواقي القائمة على البئر لنستخرج المياه للمتوضئين»[1].

الجهد الذاتي:

كانت رحلة التكوين الفكري لدى أنور الجندي جهدًا ذاتيًا في جانبها الرئيسي، بحيث يمكن القول إن أنور الجندي ثقف نفسه بنفسه إلى حد كبير، وإن كان الأمر يتجاوز ذلك إلى عناصر أخرى، منها عمله الصحفي، ولقاءاته بمجموعة من الشخصيات المهمة على امتداد حياته وقراءة أعمالهم الفكرية والأدبية، وتأثره بآرائهم، ثم طبيعة الأحداث التي مر بها الوطن منذ الثلاثينيات[2] حتى رحيله في أوائل القرن الحادي والعشرين، فضلًا عن مشاركاته في الحياة الأدبية والفكرية على امتداد العالم العربي، وما تثيره هذه المشاركات من إشعال جذوة القراءة والبحث، والإضافة المعرفية.

(١) المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، ٤٧ / ٢ وما بعدها

(٢) بداية نشاطه الأدبي والفكري

ولعل قراءاته واجتهاداته وهو شاب صغير كانت من وراء محاولاته الأولى في الكتابة والتعبير، فقد كان أول مقال ينشره في مجلة "أبوللو" الأدبية الرفيعة التي كان يحررها الدكتور أحمد زكي أبو شادي عام(١٩٣٣)، وكانت قد أعلنت عن مسابقة لإصدار عدد خاص عن شاعر النيل حافظ إبراهيم، فتقدم أنور الجندي بمقاله، الذي لقي قبولًا، وظهر على صفحات المجلة، وكان ذلك دافعًا ليردد أنور الجندي دائمًا القول: «ما زلت أفخر بأني كتبت في أبوللو، وأنا في هذه السن (١٧) عامًا، وقد فتح لي هذا باب النشر في أشهر الجرائد والمجلات آنئذ مثل: البلاغ وكوكب الشرق والرسالة وغيرها من المجلات والصحف».

***

الصحافة والإعلام:

وهذه المجلات والصحف كانت تستقطب كبار الكتاب والأدباء، وتحتفي بهم وبما يكتبون، وكان النشر فيها شهادة اعتماد لصاحبها بأنه صار كاتبًا وأديبًا، وكان هذا بداية على كل حال ليتجه أنور الجندي نحو الصحافة ويترك العمل في المصارف التجارية، وينتقل إلى القاهرة ليعمل في صحافتها ومجلاتها، وكان اتصاله بالشيخ حسن البنّا، فاتحة عمله بصحيفة (الإخوان المسلمون)؛ حيث أشرف على النواحي الإدارية والمالية فيها، كما كتب على صفحاتها حتى تم إغلاقها عام ١٩٤٩م.

وكان أنور الجندي قبل ذلك محظوظًا في شبابه بلقاء الإمام الشهيد الشيخ حسن البنّا حين كان يأتي إلى ديروط، فتأثر به تأثرًا ملحوظًا، وتبعًا لهذا تأثر بأعلام الفكر الإسلامي وأدبائه المعاصرين الذين سيأتي ذكر بعضهم.

وقد أتاحت معرفة أنور الجندي بالإمام الشهيد حسن البنا؛ فرصة أن يؤرخ لجماعة الإخوان المسلمين في مصر، ويكتب عنه وعن مؤسسها ثلاثة كتب هي:

١. الإخوان المسلمون في ميزان الحق.

٢. قائد الدعوة: حياة رجل وتاريخ مدرسة.

٣. حسن البنا: الداعية الإمام والمجدد الشهير[١].

ومع وجود هذه العلاقة بالإمام حسن البنا، وجماعة الإخوان المسلمين، فقد حظي أنور الجندي بتقدير من حكومة الرئيس جمال عبد الناصر (١٩٥٢ - ١٩٧٠) في بداياتها، فقد منحته جائزة الدولة سنة ١٩٦٠، وضمته عضوًا عاملًا في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة. كما أفسحت له المجال لنشر آرائه وأفكاره إلى حد ما.

وأود الإشارة هنا إلى أن أنور الجندي، مثله مثل كثير من المصريين كانوا يعلقون أملًا كبيرًا على انقلاب يوليه ١٩٥٢م الذي كان يسمى «الحركة المباركة»، ووقفت معظم القوى السياسية ومن بينها الإخوان المسلمون، وراء هذه الحركة، التي تحولت فيما بعد، ووقفت ضد جميع الأحزاب والقوى السياسية والاجتماعية، وقامت بتصفيتها ومحاكمة قادتها وإدخال كثير من المتسبين إليها إلى السجون والمعتقلات.

وكان أنور الجندي مفتونًا مثل كثير غيره من المصريين بالزعيم الشاب جمال عبد الناصر، فكتب عنه أكثر من كتاب: هذا هو جمال من بني مر إلى الجمهورية العربية المتحدة-مكتبة المعارف بيروت ١٩٦٠م، وكتاب جمال عبد الناصر وكفاح الشعب شركة النيل للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٥٦م. وكان رحمه الله قد أخبرني أنه قد ألَّف كتابًا ثالثًا بعنوان «الشروق الناصري»؛ ولم يُعِد طبعَه بعد أن تكشفت حقيقة طغيان عبد الناصر واستبداده، وبدأ يأخذ في انتقاد العهد الناصري ويكشف سوءاته ومخازيه، وخاصة بعد هزيمة ١٩٦٧م.

***

(١) يلاحظ أنه ترجم كُتيبًا لروبير جاكسون بعنوان: حسن البنا الرجل القرآني

انتقل أنور الجندي إلى صحف أخرى؛ حيث استقر به المطاف في جريدة الجمهورية التي أنشأتها حكومة ١٩٥٢م، وظل بها حتى إحالته على التقاعد ولم يتجاوز منصب سكرتير التحرير، فقد تعرض للحصار والتضييق على كتاباته بسبب توجهه الإسلامي.. ولكنه في كل الأحوال كان يستفيد بوقته في القراءة والتحصيل المعرفي والتأليف، وكتابة المقالات للصحف والمجلات داخل مصر وعلى امتداد العالم العربي.

في القاهرة- بعد انتقاله إليها- وعمله في الصحافة؛ تعرف على أعلام الأدب والفكر في عصره، سواء من كان يوافقهم الفكر والرأي، أو من يعارضهم، واقترب من بعضهم اقترابًا شديدًا، وكانت الصحافة تساعده في فهم كثير من الخفايا التي تتعلق بحركة الفكر والأدباء والمفكرين، ويمكن أن نرصد في هذا السياق عددًا من أبرز الكتاب والأدباء والمفكرين الذين اقترب منهم وتأثر بهم سلبًا أو إيجابًا، وكتب عنهم في كتبه ومقالاته بالموافقة أو المعارضة، وفقًا لمنهجه الإسلامي الذي عبّر عنه بقوله:

«أنا محام في قضية الحكم بكتاب الله، ما زلت مُوكَّلًا فيها منذ بضع وأربعين سنة منذ رفع القضية الإمام الذي استشهد في سبيلها قبل خمسين عامًا للناس؛ حيث أعد لها الدفوع، وأقدم المذكرات بتكليفٍ بعقدٍ وبيعةٍ إلى الحق تبارك وتعالى، وعهدٍ على بيع النفس لله- سلعة الله الغالية- والجنةُ هي الثمن لهذا التكليف»

«إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة».

ومن هؤلاء:

أحمد تيمور، وشكيب أرسلان، وأحمد الشرباصي، ومحمد فريد وجدي، وأحمد حسن الزيات، وأحمد حسين، وأحمد زكي باشا (شيخ العروبة)، وأحمد زكي أبو شادي، والبشير الإبراهيمي، والشيخ أبو العيون، والشيخ دراز، والشيخ محمد رفعت، وتوفيق الحكيم، وحسن البنا، وأحمد الحوفي، وزكي مبارك،

وساطع الحصري، وسعيد العريان، وسيد إبراهيم، وطه حسين، وعباس محمود العقاد، وعبد الرحمن الرافعي، وعبد الرحمن صدقي، ولطفي السيد، وسلامة موسى، ومصطفى صادق الرافعي، وعبد العزيز الثعالبي، وعبد القادر المغربي، وعبد الكريم جرمانوس، وعبد الله كنون، وعبد الوهاب عزام، وعزيز خاكي، وعلي أدهم، وعلي الغاياتي، وعمر فروخ، وكامل كيلاني، ومالك بن نبي، ومحب الدين الخطيب، ومحمد حسين هيكل، ومحمود تيمور، ومحمود عزمي، ومنصور فهمي، وعبد القادر القط، وصلاح عبد الصبور، وعلي أحمد باكثير، وعبد الحميد جودة السحار.

شخصية مهمة:

بيد أن الأستاذ أنور الجندي يشير إلى شخصية مهمة من أسماء الذين عرفهم، وهو الشيخ فخر الدين، وقد أثّر فيه تأثيرًا كبيرًا، في مرحلة تكوينه ويصفه بالرجل الجليل؛ حيث كانت معرفته به عاملًا أساسيًّا في إعطائه الاتجاه الفكري لونه الأصيل ومنهجه الصحيح، وبخاصة في الإنتاج الذي كان ينشره في الصحافة العامة، ثم في الصحافة الإسلامية التي واصل الكتابة فيها[1].. ولا توجد معلومات عن هذه الشخصية المؤثرة في حياة أنور الجندي وفكره، وإن كنت أرجح أنها شخصية من داخل العمل الصحفي التي تعمل في المطبخ الصحفي (الديسك)، ولا تظهر على صفحات الصحف، ولكنها تقدم الوجبة الصحفية الشهية للقارئ دون أن يعرف من أعدها، وعادة ما تكون هذه الشخصية ممن يؤثرون التواضع ويرفضون حب الظهور، ويملكون مفاتيح الوعي والثقافة والخبرة العميقة- خاصة في صحافة ما قبل عام ١٩٥٢م.. وأرى أن هذه الشخصية بما تملك من ثروة فكرية ومهنية أثرت في أنور الجندي إلى الحد الذي يصفها بالجلال والمهابة.

(١) المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، ٤٩/ ٢

وكان - رحمه الله - يقول:

«ليست أدوات الكاتب هي المحابر والأقلام؛ بل أدواته مصادره ومراجعه التي تمدّه بالمضمون والبيان، وإذا كانت الثقافة في حق المثقف زادًا فهي في حق الكاتب تكون عتادًا»

***

عصر حافل:

وقد عاش أنور الجندي فترة من أكثر الفترات التي مرت بها مصر والأمة العربية اضطرابًا وشدة، ففي العشرينيات والثلاثينيات اشتد الصراع مع الدول الاستعمارية التي احتلت معظم العالم العربي، وخاصة الإنجليز الذين كانوا يحتلون مصر، وكانت الحركة الوطنية المقاومة للاستعمار الإنجليزي تتحرك في القاهرة والأقاليم.

ويلخص أنور الجندي الظروف التي مرت بها الأمة منذ مولده في السطور التالية:

«لقد ولدت في خضم الأحداث، فعام مولدي ١٩١٧ كان عام وعد بلفور، وفي مطالع الشباب ١٩٢٤ سقطت الخلافة الإسلامية، ثم كان وصول الماركسيين في مصر إلى السيطرة على الإعلام عام ١٩٦٢، ثم كانت نكسة ١٩٦٧ التي ضاعت بها القدس؛ عاملًا خطيرًا في ظهور دعوة العودة إلى الله وبوادر الصحوة الإسلامية التي تحتاج إلى الترشيد والتوجيه في الانتقال بالأجيال المسلمة الجديدة إلى الأصالة والرشد الفكري، وكان هذا من أهم مشاغلي. ولا ريب كانت أخطر الأزمات النفسية التي أصبت بها هي أزمة سيطرة الماركسيين على الصحافة والإعلام والمسرح والثقافة في مصر.. فقد أحدثت لدي حالة من أشد الحالات خطورة، غير أن الله تبارك وتعالى وجهني إلى العمل لإعادة بعث التاريخ الإسلامي على نحو جديد، وتجديد الثقافة الإسلامية ومواجهة التحديات».

وهذه الأحداث ولا ريب شكلت مصدرًا رئيسًا من مصادر ثقافة أنور الجندي ووعيه، وجعلته ينظر بعين الإسلام إلى ما يجري ويكشف أبعاده وخباياه، ويتوجه بناء على ذلك إلى النقاط والقضايا التي يراها سببًا أساسيًّا في حركة الأمة إيجابًا وسلبًا، وعلى رأسها قضية التغريب.

التغريب:

ويشير إلى ذلك متحدثًا عن خطة التغريب وأبعاده والحافز الذي دفعه إلى دراسته وتناوله في كثير من كتبه، واستيعاب مفهوم الإسلام الجامع للدين والدنيا، والعمل والعبادة، والحياة والآخرة، وذلك هو التحدي الذي أذهله ودفعه إلى معرفة أبعاد هذا الخطر، وأساس القضية كلها والدور الذي يمكن لكتّاب الإسلام أن يقوموا به في سبيل تحطيم هذه الخطة وتدمير وجهتها.

غير أن هذا العمل الذي شغله قد سَدَّ عليه كل منافذ حياته، وقد اعترته غيرة محمومة لكي يعمل مع العاملين في اقتحام هذه المؤامرة، ولكن كيف يعمل وهو لا يملك إلا ثقافة متواضعة يسيرة؟ لقد كان عليه أن يعرف كيف يعمل في مواجهة هذا التحدي.

هذه هي القضية التي شغلته تمامًا حتى لم يعد لديه أي مجال لعمل آخر، وأحس بالأمانة والمسئولية والخطر الزاحف على أمة الإسلام، وبدأ يعيد النظر في كل مقومات الفكر الإسلامي وخططه وتاريخه وتاريخ هذه الأمة وما واجهته من حروب وتحديات، وأخذ ينطلق من نقطة البدء وهي القرآن الكريم والإسلام وسنة الرسول (ﷺ) وسيرته، يقول أنور الجندي:

«ولقد كنت في الحقيقة قد اكتشفت نفسي منذ الثلاثينيات عندما رفع الغطاء عن خطة «التغريب» التي يجري العمل بها في البلاد الإسلامية بترجمة كتاب «وجهة الإسلام» للمستشرق جيب، والهدف منه دراسة ما وصل إليه

تغريب البلاد الإسلامية، والخطط التي سيتم العمل بها حتى يتم هذا التغريب. وواضح أن هذه الخطة كان قد رسمها لويس التاسع بعد هزيمته واعتقاله في المنصورة، فقد دعا إلى ما سماه «حرب الكلمة» بعد هزيمة حرب السيف في الحروب الصليبية، وكان ذلك مبدأ العمل الخطير الذي تم تحت أسماء التبشير والاستشراق والغزو الفكري ومحاولة إثارة الشبهات والسموم حول الإسلام عقيدته وقرآنه ونبيه وتاريخه ولغته، ومنذ ذلك الوقت الباكر توجه قلمي إلى هذا العمل، ومعنى هذا أنني بعون الله قد أمضيت الآن أكثر من أربعين عامًا في الكشف عن هذه الخطط والرد عليها في عديد من الدراسات التي نشرتها في الصحف أو قدمتها في مؤلفات أو ألقيتها في مؤتمرات عالمية امتدت من إندونيسية إلى الجزائر.

كانت خطة التغريب التي هي بمثابة التحدي الفكري لشاب في السابعة عشرة هي مفتاح حياتي الفكرية الحقيقي؛ غير أنني لم أصل إلى الفهم الحقيقي لذلك إلا عندما استوعبت مفهوم الإسلام الجامع بكونه دينًا ودولة وعبادة ومنهج حياة، ومن هنا اكتشفت خطورة المؤامرة التي قادها التغريب عن طريق «التبشير والاستشراق الغربي والصهيوني والماركسي» التي ترمي إلى تفريغ الإسلام من محتواه كدعوة عالمية، ومن منهجه لبناء المجتمع، ومن أصالته وذاتيته القادرة على حفظ بيضته، وبناء أجياله على مفهوم الجهاد والمرابطة والإعداد في مواجهة الخطر الخارجي المتربص الذي واجهته القارة الإسلامية منذ فجر الإسلام، والممتد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذه الحقائق لا بد أن نربي عليها أبناءنا وأجيالنا الجديدة؛ حتى لا تستسلم للتحلل والخضوع لأي قوة مهما كانت[1]..

---

(١) محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، ٥٣ / ٢

احتواء الإسلام:

ويلاحظ أن ذلك الكتاب الذي يشير إليه أنور الجندي، ويكرر الإشارة إليه أكثر من مرة في أحاديثه الصحفية، أو في الأوراق التي خط فيها طرفًا من حياته؛ هو كتاب أصدره خمسة من المستشرقين حول الإسلام، قص فيه رائدهم (هاميلتون جب) تلك القضية الخطيرة؛ قضية ذلك العمل الذي مضى سنوات حتى وصل إلى المرحلة التي يمكن أن تُعلن فيه الخطة التي قام بها الاستشراق من أجل (احتواء الإسلام) ليكون دينًا تعبديًّا منحصرًا في الصلاة والعقائد، منفصلًا تمامًا عن قضايا المجتمع والسياسة والاقتصاد، وهو ما قدمه المستشرقون الخمسة للأقطار الإسلامية من المغرب إلى إندونيسيا، وطرحوا بعده أسئلة حول الحد الذي وصل إليه العمل، والخطة التي ستحقق إتمام هذه (المؤامرة/ الجريمة)[1].

مقاومة المؤامرة:

لقد تفرغ أنور الجندي لمقاومة هذه الخطة أو المؤامرة/ الجريمة، فعكف على استيعاب مفهوم الدين الجامع كما سبقت الإشارة، وصار التعمق في الإسلام مصدرًا رئيسيًّا من مصادر ثقافته.

ويرتبط بكتاب «وجهة الإسلام» كتاب آخر أشار إليه أنور الجندي في تشكيل اتجاهه نحو الاغتراف من أصول الإسلام الصحيحة ليواجه المخطط التغريبي هو كتاب (كيف صحّحت إسلامي؟) لكاتب مسلم يعرفه (لم يقل لنا عن اسمه!)، فقد كشف له عن أن الإسلام ليس دينًا تعبديًّا؛ وإنما هو منهج حياة ونظام مجتمع كامل، والعقيدة والعبادة جزء منه ولكنها ليست الإسلام كله. وقد تبين له أن مفهوم الدين عند أغلب المسلمين هو هذا المفهوم القاصر الذي عمل النفوذ الغربي والاستشراق والتبشير

(١) هذه الدراسة أطلق عليها بعد ترجمتها إلى العربية: وجهة الإسلام

على إذاعته ونشره؛ في محاولة لقصر الإسلام على الصلاة والمسجد، وفصل كل قضايا الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية عنه، وهكذا عرف الدعوة الإسلامية على حقيقتها وتكشفت له الأطروحة الخطيرة التي عمل النفوذ الغربي على ترويجها والتي بدأت- كما سبقت الإشارة - منذ نهاية الحروب الصليبية عندما دعا المهزوم لويس التاسع إلى ما يسمى (حرب الكلمة)؛ وذلك بتزييف مفهوم الإسلام وتحويله إلى دين لاهوتي مشابه لبعض الأديان المحرفة والبشرية، وتثبيت قواعد الاقتصاد خارج الإسلام والتربية والسياسة جميعًا، وإعلاء مفهوم العلمانية والفلسفة المادية.

كان ذلك التحول أو الاكتشاف لجوهر الإسلام العميق لدى أنور الجندي في عام ١٩٤٠ تقريبًا، وقد أخذ يبحث عن مخططات التغريب (الاستشراق والتبشير والغزو الثقافي)، والدخول في قضية كبرى هي «تصحيح المفاهيم»، فأمضى عشر سنوات كاملة بين أضابير دار الكتب ودورياته يقرأ ويلخص ويؤرشف، فقد كان ضروريًا أن يعرف جذور المخططات ممثلة في الصحافة التي كانت تُعايش ذلك العصر منذ الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ وإلى ذلك اليوم. ثم كانت أعماله بعدئذ قائمة أساسًا على التعريف بعظمة الإسلام وتاريخه وتراثه وتقديم صورة الأمة الإسلامية في مجال عظمة تاريخها وأمجادها، وكان هذا مفهومه للدعوة الإسلامية. وهذا باب اقتضى منه البحث عن تلك الصور الرائعة التي تمثلت في كتبه التالية:

(١)«الشرق في فجر النهضة».

(٢) «الإسلام تاريخ وحضارة».

(٣) «صور مضيئة من التراث».

(٤) «نوابغ الإسلام»[1].

(١) هذا الجزء يمثل أعلام الفكر الإسلامي منذ العصر الأول

وامتد هذا العمل إلى الأعلام وتراجم الأعلام، وقد قطع في إعدادها شوطًا طويلًا ممثلًا في دراسة شبه كاملة عن أعلام الإسلام في الأمة الإسلامية، كلها في العصر الحديث، تحت عنوان: (أعلام القرن الرابع عشر الهجري) في أربعة مجلدات، هي: (١) أعلام الدعوة والفكر.

(٢) تراجم الأعلام المعاصرين.

(٣) أعلام وأصحاب أقلام.

أما المجلد الرابع (أعيان البيان واللغة) فإنه جاهز ومُعَدّ من خلال بعض كتب التراجم الفرعية. (لم أتأكد من نشره حتى كتابة هذه السطور).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل قد أعد دراسات موسعة لبعض الأعلام:

(١) حسن البنا.

(٢) عبد العزيز جاويش.

(٣) عبد العزيز الثعالبي.

(٤) محمد فريد وجدي.

(٥) أحمد زكي باشا الملقب شيخ العروبة.

ولم يتوقف العمل في التراجم عند هؤلاء، فقد أصدر بعد ذلك:

(مصابيح التراث والعصر).. ويبدو أنه كان يعد لترجمات أخرى كثيرة لم يسعفه الزمان بإنجازها.

وكان هذا العمل التعريفي بالأعلام ضروريًا في مواجهة الحملة الخطيرة على التراث الإسلامي وأعلام الإسلام والتاريخ والثقافة الإسلامية؛ ليعطي المسلم ثقة عميقة في سلامة المنهج وعظمة العطاء الإسلامي الأصيل.

ولم يكن ميدان التراجم وحده هو الذي يحتاج إلى خدمة واسعة؛ بل كان الإسلام نفسه بوصفه (أغرودة الحياة ونور الوجود) كله والعطاء الرباني الكبير الذي انتشر سناه في الأرض كلها وعطر الأرجاء، وتلك كانت مهمة خطيرة ظل يعمل لها مع الصادقين من المفكرين والكتاب على أمل الوصول إلى مرحلة ترضى عنها قلوب المؤمنين(من مذكرات بخط يده).

لقد اقتضى ذلك الغوص في أعماق التراث الإسلامي، والتاريخ، وهو ما أوقف أنور الجندي على معلومات كثيرة، ووعي عميق بتاريخ الأمة وعطائها العظيم في شتى مراحل التاريخ الإسلامي.

وتبع ذلك جمع المعارك الأدبية والمُساجلات التي دارت بين العلمانيين خصوم الإسلام وبين رجال الفكر الإسلامي، وتقصّي السموم المدفونة في مجالات الفكر الإسلامي الزاخرة التي بدأت في العصر الحديث، وذلك لكشفها ودحضها على أسس علمية، ومن خلال وقائع وأدلة لا تقبل النقض أو الرفض، من أجل ترسيخ القيم الإسلامية الحقيقية، والوقائع الصحيحة المتعلقة بثوابت الدين الإسلامي ومنهجه السديد.

***

دار الكتب:

ويمكن الإضافة إلى التعمق في التراث والتاريخ، الوعي بالتراث الحديث، وذلك من خلال ما تحويه الدوريات الحديثة من مواد تكشف عن طبيعة أعلام الأمة الإسلامية الباحثين عن النهضة، وأولئك الذين استسلموا للتغريب، وعملوا على خدمته؛ ولذا فهو يخبرنا عما قام به في دار الكتب من قراءة بطاقاتها وإحصائها ومراجعتها في نشاط لا يعرف الكلل أو الملل، وقد أشرنا إليه من قبل:

«قرأت بطاقات دار الكتب، وهي تربو على مليوني بطاقة، وأحصيت في كراريس بعض أسمائها. راجعت فهارس المجلات الكبرى كالهلال والمقتطف والمشرق والمنار والرسالة والثقافة، وأحصيت منها بعض رءوس موضوعات، راجعت جريدة الأهرام على مدى عشرين عامًا، وراجعت المقطم والمؤيد واللواء والبلاغ وكوكب الشرق والجهاد وغيرها من الصحف، وعشرات من المجلات العديدة والدوريات التي عرفتها في بلادنا في خلال هذا القرن، كل ذلك من أجل تقدير موقف القدرة على التعرف على (موضوع) معين في وقت ما».

جاردن سيتي:

ولم يتوقف الأمر على دار الكتب، فقد كان ضيفًا دائمًا إلى وقت متأخر من عمره المديد؛ على مكتبة معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية بجاردن سيتي (شارع الطلمبات)، وكثيرًا ما ذهبت معه إلى المكتبة التاريخية أو قسم الدوريات المعاصرة المقابل لها، وكنا نتواعد هناك أحيانًا، كذلك فقد كان يأتي إلى المكتبة عدد من الباحثين العرب والأجانب، فضلًا عن المصريين، وكانت فرصة طيبة بالنسبة لي كي أتعرف على عدد لا بأس به من هؤلاء، وقد توطدت علاقته- رحمه الله- بموظفي المكتبة في قسميها، لدرجة أنهم كانوا يتركون الكتب أو المجلدات في مكانها الذي يطالع فيه حتى اليوم التالي؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه سيتابع قراءتها وفحصها بانتظام، وكان يخبرهم مسبقًا ببعض ما يريد من المصادر والمراجع ليجهزوها له في الأيام التالية. وذلك كله يشير إلى حرصه الشديد على تعميق مصادر معرفته التراثية أو التاريخية أو الحديثة.

الثقافة الأجنبية:

لقد اقتضت مسألة تصحيح المفاهيم وفق المنهج الإسلامي الأصيل متابعة الفكر الأجنبي القديم والحديث في منابعه، وهو ما دفعه إلى دراسة اللغة الإنجليزية وإجادتها والترجمة من خلالها، وسوف نجد إلمامه الدقيق بالفلسفة

اليونانية القديمة والفكر الغنوصي، والنظريات التي ازدهرت في العصر الحديث مثل الحداثة والوجودية والماركسية، فضلًا عن الحركات السرية والتخريبية مثل الماسونية والبهائية والقاديانية والصهيونية.

وقد ارتبط بذلك البحث لتقصي السموم المدفونة في مجالات الفكر الإسلامي الزاخرة، التي بدأت في العصر الحديث من خلال إحياء تراث علم الأصنام، وهو علم أشاعه المشّاءون الذين احتضنوا الفكر اليوناني والفكر الغنوصي؛ وخاصة تلك الجماعة التي هاجرت إلى المشرق: إلى فارس، واحتضنها المأمون وجماعة المعتزلة ودعاة خلق القرآن، وهم المسيحيون الذين كان يقودهم (حنين بن إسحاق)؛ حيث كان يعمل في مكر خطير لإدخال مفاهيم المسيحية الغربية على الفلسفة اليونانية ويكتب رقاعه على ورق غليظ؛ لأنه كان يحصل على مكافأة بوزن هذا الورق بالذهب.

لقد كانت تجربة الفلسفة اليونانية في اقتحام الفكر الإسلامي خطيرة، وخدعت كثيرين، وأثارت جوًّا مظلمًا من الشبهات، حتى تصدى لها أعلام الإسلام والأئمة من أمثال: أحمد بن حنبل، والغزالي وابن تيمية وعشرات غيرهم. وهو ما أسقط فكرة التصوف الفلسفي وغيرها وسقطت معه الفلسفة اليونانية، وكان الغزالي في مقدمة من حطم هذا التيار الذي أخذت تنبت له فروع جديدة معاصرة لدى بعض الباحثين العرب المفتونين بالفكر الغربي وتجلياته.

وقد عبر أنور الجندي عن ذلك بصورة أساسية فيما كتبه حول:

- التفسير الإسلامي للفكر البشري.. الأيديولوجيات والفلسفات المعاصرة في ضوء الإسلام.. دراسة جامعة (الفلسفة المادية، العلمانية، التفسير المادي للتاريخ، البرجماتية، الأجناس، النفس والجنس لفرويد، النسبية، الوجودية، الهيبية، الروحية، البهائية)

- الإسلام والدعوات الهدامة.. وتركز على:

مصادر المذاهب القديمة (الغنوصية، تحريف العقيدة السبئية، المذاهب الهدامة والإلحاد، الله في مفهوم الإسلام، عقيدة البعث.

دعوات هدامة للعقائد والقيم (الدهرية، الثيوصوفية، البهائية، الروحية الحديثة، تحضير الأرواح).

دعوات هدامة للمجتمعات والأمم (أيديولوجية التلمود، دعوة العنصرية، المادية، العلمانية، العالمية)

دعوات هدامة للنفس والأخلاق (الفرويدية: الجنس، الوجودية، الهيبية)

دعوات هدامة للفكر والثقافة (الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام: الوثنية، الجاهلية، الإقليمية، الفرعونية، الفينيقية- الإ
الاستشراق، الشعوبية- إحياء الهيلينية، الدعوة إلى العامية.

مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام (الرد على فرويد وماركس ودوركايم)

***

٤ - الكتابة والصحافة

بدأ أنور الجندي الكتابة في السياق الأدبي أو الأقرب إلى الأدب، كما يفعل الشباب المتأدب في الغالب، وأذكر أنه ذكر لي أنه أنشأ رواية نشرها في بداية حياته الأدبية، وهي رواية "بلا أمل" التي وصفها بأنها قصة طويلة، وكانت كما قال لي تحمل طموحات الشباب وتطلعاته في تلك المرحلة، ولكن تركيزه فيما بدا لي كان على الكتابة في الصحف من خلال المقالات، وقد سبقت الإشارة إلى مقالته الأولى التي نشرها في أبوللو وحازت إعجاب صاحبها الشاعر الكبير آنئذ أحمد زكي أبو شادي، وكانت حول الشاعر حافظ إبراهيم، ففتح له بنشر المقالة نافذة واسعة أتاحت له فرصة الكتابة في مجلات وصحف ذلك الزمان ليتناول الأدب وقضاياه.

وبعد الاهتمام الأدبي اطلع كما سبقت الإشارة على كتابي «وجهة الإسلام» و«كيف صححت إسلامي؟»، فتوجه إلى ميدان الكتابة الإسلامية؛ حيث أتاح له اتصاله بالإمام الشهيد حسن البنا أن يكتب في صحف الإخوان، بالإضافة إلى صحف الأحزاب القائمة آنئذ، وكانت تتيح قدرًا كبيرًا من إمكانات النشر، والتعليق على ما ينشر أو التعقيب عليه.

لقد حررته الصحافة من ربقة العمل في البنك الربوي، وحققت له طموحه في التعبير عن آرائه سعيًا لبعث الإسلام، وتصحيح المفاهيم الخاطئة حوله، والنظريات التي شككت فيه، وفرضت نفسها في الكتابات الأدبية، وكان أصحابها في الغالب متأثرين بآراء المستشرقين وأفكارهم، ويمكن القول إن عمله الصحفي أمده بطاقة هائلة من المعلومات والأفكار حول الأدب ورموزه المعاصرين له، وأتاح له فرصة

القراءة الواعية لإنتاجهم؛ فكشف كثيرًا من الأخطاء والأضاليل التي تناولها بالكتابة والنقد والتحليل، منطلقًا من تصور إسلامي ناضج.

وقسم الراحل أنور الجندي حياته إلى ثلاث مراحل أطلق على الأولى (مرحلة نقد المجتمع) وتمتد من سنة ١٩٤٠ إلى ١٩٥٠، و(مرحلة معالجة الواقع) وتمتد من ١٩٥٠ حتى ١٩٦٤، وفي هذه المرحلة تناول قضايا الوطنية والقومية. ثم بدأت المرحلة الثالثة بسنة ١٩٦٤ وهي مرحلة تصحيح المفاهيم ومواجهة التغريب ومحاولات احتواء الأمة الإسلامية والعدوان عليها وعلى هويتها وشخصيتها الحضارية.

أهم الدوريات التي كتب فيها:

- مجلة أسيوط (عام ١٩٣٣)
- جريدة الإنذار (بين عامي ١٩٣٣ - ١٩٣٤)
- مجلة الوادي (بين عامي ١٩٣٥ - ١٩٣٦)
- جريدة الأماني القومية (عام ١٩٤٠)
- جريدة القاهرة (١٩٤٠ - ١٩٤٢)
- مجلة الأفكار (بين عامي ١٩٤١ - ١٩٤٢)
- جريدة الزمان (القاهرة)
- جريدة الأخبار (القاهرة)
- جريدة الجمهورية - جريدة الشعب (القاهرة عام ١٩٥٦)
- جريدة النور (القاهرة)
- مجلة الأديب (بيروت)

- مجلة الإيمان (الرباط)

- مجلة الاعتصام (القاهرة)

- مجلة البيان (الكويت)

- مجلة الثقافة المغربية (الرباط)

- مجلة الحج (مكة المكرمة)

- مجلة الخفجي (المنطقة الشرقية بالسعودية)

- مجلة الدعوة (القاهرة)

- مجلة الرواد (طرابلس)

- مجلة العالم الإسلامي (مكة المكرمة)

- مجلة العرب (بيروت)

- مجلة العربي (الكويت)

- مجلة العرفان

- مجلة العلم

- مجلة الفرقان (صيدا)

- مجلة الفكر الإسلامي (بيروت)

- مجلة الكويت (الكويت)

- مجلة المجتمع العربي (القاهرة)

- مجلة المختار الإسلامي (القاهرة)

- مجلة المنهل (جدة، السعودية)
- مجلة الهدي الإسلامي (طرابلس)
- مجلة الوعي الإسلامي (الكويت)
- مجلة دعوة الحق (الرباط)
- مجلة عطارد (القاهرة)
- مجلة منبر الإسلام (القاهرة)

***

المؤتمرات التي شارك فيها:

لقد حضر أنور الجندي العديد من المؤتمرات داخل مصر وخارجها، وشارك فيها بتقديم الأبحاث والمناقشة لما يطرح من خلالها، ومعظمها مؤتمرات إسلامية أو ثقافية بصفة عامة، ويمكن عدها مصادرَ من مصادر الثقافة عند أنور الجندي، وشحذًا للبحث والقراءة وتعميق الأفكار. ومن أهم الدول التي شارك فيها غير مصر:

١ - الجزائر.

٢ - الرباط (المغرب).

٣ - مكة المكرمة.

٤ - الخرطوم.

٥ - عمان (الأردن).

٦ - جاكرتا (إندونيسيا).

٧ - جامعة (العين) أبو ظبي.

٨ - الرياض (جامعة الإمام محمد بن سعود).

تفاؤله بمستقبل الإسلام:

لم يكن متشائمًا قط، على الرغم من كل ما يحاك بالإسلام والمسلمين من مؤامرات، ولكن كان دومًا مطمئنًا إلى قول الله تعالى: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ كان يرى أن الأيام دول، كان دومًا يرى أن أمة الإسلام أمة تمرض ولا تموت، وأنها أمة ولَّادة لقادة الفكر الإنساني عبر التاريخ، والعالم كله عيال على الفكر الإسلامي، ولكن مع الأسف يساء عرضه!.

هذا المنهج ظهر في كل مؤلفاته حتى إن مؤلفه الأخير نجم الإسلام لا يزال يسطع ويرى فيه ما لا يراه الكثيرون المتشائمون شريطة أن نحسن عرضه، وأن نجتهد ونولي ذلك أولوية في اهتماماتنا وإلا تجاوزتنا الأمم الأخرى، وتكبدنا نحن ويلات التخلف والإعراض عن حسن عرض واتباع الإسلام، ولا بأس على الإسلام ولكن الخوف والبأس علينا نحن أنفسنا[1]».

***

(١) الفخراني، الأهرام، ٢٠٠٣م

٥ - ملامح شخصية

١ - الانضباط واحترام المواعيد:

كان رحمه منضبطًا في مواعيده والتزاماته، وتلك آية الالتزام الإسلامي في السلوك والعمل والعلاقة مع الناس، وكان لذلك مظاهر عديدة، منها:

الالتزام مع الصحف:

روى الأستاذ إسماعيل الفخراني وكان مسئولًا عن التحرير في بعض الصحف الخليجية في الثمانينيات والتسعينيات؛ أنهم كانوا في كل عام يعدون صفحات عن شهر رمضان ويكلفون عددًا من الكتاب والدعاة قبل حلول رمضان بشهور ليقدموا موضوعات الشهر الكريم قبل حلوله بفترة كافية لإعداد الصفحات، وكان أنور الجندي أول من يقدم مادته في أول رجب، أي قبل رمضان بشهرين كاملين.

ويقول الفخراني: إنه كان يختار موضوعًا مركزيًا تدور حوله مقالات الشهر كله، التي كانت تجمع في كتاب واحد بعد ذلك.

الحضور قبل الموعد:

كان - رحمه الله - إذا اتفق مع أحد على لقاء، أو حضور ندوة، أو مقابلة صحفية أو ثقافية، يأتي قبل الموعد بوقت كاف، ومع أنه كان يركب المواصلات العامة التي تمتلئ أو تزدحم بالركاب، وتتأخر في الوصول إلى محطاتها، فقد كان يضحي بوقته، ليحضر قبل الموعد المقرر، ولو كان سيقابل صحفيًا مبتدئًا. وكثيرًا ما اتفقت معه هاتفيًا على لقاءات في دار الاعتصام أو مكتبة معهد الدراسات في

وسط القاهرة، وكنت أحاول أن أسبقه إلى هناك إلا إنني كنت أفاجأ عند وصولي بوجوده يجلس هادئًا، ويقابلني بابتسامة عريضة، وكأنه يقول: جئت قبلك!

٢ - التواضع والمجاملة:

كان متواضعًا في حياته وبسيطًا، ويمكن أن يقال إنه كان يعيش حياة الزهاد، فكان ملبسه بسيطًا للغاية، ويمكن أن لا تجد عليه أثرًا للكي أحيانًا، فقد كان يخدم نفسه بعد أن رحلت عنه زوجه. وكان يعنيه في كل الأحوال أن يلبس ما يستر، بل يضع في قدميه حذاءً خفيفًا بدون جورب، وكان ذلك ييسر له السير؛ حيث كان يمشي مسافات طويلة إلى السوق أو المكتبات، أو دور النشر، ويركب المواصلات العامة بزحامها ومتاعبها دون أن يجد غضاضة في ذلك، وخاصة مع تقدم سنه وضعف بنيته.

« في هدوء عاش زمن العواصف والتيارات المتناحرة، وفي هدوء رحل إلى عالم الجزاء الحقيقي، فقد كانت فلسفته مع الناس «إن أجري إلا على الله» و «لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا».

كان يبغض الشهرة ويرفض أرفع المناصب، ويغض الطرف عن كل ما يقرب إلى الدنيا ويباعد عن الآخرة، مثلًا طلبت جامعة أمستردام الإسلامية أن تخصص له قاعة باسمه فرفض ترفعًا وزهدًا، وقد عُرض عليه منصب كبير، يسيل أمامه لعاب المشاهير فرفض أيضًا، وكان يرى مبلغ سعادته ومنتهى رسالته في التأليف والذود عن حياض الإسلام في كل ميدان.

كان شديد التواضع لله، ذكر جيرانه في أثناء تأبينه بنقابة الصحفيين؛ أنه رحمه الله كان يستيقظ كعادته يوميًا قبل صلاة الفجر، وأثناء عودته من الصلاة يحمل الخبز على يديه لجيرانه، بل ويملأ جرادل المياه التي لا تتوافر إلا في هذا الوقت ويضعها على الأبواب إكرامًا لجيرانه.

تلك الملامح من سماته الشخصية هي التي فسرت لنا أسرار ودوافع هذا النتاج العلمي والفكري الوفير، الذي أحيا فينا صور كبار العلماء الموسوعيين، وهذا كان مقبولًا في أزمنة سابقة، لكن الغرابة أن يحدث ذلك في زماننا، وما إن علمنا بخلق شخصيتنا ومنهاجه الذي يقول فيها: «تعلمت من مدرسه صلاة الفجر الإيمان العميق وحب الناس والحرص على مساعدتهم»؛ حينها يبطل العجب وتزول الغرابة[1].

ويروى عنه أنه كان عندما يصحو قبيل الفجر، ويجد المياه مقطوعة عن المنطقة، كان يملأ من بيته أواني الماء، ويضعها أمام بيوت الجيران ليتمكنوا من الوضوء واللحاق بصلاة الفجر، ويرى أن ما يفعله أمر طبيعي يحض عليه الإسلام لتيسير العبادة للجيران.

وكان مجاملًا للغاية، يواسي في الأحزان، ويقدم التعازي في الراحلين، ويجامل في الأفراح والمسرات، ويشارك بتقديم الهدايا المناسبة ولو كانت متواضعة.

وكان يرد على الهدية بهدية، أيًا كانت الهدية، على طريقة أهل الريف البسطاء ويروى أن أحد أصدقائه قَدِمَ من بلد عربي فذهب إليه وقدم له هدية بسيطة كالعادة، ففوجئ الصديق عند انتهاء الزيارة، بحقيبة مثل حقائب الخضار يطل منها رأس طائر منزلي (ذكر بط)، يهديه إليه ويقول مبتسمًا: هذه كائنات حية!

لقد كانت المجاملة ملمحًا من ملامح كرمه وجوده في تعامله مع من يعرف من الناس، وهو ما كان يجعل إنفاقه في سبيل الله عنصرًا أساسيًا في حياته مع تواضع دخله المادي، وأذكر أنه كان يذكر لي عن حياة اللواء محمود شيت خطاب - رحمه الله - وكان من كبار العسكريين العراقيين الذين أثروا في الأحداث أيام الانقلابات العسكرية في الخمسينيات؛ أن زوج اللواء خطاب كانت لديها ماكينة خياطة، وكانت تعمل عليها

(١) الفخراني، الأهرام، ١٨ / ٢ / ٢٠٠٣م

معظم الوقت لإعداد الثياب للنسوة الفقيرات.. ودلالة القصة لا تُخفى، فالرجل يلتقط من السلوك ما يدعم فعل الخيرات، والتضامن مع الفقراء.

وأعلم أنه كان يساعد العديد من الطلاب الجامعيين الفقراء بما يملك من كتب في مكتبته، وإن لم يجد فقد كان يكتب رسائل إلى الأساتذة الذين يعرفهم كي يساعدوا هؤلاء الطلاب بكتبهم أو بكتب غيرهم.

٣ - التعفف والترفع:

لم يحاول أنور الجندي في يوم ما أن يأخذ ما ليس له، أو يطلب شيئًا لا يستحقه، بل إنه كان يستحي أن يطلب حقوقه الأساسية، ويتعفف عن المطالبة بما يعطى لنظرائه في مجالات الثقافة والتأليف والفكر.

كان عندما يحل ضيفًا على وزارة الثقافة أو إحدى الجهات الرسمية في الدول العربية لا ينتظر أن ينفق عليه أحد مع أنه ضيف جاء بدعوة رسمية، وله حقوق الضيافة والتكريم من الجهة المضيفة، فقد كان يبادر إلى دفع نفقات الإقامة والإعاشة في الفندق الذي يقيم به، فيفاجأ بأن الجهة الداعية قامت بالدفع، ويدل ذلك على أنه كان يترفع أن يتخذ من الدعوة وسيلة للكسب، أو إحراج الداعين وتحميلهم ما لم يكونوا مستعدين له.

كان يكتب في العديد من المجلات والصحف التي تدفع عادة مقابلًا رمزيًا أو مكافأة لمن يكتبون فيها، أو تدعوهم إلى الكتابة فيها، وهناك مجلات كانت تحمل أعدادها مقالًا شهريًا ثابتًا له، في كل عدد، ولكن الرجل لم يحاول مرة أن يطلب مكافأته على كتاباته، لدرجة أن مجلة منار الإسلام التي تصدر في الإمارات العربية، ناشدت ذات مرة على صفحاتها الأستاذ أنور الجندي أن يرسل إليها عنوانه لترسل إليه مكافآته المتراكمة لديها، بحكم أنه كان من كتابها الدائمين، وكان ذلك تعبيرًا عن تعففه وزهده، في الوقت الذي يتكالب فيه بعض الكتاب على طلب المكافأة وزيادتها.

كان زاهدًا في الشهرة والأضواء، وعاش رجلًا بسيطًا لا يعرف الثراء ولا الترف في المسكن أو الملابس وغير ذلك من أمور الحياة، لقد تجلى ذلك في بساطة مظهره، وصفاء نظره، الذي يصور لك ما وراءه من صفاء النفس. ويجعلك في لحظات قصيرة تشعر بأنك تلقاء إنسان سلمت طبيعته من التعقيد والالتواء، فلا تلبث أن تنساق إلى مودته والثقة به.

وكان مع ذلك عفيفًا لا يقبل شيئًا على محاضراته وأفكاره، بل حتى الجوائز التقديرية كان يرفضها ويأباها، وكان عندما يُسأل عن ذلك يقول: «أنا أعمل للحصول على الجائزة من الله ملك الملوك»؛ ولهذا كان زاهدًا في الأضواء وفي الظهور، ولم يكن يحبذ اللقاءات التلفزيونية أو الفضائية، وكان كل همه التأليف، وكان يدعو ربه دائمًا بأن يعطيه الوقت الذي يمكنه من كتابة ما يريد؛ ولذلك فإن مشاركاته في الفضائيات كانت قليلة جدًّا تكاد تقتصر على بعض التسجيلات في أبو ظبي والرياض.

***

جوائز:

حصل الأستاذ «الجندي» على جائزة من الدولة عام ١٩٦٠، مع أنه يستحق أكبر الجوائز؛ لأنه امتلك موهبة ناضجة وتجربة كبيرة في البحث والدرس، وأصدر عشرات الأبحاث والكتب والموسوعات.

ومع ذلك فلم يكن يبحث الجوائز أو يسعى من أجلها بل كان يرفض ذلك ويأباه؛ لأنه كان يعد ما يقدمه في مجالات الفكر والثقافة بصفة عامة حسبة لوجه الله، وكان عندما يراجع في ذلك؛ يقول قولته التي سبق إيرادها:

«أنا أعمل للحصول على الجائزة من الله ملك الملوك».

ويأتي هذا السلوك من الرجل في سياق الزهد في الأضواء وفي الظهور؛ لأن همّه كان منصرفًا إلى الكتابة والتأليف، وكان يدعو ربه دائمًا بأن يعطيه الوقت الذي يمكنه من كتابة ما يريد.

عن الوفاة:

عانى في المرحلة الأخيرة من حياته، وعندما علمت بمرضه اتصلت به هاتفيًا، كما أشرت سابقًا، وكنت قادمًا من الخارج في أجازة قصيرة، أردت الاطمئنان عليه، وجاءني صوته واهنًا ضعيفًا، ولكنه مطمئن واثق، ذكر الله على لسانه لا ينقطع، كلماته موصولة بالله سبحانه، لم يقل لي أبدًا مِمَّ يعاني! كانت لغة الحمد هي المعجم الذي يردده على مسمعي، تمنيت له الشفاء، على وعد إذا أذن الله أن أزوره، ولكن هذا الوعد لم يتحقق، فقد رحل بعد المكالمة الهاتفية بأسابيع وأنا خارج مصر، وصعدت روحه إلى خالقها راضيًا مرضيًّا.

سمعه من حضر احتضاره، وهو يخاطب النبي - ﷺ - ويطلب منه الشفاعة، ويقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، اشفع للعبد الفقير عند ربك، وظل يناجي الرسول - ﷺ - طلبًا للرحمة من ربه واللطف به، حتى أسلم الروح!

وقد عاش أكثر من ثمانين عامًا منافحًا عن الإسلام وفكره وأدبه ولغته العربية، وحتى توفي في مساء الاثنين ١٣ من ذي القعدة سنة ١٤٢٢ هـ الموافق ٢٨ من يناير ٢٠٠٢م إلى رحمة الله تعالى.

صدى وفاته:

قال العلامة الشيخ يوسف القرضاوي: «علمت أن الكاتب الإسلامي المرموق أنور الجندي توفي منذ أسبوع.. يا سبحان الله، يموت مثل هذا الكاتب الكبير ولا نعرف عن موته إلا بعد عدة أيام، لو كان أنور الجندي مطربًا لامتلأت الصحف بالثناء عليه. وأضاف الشيخ يوسف القرضاوي:

" إن هدف الجندي من كتاباته، كان تقريب الثقافة العامة لجمهور المتعلمين؛ لذلك اتسم أسلوبه بالوضوح والبساطة».

وكتب عنه محمود خليل بعد وفاته مقالة بعنوان «أنور الجندي.. الزاهد الرباني الدءوب» في موقع إسلام أون لاين (الإلكتروني) بتاريخ ٦ فبراير ٢٠٠٢ فقال:

«إن أنور الجندي أسس مدرسة الأصالة الفكرية العربية المعاصرة في الأدب».

وكتب عنه عصام تليمة في الموقع ذاته مقالة بعنوان «أنور الجندي رجل بكته الأرض والسماء» وقال عنه:

إنه «عاش للإسلام وعاش بالإسلام، عاش للإسلام ينافح عنه ويدافع عن مبادئه».

وكتب عنه جمال سلطان بعد وفاته قائلًا:

« كان أنور الجندي يتزاحم في الحافلات العمومية، بينما هناك صبية صغار من المحسوبين على الصحافة والقلم يمرحون في شوارع القاهرة بأحدث السيارات، رحم الله أنور الجندي، كان منقطعًا للعلم والعمل والزهد والتقرب إلى الله، تقول ابنته إنها كانت عندما تقع عينها على صحيفة أو مجلة تتحدث عنه وتثني عليه فتهرع إليه بالجريدة مستبشرة، تجده يشيح عنها ويقول: دعك من هذه «القشور» التي تضيع الوقت والبركة، كان الرجل فقيرًا لا عن عجز، وإنما عن زهد وقناعة، حتى أنه كان يوزع الجوائز التي يحصل عليها من بعض أعماله على فقراء منطقته، رغم أنه منهم، وأنور الجندي بميزان الفكر والقلم أحد أهم أعلام الفكر العربي في القرن العشرين، وإن كانت الصحافة، خاصة المؤدلجة، المهيمنة على زوايا الفكر والثقافة ومنابرها في العالم العربي حاولت قبره في حياته كما تجاهلته بعد رحيله».

***

٦ - مؤلفاته:

امتاز أنور الجندي - رحمه الله - بالقدرة على التأليف الموسوعي والمعجمي، وإعداد الكتب الضخمة الممتدة التي تتناول جزئيات كثيرة، وفروعًا شتى؛ ولذا يجد القارئ في مؤلفاته موسوعات متنوعة تتناول أصول الإسلام ومناهج العلوم والأدب العربي والتاريخ الإسلامي، والدعوة الإسلامية، والأعلام العرب والمسلمين المعاصرين منهم والقدامى، والصحافة الحديثة والمعاصرة، والتبشير والاستشراق والتغريب.

ويمكن للقارئ أن يقرأ موسوعة كاملة في موضوع واحد؛ أعدها أنور الجندي في عشرة مجلدات أو أكثر. أيضًا فقد ألف في المجال المعجمي الثقافي أو الفكري- إن صح التعبير- بما يقدم للقارئ فكرة شاملة موجزة إلى حد ما حول موضوع معين أو فكرة ما. ولعله أول من بعث مصطلح «معلمة الإسلام» إلى النور ليكون بديلًا عن لفظة المعجم. وقد صنع المعلمة من خمسين مصطلحًا، كل مصطلح تضمه رسالة صغيرة في نحو ثلاثين صفحة من القطع الصغير. وقد جمعها - رحمه الله - في مجلد ضخم. كما وضع على غرار المعلمة عشرات الرسائل حول بعض القضايا التاريخية والإنسانية والفكرية.

وقد ساعد أنور الجندي على هذا الإنجاز الضخم والفريد، إخلاص الرجل، وانقطاعه للعمل والقراءة والأرشفة وخاصة للدوريات الشهرية والأسبوعية واليومية التي اهتمت بالقضايا الأدبية والثقافية والفكرية، وسبق أن رأيناه قد استطاع أن يفرغ مجموعة كبيرة من أهم المجلات والصحف في بطاقات بحثية أفادته كثيرًا في إنجاز كتبه ومؤلفاته وموسوعاته.

ويرى الأستاذ إسماعيل الفخراني[1] أن أنور الجندي - رحمه الله - قدم إلى المكتبة العربية والإسلامية أكثر من ثلاثمائة وخمسين مؤلفًا من بينها تسع موسوعات

---

(١) الأهرام١٨ - ٢ - ٢٠٠٣

إحداها تقع في عشرة مجلدات، المجلد الواحد يضم قرابة الألف صفحة. ولم تكن هذه المؤلفات في ميادين سهلة أو ميسورة، ولكنها كلها في ميادين وعرة تحتاج إلى جهد جهيد في جمع مادتها وتقديمها إلى القارئ أو الباحث في أسلوب مبسط، إنها كلها في ميادين الفكر الإنساني، وما أصعب قياد الإنسان وعلاجه.

وقد حاولت أن أرصد هذه الموسوعات فكانت على النحو التالي:

- على طريق الأصالة الإسلامية (٢٠رسالة).
- في دائرة الضوء (٥٠ رسالة).
- مقدمات العلوم والمناهج (١٠ مجلدات).
- موسوعة رسائل إلى الشباب المسلم (١٠رسائل).
- الموسوعة الإسلامية العربية. (٢٥ كتابًا).
- موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر (١٧ مجلدًا).
- الموسوعة الإسلامية العربية. (٢٥ كتابًا).
- موسوعة القرن الخامس عشر الهجري (١١ كتابًا).
- سلسلة الرسائل الجامعة..
- معالم التاريخ الإسلامي المعاصر (٧ كتب).
- دائرة معارف إسلامية.
- معلمة الإسلام (٩٩ مادة).
- تراجم الأعلام (٣ مجلدات).

ويمكن أن نصنف أعماله تصنيفًا موضوعيًا من حيث مادته إلى القوائم التالية؛ لتسهيل التعرف عليها من خلال الأدب والإسلاميات والسياسة والتاريخ والترجمات والاجتماعيات والفلسفات والصحافة، مع ملاحظة أن الرسائل أو معلمة الإسلام أو دائرة المعارف كانت تصدر بدون بيانات الناشر أو تاريخ النشر أحيانًا:

المؤلفات الأدبية:

- آفاق جديدة في الأدب. الأنجلو ١٩٧٨م.
- أصول الثقافة العربية- دار المعرفة- القاهرة ١٩٧١م.
- أدب المرأة العربية.. تطوره وأعلامه.
- أدب المقاومة والجهاد، دار الاعتصام ١٩٩٠م
- أصالة الفكر العربي الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي، ط دار الصحوة ط/١٩٩٣٣
- أصول الثقافة العربية ومصادرها الإسلامية، ط دار الكتاب اللبناني ١٩٦٤
- أضواء على الأدب العربي المعاصر- الكاتب العربي للطباعة- مصر- ١٩٦٩م.
- أضواء على الحياة والأدب مطبعة الرسالة- القاهرة- ١٩٥٦م.
- أضواء على حياة الأدباء المعاصرين د.ع القاهرة ١٩٥٦م.
- أضواء على نفسيات الأدباء
- أكذوبتان في تاريخ الأدب الحديث، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- الأخطاء الشائعة، ط دار الاعتصام ١٩٩٥م.
- الشبهات والأخطاء الشائعة في الأدب والاجتماع والتاريخ، ط دار الاعتصام ١٩٩٥.
- الفصحى لغة القرآن.

- الشعر العربي المعاصر.. تطوره وأعلامه.
- الشعوبية في الأدب العربي الحديث د.ع القاهرة ١٩٧٧م..
- الشخصية العربية في الأدب والتاريخ..
- اللغة العربية بين حماتها وخصومها- مكتبة الأنجلو.المصرية- القاهرة ١٩٦٥م
- اللغة العربية في مواجهة اللغات الأجنبية ط دار الاعتصام ١٩٨٠م
- اللغة والأدب والثقافة (اللغة العربية وقضاياها- خصائص الأدب وقضية الشعوبية- الثقافة العربية إسلامية أصولها وانتماءها).
- القصة العربية المعاصرة تطورها وأعلامها.
- الفلكلور (إحياء التراث الجاهلي والوثني) ط دار الاعتصام ١٩٨٠م.
- الفنون والمسرح.
- المرأة والحب في حياة كتابنا المعاصرين دار الإعلام للطبع والنشر القاهرة.
- مؤلفات في الميزان، منار الإسلام..
- محاذير وأخطار في وجه إحياء التراث والترجمة.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، وزارة الثقافة المصرية.
- المساجلات والمعارك الأدبية في مجال الفكر والتاريخ والحضارة- دار المعرفة- القاهرة ١٩٧١م.
- المسلمون والقصة الغربية ط دار الاعتصام ١٩٩٠م.

- المعارك الأدبية.
- النثر العربي تطوره وأعلامه.
- صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٩م.
- عقيدة الكاتب المسلم، ط دار الاعتصام ١٩٨٣م.
- لن نقبل مفهوم الغرب للفن والحضارة، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- معالم الأدب العربي المعاصر، دار النشر للجامعيين.
- معالم الأدب العربي المعاصر في النقد والفنون المختلفة.
- تطور الترجمة.
- تقويم ما قدمه جيل الرواد وقراءة جديدة لكتابات الشوامخ، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- تميز الأدب الإسلامي وأصالته، ط دار الاعتصام ١٩٨٨م.
- جولات في الأدب، والفن، والحياة ـ دار الأعلام للطبع والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٦٥م. المؤامرة على الفصحى لغة القرآن.
- زكي مبارك، دراسة تحليلية لحياته وأدبه الدار القومية للطباعة النشر ـ القاهرة.
- خصائص الأدب العربي.
- بلا أمل (قصة طويلة)
- خلفيات عمر الخيام وقضية الرباعيات، ط دار الاعتصام ١٩٨٠م.

- حركة الترجمة، ط دار الاعتصام ١٩٨٣م.
- محاولات التغريب في فصل أدبنا المعاصر عن أصوله الإسلامية، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.

***

المؤلفات الإسلامية:

- آفاق جديدة للدعوة الإسلامية في عالم الغرب. مطبعة الرسالة ١٩٨٤م
- أسلمة المناهج والعلوم والقضايا والمصطلحات المعاصرة.
- الأريوسية الموحدة، طبعة دار الاعتصام ١٩٨٩م..
- الأمة الإسلامية وحدتها ووسطيتها، ط دار الاعتصام ١٩٨٨م..
- الإسلام تاريخ وحضارة، د. ن، ١٩٨٣
- الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- مصر.
- الإسلام في معركة التغريب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة- ١٩٦٤م.
- الإسلام في مواجهة الفكر الوافد ط، دار الاعتصام، ١٩٩٠م.
- الإسلام في وجه التحديات الوافدة والمؤثرات الأجنبية، ط دار الاعتصام ١٩٨٠م.
- الإسلام في وجه التغريب ومخططات التبشير والاستشراق د، ن، ١٩٨٣
- الإسلام والتكنولوجيا.

- الإسلام والتيارات الوافدة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر ـ ١٩٨٧م.
- الإسلام والثقافة العربية في مواجهة التغريب.
- الإسلام والحضارة ـ المكتبة العصرية ـ بيروت بدون تاريخ
- الإسلام والدعوات الصادقة ـ دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٤م.
- الإسلام والدعوات الهدامة ـ دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٢م.
- الإسلام والعالم المعاصر بحث تاريخي حضاري. دار الكتاب اللبناني. ط١٩٧٣.
- الإسلام والغرب.
- الإسلام والفلسفات المعاصرة.
- الإسلام وحركة التاريخ، ط دار الكتاب اللبناني بيروت. د. ت.
- الإسلام يزحف إلى قواعده. ط دار الطباعة والنشر الإسلامية، ذو القعدة ١٣٦٥هـ ١٩٤٦م.
- الإسلامية نظام مجتمع ومنهج حياة د. ن القاهرة ١٩٧٩م.
- البهائية من الدعوات الهدامة.
- التيارات الوافدة، ط دار الصحوة للطباعة والنشر، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- الحقائق العشرة في بناء منهج الإسلام في المجتمع العالمي المعاصر، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- الخروج من التبعية، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- السنة النبوية ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.

- الشباب المسلم قضاياه ومشكلاته، ط دار الصحوة للطباعة والنشر ط١ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- الشبهات المطروحة في أفق الفكر الإسلامي، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي، د. ن، ١٩٨١.
- الشخصية الإسلامية.
- آيات الله في الآفاق، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م
- أقدم لك الإسلام. ط دار الاعتصام ١٩٨٣م.
- احتواء العقل المسلم، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م
- اعتراف عالمي بالقرآن الكريم، ط دار الاعتصام ١٩٩٠م.
- الشريعة الإسلامية في مواجهة الرأسمالية والديمقراطية والماركسية.
- الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة، ط دار الاعتصام بدون تاريخ.
- الطريق أمام الدعوة الإسلامية (سلسلة الرسائل الجامعة) د.ع القاهرة ١٩٨٤م.
- الطريق إلى الأصالة والخروج من التبعية، ط دار الصحوة ١٩٨٥.
- الطريق إلى الأصالة، ط دار الاعتصام ١٩٨٠م.
- الموسوعات العالمية والمراجع الكبرى وأخطائها، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- بطاقات إسلامية- دار الصحوة- القاهرة- ١٩٨٧م.
- بطاقة إسلامية، ط دار الاعتصام ١٩٨٠م.
- بعث التراث الزائف، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.

- بعث الفكرة الإسلامية.
- بماذا انتصر المسلمون د.ع القاهرة ـ ١٩٨١م.
- تراجع الفكر المادي الإسلام يتألق من جديد محررا البشرية من العبودية دار الهداية. ١٩٩٩
- ترشيد الفكر الإسلامي (الرسائل الجامعة) ـ د.ع.
- تصحيح المفاهيم الإسلامية.
- تصحيح المفاهيم في ضوء الكتاب والسنة، ط دار الاعتصام ١٩٨٣م
- جوهر الإسلام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٩٦٩م
- حتى لا تضيع الهوية الإسلامية والانتماء القرآني (الرسائل الجامعة) د.ع القاهرة ١٩٨٤م.
- حرب ضارية على التراث والتاريخ الإسلامي، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- حركة تحرير المرأة في ميزان الإسلام (خلفية قاسم أمين وحقيقة هدى شعراوي) الاعتصام ١٩٨٠م.
- طابع الإسلام بين الأديان والأيديولوجيات (عطاء الإسلام للبشرية ـ العلمانية في ضوء الإسلام والأيديولوجيات المعاصرة)
- عالمية الإسلام. د.ع ١٩٨٧
- عالمية الدعوة الإسلامية، ط دار الاعتصام ١٩٩٠م.
- عطاء الإسلام الحضاري - رابطة العالم الإسلامي (ع١٦٣)١٤١٦هـ
- عقيدتنا توحيد وبناء - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (ع٢٠٣)١٩٧٨م

- على المحجة البيضاء، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- مدخل إلى القرآن الكريم د.ع القاهرة ١٩٩١م.
- مذكرات مسلم.
- مصحف وسيف.
- مصر العربية الإسلامية.
- مع بعثة الحج.
- محاذير وتحفظات على طريق الصحوة الإسلامية، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- منهج الإسلام في بناء العقيدة والشخصية - هدية مجلة الأزهر ١٣٩٤هـ
- مواقف تاريخية حاسمة من حضارة التوحيد، ط دار الصحوة للطباعة والنشر ط١ ١٩٩٤م.
- موقف الإسلام من العلم والفلسفة الغربية.
- نجم الإسلام ما زال يصعد: محاولة لدراسة حركة الإسلام العالمية خلال القرن ١٥ هـ الفضيلة ١٩٩٨م.

***

المؤلفات السياسية:

- أخرجوا من بلادنا.
- ألف مليون مسلم في مواجهة الأخطار والتحديات.
- ألف مليون مسلم على أبواب القرن الخامس عشر الهجري، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.

- أهداف التغريب في العالم الإسلامي الأزهر، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية ١٩٨٧م.
- إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام، ط دار الاعتصام ١٩٨٥م – موسوعة القرن الخامس عشر الهجري.
- استعمار أم استغراب.
- الإخوان المسلمون في ميزان الحق ١٩٤٦م.
- الاستشراق.
- الاستعمار والإسلام.
- المسلمون بين امتلاك إرادتهم والسيطرة الأجنبية، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- المسلمون في فجر القرن الوليد.
- بلادي.
- الاستعمار والإسلام، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- الاقتصاد الإسلامي والمذاهب الجديدة.
- التحديات التي واجهت الصحوة، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- الجهاد والفتح.
- الدرة المغتصبة بعد ثلاثين عامًا "فلسطين"، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- كسر طوق الحصار عن الإسلام. د ٠ع ١٩٩٨م
- كفاح الذبيحين فلسطين والمغرب، ط ١٩٤٦م ط دار الطباعة والنشر رجب ١٣٦٥هـ يونيو ١٩٤٦م

- كلمات خالدة.
- كلمات خالدة من ذخائر تراثنا العربي – سلسلة كتب ثقافية ١٩٦١م
- كمال أتاتورك وإسقاط الإسلام.
- كيف تتحرر مصر.
- الروتاري (واجهة جديدة للماسونية)، ط دار الاعتصام ١٩٨٠م.
- الزعامة والحكم في الإسلام.
- العودة إلى المنابع (دائرة معارف إسلامية) ط٠ع ١٩٨٤
- زعماء الاحتلال بين الأحزاب والحكم.
- العودة إلى منابع الفكر الإسلامي الأصيل ٠د٠ع
- الغزو الثقافي مدخل إلى التغريب والشعوبية، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- الفقه الإسلامي ومؤامرة تطوير الشريعة، ط دار الاعتصام ١٩٩٠م
- الفكر الإسلامي (بناء الفكر الإسلامي وتطوره مخططات غزو الفكر الإسلامي انبعاث الفكر الوثني الهليني والشرقي القديم).
- الفكر الإسلامي والتحديات التي تواجهه في مطلع القرن الخامس عشر الهجري، ط دار الاعتصام ١٩٨٣م.
- الفكر الإسلامي والثقافة العربية المعاصرة في مواجهة تحديات الاستشراق والتبشير والغزو الثقافي.
- الفكر الإسلامي وسموم التغريب والتبعية، دار الفضيلة ١٩٩٩م
- القرآن دستور الإنسانية.

- القرن الخامس عشر: قضاياه وتحدياته.
- القرن الخامس عشر الهجري.. التحديات في وجه الدعوة الإسلامية والعالم الإسلامي المكتبة العصرية
- الخنجر المسموم الذي طُعن به المسلمون، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م
- القانون الوضعي والشريعة الإسلامية، ط دار الاعتصام ١٩٨٨م.
- القاهرة ترقص على بركان.
- القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة العربية.
- الكتب المرفوضة من مفكري الإسلام، ط دار الاعتصام ١٩٩٠م
- القومية العربية والوحدة الكبرى الدار القومية للطباعة والنشر مصر.
- المؤامرات الصهيونية وفلسطين.
- المؤامرة على الإسلام. دار الاعتصام ١٩٧٧م.
- المخططات الاستشراقية في تغريب الفكر الإسلامي.
- المخططات التلمودية والصهيونية في غزو الفكر الإسلامي
- المد الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر، ط دار الاعتصام.
- النيل لا يتجزأ.
- تحديات الاستعمار.
- تحديات في وجه المجتمع الإسلامي، ط دار الاعتصام ١٩٨٠م
- حضارة استعمار وتغريب.

- فضائح الأحزاب والسياسة.
- قضية وادي النيل.
- لا حزبية بعد اليوم.

***

المؤلفات التاريخية:

- أخطاء في كتابة التاريخ الحديث، ط دار الاعتصام ١٩٩٠م..
- أخطر قضايا العقدين الأول والثاني من القرن الخامس عشر الهجري، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- أضواء على تاريخ الإسلام مطبعة الرسالة القاهرة.
- البطولة في تاريخ الإسلام.
- الانقطاع الحضاري.
- التاريخ في مفهوم الإسلام، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- التبشير الغربي، ط دار الاعتصام ١٩٨٢م.
- التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة (وأثرهما في الفكر والاجتماع المؤامرة على التاريخ - الدعوات الهدامة).
- التجربة الغربية في بلاد المسلمين، ط دار الاعتصام ١٩٨٠م.
- التراث الإسلامي.
- الحضارة الغربية والمجتمع المسلم، ط دار الاعتصام ١٩٩٠م.
- الحضارة في مفهوم الإسلام، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.

- الحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية (مفاهيم العلوم الاجتماعية الإسلام والحضارة الإسلام والتكنولوجيا).
- الخلافة الإسلامية.
- الخلافة والجامعة الإسلامية.
- الشرق الإسلامي بين الاستعمار والحرية.
- الشرق في فجر اليقظة: صور اجتماعية للعصر من (١٨٧١م: ١٩٣٩م) الأنجلو-١٩٦٦م
- الصراع بين الإسلام والاستعمار.
- الصهيونية والإسلام، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية د. ع القاهرة ١٩٨٠م.
- العالم الإسلامي المعاصر (عالم الإسلام المعاصر- العالم الإسلامي والغزو الصهيوني العالم الإسلامي والغزوة الشيوعية).
- العالم الإسلامي والاستعمار السياسي، والاجتماعي، والثقافي/ اللبناني.
- العالم يرفض واقع الغرب، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م
- تاريخ الأحزاب والوزارات والبرلمانات والدستور والزعماء.
- تاريخ الإسلام (من فجر الإسلام إلى العصر الحديث عالم الإسلام وعالم الغرب - من الوحدة الإسلامية إلى الترك والعرب).
- تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات.

- تاريخ الإسلام منذ فجره إلى اليوم دار الأنصار القاهرة ١٩٧٩م
- تاريخ الدعوة الإسلامية في مرحلة الحصار من حركة الجيش إلى كامب ديفيد د. ع - القافلة ١٩٨٨م.
- تاريخ الغزو الفكري والتغريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين ١٩٢٠ : ١٩٤٠م.
- تاريخ اليقظة الإسلامية في مراحلها الثلاث (اليقظة الإسلامية والاستعمار - اليقظة والتغريب والشيوعية).
- بين الوطنية والسياسية.
- بين لاظوغلي وقصر الدوبارة.
- الأخطاء الشائعة، ط دار الاعتصام ١٩٩٥م.
- حقائق عن الغزو الفكري للإسلام.
- حقائق مضيئة في وجه شبهات مثارة دار الصحوة القاهرة ١٩٨٩م.
- خريطة الإسلام المعاصر.
- دراسات إسلامية معاصرة، المكتبة العصرية ١٩٨٢م
- دسائس الاستعمار في الشرق.
- دورنا الجديد في الحضارة الإنسانية الدار القومية للطباعة والنشر مصر.
- رسالة المسلم.
- روحانية الدعوة (عقيدة وعبادة).
- رياح السموم، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م

- تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث.. السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية دار بن زيدون
- الوحدة الإسلامية ضرورتها والوسائل العلمية لتحقيقها. دار الصحوة/ ١٩٩٤م.
- الوحدة الإسلامية وعودة الخلافة.
- اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار (منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى)
- اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب. د٠ع ١٩٩١
- حركة اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار والتغريب والشعوبية.
- حركة اليقظة الإسلامية في مواجهة النفوذ الغربي والصهيونية والشيوعية ٠د٠ع ١٩٧٩
- مقدمات المناهج. معالم تاريخ الإسلام. (٩) ٧ كتب
- من سقوط الخلافة إلي مولد الصحوة. ط بيت الحكمة للنشر والتوزيع بالقاهرة بدون تاريخ الأجزاء من: (١ إلى ٤).
- من طفولة البشرية إلى رشد الإنسانية د.ع القاهرة ١٩٧٨م.
- من منابع الفكر الإسلامي. ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
- مناهج الحكم والقيادة في الإسلام المكتبة صيدا بيروت ١٩٨٢م.
- قواعد البناء للدعوة الإسلامية.

- كيف يحتفظ المسلمون بالذاتية الإسلامية في مواجهة أخطار الأمم د.ع القاهرة ١٩٨٤م.
- كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار- مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت ١٩٨٥م.
- ليظهره على الدين كله دار الأنصار القاهرة ١٩٨٠م.
- مؤامرة تحديد النسل وأسطورة الانفجار السكاني، ط دار الاعتصام ١٩٨٣م.
- شهادة العصر والتاريخ. خمسون عامًا على الطريق الدعوة الإسلامية دار المنارة السعودية ١٩٩٣م.
- صحائف العزة وأيام المحنة في تاريخ الإسلام.
- صفحات مضيئة من تراث الإسلام د.ع القاهرة ١٩٨٧م.
- صفحات من أمجادنا المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٩٦٥م.
- تحول الدراسات التاريخية من الإقليمية إلى الإسلامية ط دار الاعتصام ١٩٩٠م. عقبات في طريق النهضة مراجعة لتاريخ مصر الإسلامية منذ الحملة الفرنسية إلى النكسة د.ع
- عيون التراث وذخائر التاريخ، ط دار الصحوة للطباعة والنشر ط١ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- في سبيل إعادة كتابة تاريخ الإسلام، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- قراء إسلامية لتاريخنا الحديث. د٠ع ١٩٩١م
- قضايا الأقطار الإسلامية، ط مكتبة مصر ١٣٦٥هـ مايو ١٩٤٦م.

- قضايا التراث الإسلامي، ط دار الاعتصام ١٩٩٠م.
- معالم التاريخ الإسلامي المعاصر من خلال ثلاثمائة وثيقة سياسية، ط دار الاعتصام ١٩٨١م
- معالم الفكر العربي.
- معالم تاريخ الإسلام المعاصر.
- معركة المقاومة العربية مطبعة التحرير- القاهرة ١٩٦١م.
- معلمة الإسلام. جزءان.
- مفهوم القومية الوافد، سقطت نظرية ساطع الحصري، ط دار الاعتصام ١٩٨٠م.

***

التراجم والأعلام:

- أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة حياته، آراؤه، آثاره المؤسسة المصرية العامة للتأليف- ١٩٦٣م.
- أعلام الإسلام وتراجم الأسماء البارزة منذ عصر النبوة إلى اليوم (كتاب د. ع القاهرة بدون تاريخ.
- أعلام القرن الرابع عشر الهجري (م ١أعلام الدعوة والفكر) الأنجلو ١٩٨١م
- أعلام لم ينصفهم جيلهم الدار القومية القاهرة ١٩٦٣م.
- أقباس من السيرة العطرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٣م.

- شخصيات اختلف فيها الرأي د. ع القاهرة ١٩٨٥م.
- الأئمة الأربعة مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وابن حنبل - بمؤسسة دار التعاون للطبع ١٩٨٤م.
- الأعلام الألف (ثلاثة أجزاء).
- الحقائق العشر في حياة كامل كيلاني.
- الرسول الإنسان، وأعلام الإسلام (تراجم الأعلام) دار الأعلام للطبع والنشر ـ ١٩٥٥م.
- الرسول الخاتم المثل الأعلى والقدوة الحسنة، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- الزهاوي شاعر الحرية.
- السلطان عبد الحميد صفحة ناصعة من الجهاد والإيمان والتصميم، ط دار الاعتصام ١٩٨٣م.
- الجباه العالية مطبعة الرسالة القاهرة ١٩٥٨م.
- من أعلام الحرية في العالم العربي الحديث.
- من أعلام الإسلام، الدار القومية.
- من أعلام الفكر والأدب الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٤م.
- جورجي زيدان منشئ الهلال مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٨م.
- جمال عبد الناصر وكفاح الشعب شركة النيل للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٥٦م.
- جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام د. ع القاهرة ١٩٨٥م.

- نوابغ الإسلام، ط دار الاعتصام ١٩٨٣م
- هذا هو جمال من بني مر إلى الجمهورية العربية المتحدة مكتبة المعارف بيروت ١٩٦٠م
- تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٠م.
- عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية ١٨٧٩ : ١٩٤٤م دار الغرب الإسلامي.
- عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع المؤسسة المصرية العامة للتأليف بدون تاريخ
- حسن البنا الداعية الإمام والمجدد الشهيد (١٣٢٤هـ / ١٣٦٨هـ) دار القلم بيروت.
- حسن البنا الرجل القرآني.
- الوجه الآخر لطه حسين.
- محمد الرسول (ﷺ) دراسة تحليلية لشخصية محمد (ﷺ) وحياته. ج١ الدار القومية.
- محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين (كتاب) الهيئة المصرية للكتاب مصر ١٩٧٤م
- يوم من حياة الرسول، ﷺ، د.ع القاهرة ١٩٨٠م.
- رجال اختلف فيهم الرأي الأنصار - القاهرة.

- طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام.
- محاكمة فكر طه حسين.
- هل غير الدكتور طه حسين آراءه في سنواته الأخيرة.
- مفكرون وأدباء من خلال آثارهم دار الإرشاد بدون تاريخ.
- قائد الدعوة ومجدد الفكرة.
- كامل الكيلاني في مرآة التاريخ.
- مصابيح العصر والتراث، د.ع
- مصححو المفاهيم: الغزالي، ابن تيمية، ابن حزم، ابن خلدون ط دار الاعتصام ١٩٨٠م.

***

المؤلفات الاجتماعية:

- أحاديث إلى الشباب المسلم، ط دار الصحوة للطباعة والنشر ط١ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- أخطاء المنهج الغربي الوافد، ط دار الكتاب اللبناني بيروت الأولى ١٩٧٤م.
- أخطر ما تواصى به المسلمون على مر الأجيال، ط دار الاعتصام ١٩٨٨م
- أضواء على الحياة.
- اعرضوا أنفسكم على موازين القرآن، ط دار الاعتصام ١٩٨٠م.
- الأخطار التي تواجه الأمم.

- التربية الإسلامية هي الإطار الحقيقي للتعليم، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- التربية والتعليم والثقافة في ضوء الإسلام.
- التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٥
- المثل الأعلى للشباب المسلم، ط دار الصحوة للطباعة والنشر ط١ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- المجتمع الإسلامي (نظام الإسلام قضايا المجتمع التربية الإسلامية ومناهج التعليم) ١٩٨٥م.
- المجتمع الإسلامي المعاصر في مواجهة رياح السموم القاهرة ١٩٧٨م.
- المجتمع الإسلامي بين عهدين.
- المدرسة الإسلامية على طريق الله ومنهج القرآن د.ع القاهرة ١٩٨٤م
- المرأة والبيت الإسلامي.
- بناء منهج جديد للتعليم والثقافة على قاعدة الأصالة، ط دار الاعتصام ١٩٨٣م.
- تأصيل القيم والمفاهيم، ط دار الاعتصام ١٩٨٨م.
- تأصيل مناهج العلوم والدراسات الإنسانية بالعودة إلى منابع الفكر الإسلامي الأصيل المكتبة العصرية
- قضايا الشباب.
- قضايا العصر في ضوء الإسلام - مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧١
- قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام - مؤسسة الرسالة- بيروت-١٩٨١م.

- قضايا مثارة تحت ضوء الإسلام د.ع القاهرة ١٩٨٤م.
- ماذا حققت حركة اليقظة في القرن الرابع عشر الهجري، ط دار الاعتصام ١٩٩٠م.
- ماذا يقرأ الشباب المسلم، ط دار الاعتصام ١٩٧٨م.
- مجتمعنا والبيت الإسلامي.
- المعاصرة في إطار الأصالة دار الصحوة القاهرة ١٩٨٧م.
- المنهج الغربي أخطاؤه والشبهات المثارة (أخطاء المنهج الغربي ـ الأصالة في التعليم والشريعة واللغة الفلسفات القديمة).
- تحفظات على معالم النفس والأخلاق، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م
- تحفظات على مناهج التعليم والتربية الوافدة، ط دار الاعتصام ١٩٨٨م
- فساد نظام الربا في الاقتصاد العالمي، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- في مواجهة الفراغ الفكري والنفسي للشباب، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- في مواجهة ركام الفكر المطروح على الساحة اليوم، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- تجاوزات العلوم الاجتماعية والإنسانية لمفهوم الفطرة والعلم، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- انهيار الحضارة الغربية، ط ١٩٤٦م ط دار الطباعة والنشر الإسلامية. ذو القعدة ١٣٦٥هـ.
- حضارة الإسلام تشرق من جديد، ط دار الاعتصام ١٩٨٠م.

- حضارة التوحيد وحضارة الوثنية.
- مناهج التربية الثقافة والعلوم. ط الاعتصام ١٩٨٩م
- نظريات وافدة كشفها الفكر الإسلامي، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- نظرية السامية مؤامرة على الحنيفية الإبراهيمية، ط دار الاعتصام ١٩٨٢م
- مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع في ضوء الإسلام.

***

المؤلفات الفلسفية:

- أخطاء المنهج الغربي الوافد، ط دار الكتاب اللبناني بيروت، الأولى ١٩٧٤م.
- أخطاء الفلسفة المادية، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- أضواء على الفكر العربي الإسلامي الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦م.
- إسلامية الثقافة، ط دار الاعتصام ١٩٨٨م..
- إطار إسلامي للفكر المعاصر، ط المكتب الإسلامي الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م
- إعادة النظر في قضايا الفلسفة المادية، ط دار الاعتصام ١٩٩٠م
- ابتعاث الأسطورة "مواجهة جديدة تواجه الفكر الإسلامي" دار الصلاح السعودية ١٩٨٤م.
- التأصيل الإسلامي والخروج من التبعية (خطوط عامه للتصور الإسلامي إزاء الفكر العلماني والوثني والمادي) ١٩٩٥.

- الدعوة الإسلامية في القرن الخامس عشر الهجري، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- الدعوة الإسلامية في عصر الصحوة. دار الفضيلة
- الدعوة الإسلامية في مواجهة التحديات. دار الاعتصام
- التغريب: أخطر التحديات في وجه الإسلام، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- التفسير الإسلامي للفكر البشري، الأيديولوجيات والفلسفات المعاصرة في ضوء الإسلام. دراسة جامعة د.ع
- التفسير الإسلامي للفكر البشري الإسلام والفلسفات القديمة. دراسة جامعة د.ع
- الثقافة العربية المعاصرة - مطبعة الرسالة.
- أخطر وجوه الاختلاف بين الإسلام والفكر الغربي. لم يطبع
- الثقافة العربية المعاصرة إسلامية أصولها وانتماؤها. دار الكتاب اللبناني ط ١٩٨٢
- الفلسفات القديمة والمعاصرة في ضوء الإسلام.
- القاديانية خروج على النبوة المحمدية، ط دار الاعتصام ١٩٨٣م.
- العروبة والإسلام.
- على الفكر الإسلامي أن يتحرر من سارتر، وفرويد، ودوركايم، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- فساد نظرية الجنس السامي واللغة السامية.

- ما يختلف فيه الإسلام عن الفكر الغربي الماركسي، سلسلة دعوة الحق (ع٥٢)١٩٨٦م
- مخططات الاستشراق في تغريب الفكر الإسلامي.
- مخططات التبشير الغربي في غزو الفكر الإسلامي.
- نحن العرب الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٠م.
- وحدة الفكر الإسلامي، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- وحدة الفكر الإسلامي مقدمة للوحدة الإسلامية الكبرى د. ع القاهرة ١٩٧٩م.
- وذكرهم بأيام الله.
- يقظة الإسلام في تركيا، ط دار الاعتصام ١٩٧٩م.
- يقظة الفكر العربي (حركة اليقظة في مواجهة التغريب في مرحلة ما بين الحربين)
- يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار.
- نحن أمام ثورة علمية جديدة، ط دار الاعتصام ١٩٩٠م.
- الفكر البشري القديم.
- الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والثقافة.
- الفكر الغربي دراسة نقدية دار الشئون الإسلامية الكويت.
- الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا الدار القومية للطباعة القاهرة ١٩٦٥م.

- مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام (الرد على فرويد وماركس ودوركايم) ط الهيئة المصرية ١٩٧٤م
- سقوط النظرية المادية، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م
- سقوط نظرية دارون.
- زيف ما يسمَّى بالحضارة اليهودية، ط دار الاعتصام ١٩٩٠م.
- سقوط الأيديولوجيات وكيف يملأ الإسلام الفراغ. سلسلة دعوة الحق (ع ١٣٩٠) - ١٤١٤هـ
- سقوط العلمانية، ط دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٩٣ هـ/ ١٩٧٣م الأولى.
- نحو بناء منهج البدائل الإسلامية للنظريات والمفاهيم الغربية الوافدة المطروحة في مناهج التربية والثقافة والعلوم. ط الاعتصام ١٩٨٩م)
- هزيمة الاستشراق في ملتقى الإسلام، ط دار الاعتصام ١٩٨٢م.
- هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام. د.ع ١٩٨٣م
- مسئوليتنا إزاء أزمة البشرية المعاصرة، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- مسئوليتنا تجاه الغرب في تبليغ إسلام القرآن والسنة، ط دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية، سلسلة دعوة الحق ١٩٩٠
- مشكلات العصر وقضايا الفكر.
- مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام مجمع البحوث الإسلامية- ثانية- القاهرة ١٩٩٦م.
- من التبعية إلى الأصالة في مجال التعليم والقانون واللغة.

- من اليقظة إلى الصحوة خلال المرحلة من ١٩٣٣ : ١٩٨٨م.
- سموم الاستشراق والمستشرقين مكتبة التراث الإسلامي القاهرة ١٩٨٥م.
- شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي - المكتب الإسلامي ١٩٧٨م.

***

الصحافة:

- الصحافة السياسية في مصر منذ نشأتها إلى الحرب العالمية الثانية.
- الصحافة الكاريكاتورية.
- الصحافة والأقلام المسمومة.
- تطور الصحافة العربية بين الحربين ١٩١٩ : ١٩٣٩م في العالم العربي.
- تطور الصحافة العربية في مصر (إطار لملامح المجتمع وصورة العصر).
- تطور الصحافة في العالم العربي بين الحرب العالمية الثانية إلى اليوم.
- تاريخ الصحافة الإسلامية الجزء الأول ويتحدث فيه عن مجلة المنار.
- تاريخ الصحافة الإسلامية الجزء الثالث (عن صحف الأخوان المسلمين) لم يطبع.
- تاريخ الصحافة الإسلامية الجزء الثاني ويتحدث فيه عن مجلة الفتح.

***

رسائل جامعية حول أنور الجندي:

١ - دكتوراه للباحث الهندي/ (أبو بكر محمد) بوليان كونان أبو بكر.. من كيرالا جنوبي الهند، خريج كلية اللغة العربية بالرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية أستاذ الأدب العربي في جامعة (كاليكوت في كيرالا).

وهذه الدراسة تناولت بالدراسة أعمال أنور الجندي المقاوم للتغريب في مجال الأدب العربي مبرزًا الباحث أن الأدب العربي يتميز بخصائص تجعله لا

يقبل النظريات الوافدة والمذاهب التي قدت لآداب أخرى تختلف في جوهرها عن الأدب العربي فلا يستساغ أن نحكم نظريات وافدة في الأدب العربي الذي ولد ونشأ على تأكيد الوحدانية لله والجمع بين الروح والمادة في انسجام لا تعرفه الآداب الأخرى إلى غير ذلك من خصائص أشار إليها الباحث.

٢ - الرسالة الثانية: رسالة ماجستير تقدم بها الباحث محمد رشدان العصيمي إلى كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م في مجال الأدب الإسلامي.

وكان عنوانها: (الأدب الإسلامي ونقده عند أنور الجندي).

تناول فيها الباحث جانب النقد الأدبي في كتابات أنور الجندي كما أوضح موقف الجندي من الحرية والالتزام في الأدب، وتناول الباحث موقف الجندي من الأخلاقية في الأدب وأبرز ملامح الالتزام الإسلامي في الأدب عند الجندي.

٣ - جهود أنور الجندي في الفكر الإسلامي التبشير والاستشراق والتغريب:

تناولت جهود أنور الجندي في الفكر الإسلامي عامة، وتقدم بها الباحث محمد السيد عبد ربه إلى كلية الدراسات الإسلامية فرع القاهرة.

٤ - أنور الجندي وجهوده في الدفاع عن الإسلام ضد التبشير والاستشراق والتغريب:

وهي مقدمة من الباحث: عمر السيد أبو سلامة جامعة الأزهر إلى كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة قسم الأديان والمذاهب. ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م تناولت جهوده في ثلاثة مجالات حددها الباحث وهي: التبشير والاستشراق والتغريب.

وهناك بعض الرسائل العلمية قيد البحث عند إعداد هذا الكتاب تتناول فكر أنور

الجندي وجهوده في ميادين أخرى، وسجلت في أكثر من جامعة عربية وإسلامية، منها واحدة تتناول جهود أنور الجندي الأدبية في تأريخ الأدب العربي المعاصر - وتقدم بها الباحث إلى كلية دار العلوم لنيل درجة الماجستير، وهناك أخرى تقدم بها باحث سعودي إلى إحدى جامعات المملكة العربية السعودية وتدرس جهود أنور الجندي في مواجهة خطر الوجودية والعلمانية على الفكر الإسلامي وقد تقدم بها.

***

الفصل الثاني

الأديب

توطئة

يمكن القول إن أنور الجندي كتب في معظم الأشكال الأدبية، وكتب عنها جميعًا.

فقد كتب القصة الطويلة أو الرواية، وسبقت الإشارة إلى أنه أصدر رواية بعنوان (بلا أمل) حدثني عنها ولكني لم أطلع عليها، وقد فهمت منه أنها كانت بنت زمانها تحمل روح الرومانتيكية والثورة على الواقع، بيد أنه فيما أعلم لم يكتب غيرها، خاصة بعد انتقاله إلى الصحافة، فقد انصرف إلى الكتابة المباشرة في الأدب والفكر والثقافة بصفة عامة.

وكانت المقالة بحكم عمله الصحفي هي ركيزة أعماله، فالصحافة تتطلب عملًا يوميًّا أو أسبوعيًّا أو شهريًّا، وقد كانت في بعض الأحوال أساسًا لبعض كتبه؛ حيث كان يجمع بعض مقالاته المتشابهة أو ذات الموضوع المشترك ويصدرها في كتاب واحد له منهج متقارب.

وبصفة عامة فقد كانت مقالاته عنصرًا مشتركًا في كثير من الصحف والدوريات العربية، أدبية وإسلامية وثقافية عامة؛ حيث كان يزود هذه الصحف وتلك الدوريات بما تطلبه من مقالات بصورة منتظمة، أو في المناسبات المختلفة.

وكانت المناسبات الإسلامية وخاصة شهر رمضان؛ فرصة ليكتب سلسلة من المقالات في فكرة واحدة أو قضية واحدة، ثم يجمعها بعد ذلك في كتاب يحمل كل منها عنوانًا واحدًا.

ثم إنه بحكم عمله الصحفي كان يجري حوارات أدبية وفكرية عالية المستوى مع رموز الأدب والفكر في مصر والعالم العربي، وكانت بعض حواراته تثير اهتمام الكتاب والأدباء والمفكرين في أرجاء العالم العربي، مثل حواره مع الراحل الدكتور محمد محمد حسين- رحمه الله- ونشرته مجلة الأمة القطرية المحتجبة في عددها الصادر في رجب ١٤٠٣هـ أبريل ١٩٨٣م، وسنعرض له إن شاء الله بوصفه نموذجًا للحوار الأدبي الفكري الراقي.

وكان تركيزه على معالجة القضايا الكبرى في كتب ممتدة، يشكل بعضها موسوعات متعددة الأجزاء، غزيرة الصفحات كما نرى مثلًا في موسوعته عن الصحافة الإسلامية التي تناولت مجموعة من الصحف الإسلامية في النصف الأول من القرن العشرين.

وإلى جانب الموسوعات الضخمة، فهناك موسوعات موجزة أو محدودة الصفحات مثل معلمة الإسلام أو دائرة الضوء أو على طريق الأصالة، وهي عبارة عن كتيبات صغيرة الحجم تقدم المادة العلمية حول فكرة معينة أو مصطلح معين؛ في إطار موجز وصفحات قليلة.

وفي هذا الفصل نتناول:

أولًا: الفنون الأدبية:

١ - المقال. ٢ - الحوار. ٣ - البحث.

ثانيًا: قضايا أدبية وعامة:

١ - العقيدة والشريعة. ٢ - اللغة العربية. ٣ - الأدب والنقد.

٤ - الشعوبية في الأدب العربي الحديث.

***

أولًا: الفنون الأدبية

١ - المقال

عادة يكون المقال بحثًا مختصرًا لموضوع كبير، باستثناء المقالات القصيرة التي كانت تتناول موضوعات صحفية سريعة، ومعظمها كان عرضًا لكتب ترد إلى الصحيفة، فيعرف بها في مقالات موجزة.

أما مقالاته التي كان يكتبها خصيصًا لبعض المجلات الإسلامية أو الأدبية، فكان يحتشد لها ويركز فيها على مقدمة تبين المفهوم أو الفكرة التي يعالجها، ثم ينطلق في إسهاب لبيان ما يريد مستشهدًا بالنصوص ومقدمًا للأدلة التي تؤكد ما يذهب إليه، ويكون الختام متسقًا بطريقة ما مع المضمون ومتصلًا به.

الحداثة:

فعلى سبيل المثال نجده في مقاله «الحداثة» الذي نشرته مجلة (منار الإسلام) في ربيع الأول ١٤٠٦هـ يبدأ مقاله بتقديم مفهوم الحداثة والظروف التي دخلت من خلالها إلى الأدب العربي، ثم يتناول واقعها في بلاد العرب، وأهم الدعاة لها، وطريقة تسللها إلى ثوابت الإسلام بحثًا عن تقويضه، وتشويهه، ويشير إلى ارتباطها لدى دعاتها بأفكار قديمة وحوادث جرت في التاريخ الإسلامي، كان هدفها ضرب الإسلام من داخله، ويظل يحلل أبعاد هذه الدعوة حتى يكشف فحواها الخبيث ومضمونها المدمر.

فالحداثة ليست دعوة مرحلية من دعوات التغريب في مجال الأدب، ولا تدخل في إطار المذاهب الأدبية الغربية التي نقلت إلى الأدب العربي، وإنما هي شيء أكبر من ذلك، إنها ثورة على الثوابت الإسلامية الأساسية تسللت إلى الفكر

العربي عن طريقٍ جانبي هو (الشعر) حتى لا تحدث ضجيجًا أو صياحًا يفسد عليها هدفها الذي تسير فيه ويمنعها أن تصـــل إلى غايتها الخطيرة؛ وهي محاربة القيم الإسلامية وإزاحة فكرة الأصول الثابتة، وتغليب طوابع التطور المطلق، والتغير المتوالي الذي لا يعترف أساسًا بالضوابط والحدود. ويرمي إلى فتح الطريق أمام حرية الإباحية، وتمجيد العلاقة الجنسية، والجرأة على أعلى القيم التي جاءت بها الأديان، وذلك بتحطيم هذه الضوابط والحدود.

حركة الشعر:

ويوضح أنور الجندي ذلك بحركة الشعر الحر- أو شعر التفعيلة كما يسمى أحيانًا- فقد كانت منذ ظهورها مقدمة ومدخلًا للحداثة أو هذا العمل الخطير كما يسميه، وقد قام على رأس هذه المؤامرة في بدايتها شاب علوي من الطائفة النصيرية اسمه على أحمد سعيد (أدونيس)، خدعه طائفي آخر نصراني هو(أنطون سعادة) زعيم الحزب القومي السوري المعادي للإسلام والعروبة، من خلال الدعوة إلى ما أسماه (فينيقيا)، وقد تلقفت أدونيس جهات أخرى أتاحت له الحصول على الدكتوراه في الأدب العربي من معهد الدراســـات الشرقية في الجامعة اليسوعية في بيروت، برسالة عنوانها (الثابت والمتحول: دراســـة في الإتباع والإبداع عند العرب) حاول فيها أن يهدم صرح اللغة العربية الشامخ، ويثبت أن أصحابه غير مبتكرين أو مبتدعين، ويبرهن على أنهم لم يقدموا شيئًا للإنسانية، ويؤسس على ذلك (أيديولوجية) الحداثة التي خُدع بها عدد من الشباب العربي.

وشارك إلى جانب أدونيس الذي يرى أن الثقافة العربية بشكلها الموروث متخلفة وغير مبدعة؛ لأنها ذات معنى ديني؛ عدد آخر من الطائفيين والشيوعيين من أمثال محمد الماغوط وسعيد عقل صاحب تنظيم (حراس الأرز)، وشعار قتل الغرباء (أي قتل المسلمين)، ولويس عوض، الذي لعب دورًا خطيرًا في الحياة الثقافية بسبب

تعصبه ضد العروبة والإسلام، بالإضافة إلى بدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، وكانا من أخلص دعاة الماركسية ورفض الإسلام[1].

احتقار التراث الإسلامي:

ويشير أنور الجندي أن الحداثيين تبنوا أمرًا آخر هو احتقار التراث الإسلامي العربي والزراية بالشعراء العرب القدامى المجددين، ونعتهم بالصنعة والتكسب، وإعلاء قيمة التراث اليوناني والروماني على ما فيه من وثنية.

ويقدم أنور الجندي مثالًا يسخر فيه أدونيس من معجزة الإسراء في قصيدة (السماء الثامنة). ويشير إلى الماركسي الفلسطيني معين بسيسو الذي يهزأ بالتراث وأعلام التاريخ، ومن طريقة الإسناد في الحديث النبوي الشريف، ويؤلف مقطوعة ساخرة يقول فيها: (حدثني وراق الكوفة/ عن خمار البصرة/ عن قاضٍ في بغداد عن سايس خيل السلطان/ عن جاريةٍ/ عن أحد الخصيان) الخ..

ويؤكد الجندي أن الشعر الحر مترع بالدعوة إلى الإباحية على نحو لم يشهده الشعر العربي، إلا عند بعض الشعراء الشواذ أو المنبوذين.

والعجيب أن دعاة هذا اللون العجيب قد قفزوا في كثير من البلاد العربية إلى حيث التحكم في وسائل الإعلام، حتى إنك تكاد تراهم يسيطرون سيطرة كاملة على هذه الوسائل في بعض بلدان العرب، وفي هذا الجو الإرهابي أصبحت ترى شعراء عموديين يكتبون قصائدهم، أو يعيدون كتابتها بعد تسطيرها وتبييضها وتقطيعها - إرضاء لهم وتقية - وقد ترجم كثير من تلك القصائد؛ ليس لجودتها وإنما أولًا لسهولة ترجمتها لمستشرق شاذ، أو لدوافع سياسية وعلل دينية. ونحن نرجح أنها

(١) في أواخر حياته تبرأ بدر شاكر السياب من الماركسية، وكتب كتابًا مهمًا فضح فيه الماركسيين، وتحدث عن دور اليهود العراقيين الرئيسي في تشكيل الحزب الشيوعي العراقي، والكتاب عنوانه: كنت شيوعيًا، نشرته دار الجمل بألمانيا عام ٢٠٠٧م

حركة مقصودة أريد بها طعن اللغة العربية؛ لغة القرآن والإسلام وعمادها؛ توطئة للإجهاز عليها.

ويستمر في رصد دور الماركسيين وأعداء الإسلام في هذا المجال ويشير إلى: بدر شاكر السياب والبياتي ودنقل، وشعراء المجون، ويوسف الخال وأمير إسكندر وجبرا إبراهيم، وأسعد رزق، وخليل حاوي وتوفيق الصايغ، وشوقي ابن سقا، وميشال طراد، وميشال سليمان، وموريس عواد، وغيرهم.

أيديولوجية الحداثة:

ويتناول أيديولوجية الحداثة في البلاد العربية بوصفها ثورة متمردة على كل نظام وقاعدة وقانون، وترمي إلى هدم الضوابط والحدود والقيم والقواعد التي قدمها المنهج الرباني. إنها ثورة اجتماعية هدامة، تتخفى وراء نصوص الشعر والأدب لتحجب غايتها الحقيقية وحركتها الشريرة، ويذكر أن دعاة الحداثة يهاجمون الثوابت التي قدمها الدين الحق في عنف شديد، ويصفونها بالجمود والمحافظة والتحكمات. ويشير إلى دورها في تخريب مجالات عديدة. ويربط بين الحداثة وحركة الزندقة القديمة، وجماعة المجّان الذين قادهم الشاعر أبو نواس، وقد تركوا تراثًا مسمومًا استطاع المستشرقون إحياءه عن طريق شعوبي جديد هو أدونيس الذي يحمل في أعماقه جميع أحقاد المجوسية والباطنية. منطلقًا من: نظرية التطور المطلق التي نقلها من فكر هيجل في دعوته إلى إلغاء الثوابت، وإحياء الوثنيات القديمة، وتحطيم عمود اللغة العربية، وتحطيم الفصحى لغة القرآن، وتحطيم عمود الشعر، ومهاجمة منهج الثبات والقيم، وإطلاق اسم السلفية عليه، والسلفية هنا تعني المعتقد الديني، وتغليب مفاهيم السريالية (النظرة التي لا يحكمها العقل) أو ما يسمى فوق الواقع، وتغليب طوابع الجنس والإباحة استمدادًا من مفهوم الإغريق وعبادة الجسد وإباحيات الوجودية التي دعا إليها سارتر، ونظرية التحليل

النفسي الذي يعتمد الجنس والتي دعا إليها فرويد، ونظرية العلوم الاجتماعية التي دعا إليها دور كايم، وفتح أبواب المجون والجنس والإباحة والتحلل الاجتماعي. على أن يدور ذلك كله في إطار (التاريخانية) وهي الحتمية التاريخية لماركس، فالمنهج الماركسي التاريخي هو الأساس الأيديولوجي للحداثة. ويربط الحداثة بحركة الحشاشين والباطنية والمجوسية المتنامية في حركة القرامطة، وهو ما ركز عليه أدونيس في كتابه (الثابت والمتحول).

الحداثة معادية للفطرة:

وينتهي أنور الجندي إلى إدانة الحداثة؛ لأنها محاولة كاذبة ومضللة ومحكوم عليها بالسقوط حيث تقوم على أسس معادية للفطرة والعلم والحق والمنطق، إنها نوع من التمويه الكاذب والخداع المضلل، وكل من اعتمد عليهم مفهوم الحداثة من رموز قديمة قد سقطوا فعلًا وداستهم الأقدام، ولم يدخلوا التاريخ إلا في باب الشعوبيين والباطنيين وأعداء الإنسانية، ولقد هُزموا فكريًّا في عصرهم، وذهب كل ما قالوه من أكاذيب وادعاءات، حتى جاء الاستشراق والغزو الفكري ليعيدهم إلى الحياة مرة أخرى.

إن (دعاة الحداثة) إنما يدعون إلى توهين السلطة المطلقة - وهي الدين - والنيل من السيد الأعظم (الله تبارك وتعالى، علا وجل عن كلماتهم المسمومة) ولن يتحقق يومًا أن تغلب الفئة الباطلة على النظام الرباني القائم في حكمه وقواعده وأي أصل من أصوله مهما تجمع لهذا دعاة الشعوبية والباطنية. ويستعرض أنور الجندي كثيرًا من النقاط المتعلقة بالموضوع مثل الحرية عند الحداثيين التي تعني التحلل من كل قيد ديني أو اجتماعي أو نظامي أو قانوني. ومثل ما يسمونه تجاوز السلفية ويقصدون تجاوز قيم الدين والأخلاق، ومثل حرية اللغة ويقصدون الخروج باللغة عن سياقها ومضمونها وتحررها من إطارها التاريخي والبلاغي المرتبط بالبيان العربي والقرآن الكريم. ويكثر أنور الجندي من تقديم الأمثلة

والنماذج التي تثبت ما يقوله حول الحداثة والحداثيين ومنهجهم في الترويج لأفكارهم الحداثية، وبالضرورة يبقى أدونيس محور هذه النماذج وتلك الأمثلة. وينتهي إلى أن الحداثة (أيديولوجية مناهضة) للإسلام والأخلاق، وأنها تستهدف (ثوابت الإسلام) والإيمان بالغيب وتقوم على أسس ثلاثة:

- عدم الانتماء لأي قيم أو منهج.
- التمرد على كل الثوابت وفي مقدمتها الدين والأخلاق.
- استعمال قواعد اللغة استعمالًا مغلوطًا.

خلاصة في الحداثة:

ثم ينتهي إلى خلاصة في (الحداثة) ترى أنها:

أولاً: ردة إلى طفولة البشرية وهجوم مستتر على الفصحى لغة القرآن بهدف تدمير منظومة البيان العربي التي عرفها العالم منذ أربعة عشر قرنًا والمنسابة في جميع كتابات العلماء والمؤرخين والفقهاء، والتي تقوم على فقه اللغة والبيان والتحقيق التاريخي الذي استمده المسلمون من علم الحديث النبوي.

ثانيًا: تهدف إلى تقويض المنزع الحقيقي للأدب العربي المرتبط بالقرآن الكريم والسـنة، كما تنزع إلى إغراقنا في مذاهب تجريدية والرموز والدادائية والسريالية.

***

المشروع الحضاري الإسلامي:

وفي أوراق أنوار الجندي مقال مهم بعنوان «المشروع الحضاري الإسلامي» يشير إلى رؤيته للمستقبل؛ حيث يتجاوز رصد الواقع ومشكلاته، ولكنه يطرح ما ينبغي أن تهتم به الأمة لبناء قوتها وعزتها والمشاركة في الحضارة الإنسانية، وفي

مقدمة المقال يؤكد على أنه لم يعد هناك مفر من أن يتقدم كتاب ومفكرو الأمة الإسلامية بتصوراتهم للمشروع الحضاري الإسلامي الذي أصبح ضرورة ملحة بعد أن مر المسلمون والعرب خلال السنوات الأخيرة بتحديات خطيرة وأخطار حاصرتهم؛ مما يتطلب وضع تصور أصيل مستمد من مفهوم الإسلام الجامع ليكون نبراسًا للخطوات المتصلة على طريق الأصالة والعودة إلى المنابع وإقامة معاصرة في دائرة الأصالة يكون فيها (البناء على الأساس)، وليكون هذا المشروع الحضاري الإسلامي بديلًا للمشروع الحضاري الوافد الذي حاول السيطرة على مقدرات المسلمين والعرب خلال قرن ونصف قرن من الزمان بعد أن ثبت عجزه عن العطاء وفشله في تحقيق الأمن النفسي والمجتمع الرباني.

إخفاق المشروعات العلمانية:

ويرى أن أي مشروع حضاري علماني أو قومي أو بشري لا يُمكّن لقيام الأمة القادرة على حمل رسالة الحق تبارك وتعالى للعالمين، والمشروع الذي تحتاجه الأمة لابد أن يستمد مفاهيمه من الأصل الأصيل الخالد: النص الموثق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي جمع مختلف القيم الربانية العليا التي وهبها للبشرية (القرآن الكريم) والسنة الشريفة. ولا بد أن يكون المنطلق الحقيقي من القرآن والسنة على النحو الذي بدأت به النهضة الأولى إيمانًا بأن القرآن كتاب البشرية الخالد الصالح لكل زمان ومكان والينبوع الذي تنطلق منه المناهج والخبرات التي تمكن المسلمين خاصة (والبشرية عامة) من جني الثمار من خلال مخاطبة العقل والقلب والوجدان. ومن هذا المنطلق يمكن تأصيل كل المنظمات القائمة وردها إلى منابعها: منظمة الانتماء، ومنظمة المجتمع، ومنظمة التعامل الخارجي مع الغير وتكامل المجتمع الداخلي، وتصحيح مسار الاقتصاد ورفض النظام الربوي، ووضع المرأة في مكانها الطبيعي عمادًا للأسرة والمجتمع، وبناء التعليم على أسس التربية

الإسلامية وتوجيه أدوات الترفية والتسلية نحو الوجهة السليمة التي تحقق هدف الترويح دون الدخول في دائرة الانحراف والتبذل وحماية الوجود الاجتماعي كله من الانحراف الأخلاقي ومن الفساد والفحشاء والإثم كله.

الوسطية:

ويؤكد على امتلاك الإسلام قوة رائعة لا يمتلكها أي منهج بشري أو أيديولوجية أخرى، تلك هي الوسطية: وسطية التوازن والتكامل والمواءمة بين القيم بحيث لا يوجد من خلال ذلك أي صراع طبقي أو حصون بين الأجيال أو تضارب بين الآباء والأبناء.

ويوضح طبيعة الوسطية في ضوء التجربة الغربية التي انتهت إلى الفشل ويشير إلى أن المسلمين لا ينقلون نظم الآخرين ولكنهم يفيدون من الآليات والوسائل فيصهرونها في بوتقة فكرهم ويحولونها إلى مواد خام ينتفعون بها دون أن تحاصرهم أو ينصهروا فيها.

ويقوم المشروع الحضاري الإسلامي على أساس الوحدة الثقافية بين كل العناصر البشرية التي تستظل بلواء الأمة الإسلامية انطلاقًا من رسالات السماء، مع ملاحظة أن رسالة الإسلام مذ جاءت؛ صهرت قيم الشرائع السماوية وأخلاقياتها في منظور جامع واحد قوامه اللغة العربية.

والنظام الإسلامي هو المنطلق الحقيقي لبناء المشروع الحضاري الإسلامي بقاعدته العريضة من خلال فروعه الثلاثة:

١ - الشورى.

٢ - العدل الاجتماعي.

٣ - الحدود والضوابط.

الوحدة الإسلامية:

وهذه القيم الأساسية هي وحدها التي تمكن المجتمع الإسلامي من التماثل المفضي إلى الوحدة الإسلامية الجامعة حيث تتسع دائرة التشابه وتمتد بمفهوم (التعارف) الإسلامي، فتلتقي كل العناصر والأقطار والقوميات والنحل ويصير الوطن الإسلامي وحدة كاملة في مجال الاقتصاد والثروة والقوى العاملة والأرض الزراعية ومعطيات الركاز (المعادن) مما تكشف عنه الأرض كالبترول والمنجنيز والكوبالت والفوسفات والفحم وغيرها.

ويواصل أنور الجندي تأكيده على فشل الماركسية والرأسمالية في تحقيق أي خير للمسلمين، ومثلهما ما يسمى بالتيار الإسلامي اليساري أو التيار الإسلامي القائم على مفهوم الاستعلاء بالمفاهيم العقلانية المتخذة من المعتزلة والتي لا تقدم الإسلام مفهومًا جامعًا متكاملًا بين الوحي والعقل.

الخلافة والوحدة:

ويناقش المشروع الإسلامي في ضوء الحملة على الخلافة، ويرى أنها لا تحجب الوحدة الإسلامية الجامعة التي يمكن أن تتشكل في أية صورة من صور العصر، وقد قدمها بعض فقهاء القانون وغيرهم في صورة كومنولث إسلامي أو جامعة إسلامية، فإذا أضفنا إلى هذا التعددية الحزبية والشورى الملزمة والعلاقات السمحة مع غير المسلمين وترابط العروبة والإسلام تشكلت أمامنا صورة واضحة لملامح وخيوط المشروع الحضاري الإسلامي الذي يتطلب العمل على الأسس التالية:

ملامح المشروع الحضاري الإسلامي:

أولاً: أسلمة المناهج والعلوم والمعرفة وتقديم البدائل الأصيلة مكان المفاهيم الوافدة في مختلف المجالات.

ثانيًا: بناء قاعدة صلبة للتربية الإسلامية الخالصة التي تحتفظ بعناصر الأمة وقدرتها على الإيمان بحق الله تبارك وتعالى على المسلم في دائرة الاستخلاف

والعمران والسعي والتحرر من الضعف والرخاوة والترف الوهمي وكلها من علامة الهزيمة التي تبثها أدوات الترفيه.

ثالثًا: لابد أن تخرج الأمة الإسلامية من طابع الضعف وتدخل مرحلة الصمود والعزيمة وذلك حتى تستطيع أن تحقق وجودها الحقيقي وتقيم مجتمعها الأصيل الذي يحمل طابع ذاتيتها الخاصة المتحررة من التبعية.

سياق متقدم:

ولا شك أن رؤية الجندي للمشروع الإسلامي- التي كتبها فيما يبدو قبل عقود- تأتي في سياق متقدم يراعي المستجدات التي جرت للأمة الإسلامية من تمزقات وانقسامات، فضلًا عن وقوع كثير من بلدانها تحت الاحتلال الأجنبي وتعرضها للسيطرة الغربية وهيمنتها، فضلًا عن الغزو الفكري الذي طال بنيتها التعليمية والاجتماعية والثقافية، وافتقادها لمنهج العدل والشورى ومعالجة الفساد.

ويلاحظ أن أنور الجندي كان يلح على الفكرة الجزئية ويقلبها على أكثر من وجه، وكان أحيانًا يضطر إلى الاستطراد والعودة إليها ليزيدها إضاءة، ولكنه في نهاية الأمر يضيء الموضوع كله، ويقدم فكرته بوضوح شامل، بعد أن يقدم الأدلة والحجج والبراهين التي تساند وجهة نظره، وتمنحها عمقًا فكريًا راسخًا.

ومع أن مقالات أنور الجندي تبدو فضفاضة، ومكتوبة بسرعة، إلا إنها تعبر عن طبيعة الرجل الحريص على تناول كثير من قضايا الأمة وواقعها، ويخشى أن يفوته منها شيء فيشعر بالتقصير في حق دينه أو أمته، ولكنه في كل الأحوال يقدم مادة غزيرة تتعلق بموضوعه وجزئياته وتغطيها تغطية شاملة.

الحوار الأدبي:

على مدى عمله الصحفي استطاع أنور الجدي وخاصة في مقتبل حياته الأدبية والصحفية إجراء كثير من الحوارات السريعة والطويلة، ويبدو أنه على كثرة

مقابلاته وحواراته لم يثبتها، واكتفى بالإشارة إلى بعض مقولات من حاورهم في ثنايا مقالاته وكتبه، ولكنَّ حوارًا مهمًّا - أشرنا إليه من قبل - نشره في مجلة «الأمة الإسلامية» ونشر في رجب ١٤٠٣هـ أبريل ١٩٨٣م، مع العالم المفكر الراحل الدكتور محمد محمد حسين، يقدم لنا صورة دقيقة عن اهتمام أنور الجندي بقضايا الأمة الإسلامية ووعيه بأسبابها ونتائجها؛ ولذا يستنطق محاوره ليقدم تحليلات عميقة لما يسأل عنه من قضايا خطيرة يعالجها باحث خبير يملك أدواته وقدراته الفكرية والعقلية التي تصل به إلى تشخيص شامل، وعلاج ناجع.

إنه حديث نادر بحق؛ لأنه تناول كثيرًا من القضايا المهمة وتكلم فيها الدكتور محمد محمد حسين بجرأة واضحة وكشف عميق، كما كان الحديث الأخير للمفكر الراحل الذي لم يدل بعده بحديث آخر، وربما كان آخر الأحاديث التي أجراها أنور الجندي نفسه.

تعريف بالمحاوَر:

يبدأ الحوار بتعريف المحاوَر وبيان قيمته العلمية ومكانته الفكرية، فيقول:

« الدكتور محمد محمد حسين رئيس قسم الأدب واللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وأستاذ الأدب العربي في جامعة الإسكندرية منذ ١٩٣٣م، وهو يجاهد في سبيل مفهومٍ إسلامي أصيل للأدب العربي، وقد عمل سنوات طويلة في كلية الآداب بجامعة بيروت العربية، وأصدر عددًا من المؤلفات؛ في مقدمتها كتابه الأشهر الذي أدَّى خدماتٍ واسعةً بنقل وجهة النظر الإسلامية إلى شباب الجامعات - يقصد كتابه «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» في جزأين من الثورة العرابية إلى قيام الجامعة العربية (١٨٨٢ - ١٩٤٦م)، ومن مؤلفاته الأخرى المتعددة: كتابه (حصوننا مهددة من داخلها).

وقد أكمل التعريف باتجاهه الفكري في ثنايا الحوار بأنه: واحد من أبناء المدرسة الإسلامية الملتزمة التي نشأت في أحضان حركة اليقظة الإسلامية، وحملت لواء (أسلمة)

الأدب والثقافة في كلية الآداب على مدى خمسين عامًا وتحريرها من الزيف والسموم التي صبغها بها الدكتور طه حسين وشيعته، أمثال: علي عبد الرازق، وأمين الخولي، وإبراهيم مصطفى، وهو- أي محمد محمد حسين - رائد الأصالة في مجال الأدب، شأنه شأن علي سامي النشار في مجال الفلسفة، وعبد القادر عودة في مجال الشريعة والقانون، ومحمود أبو السعود وعيسى عبده في مجال الاقتصاد الذين ردوا إلى الإسلام اعتباره بعد أن طواه التغريب زمنًا في الدراسات الجامعية؛ فلهم أجرهم عند ربهم.

وقد توفي الدكتور محمد محمد حسين إلى رحمة الله في أول ربيع الآخر ١٤٠٣هـ وقد أجرى معه الحديث أثناء زيارته القاهرة قادمًا من السعودية التي كان يعمل بإحدى جامعاتها، على أمل أن يُتمَّه في زيارة أخرى، غير أن قضاء الله نفذ قبل أن يُتم الحوار.

موضوعات الحوار:

ويلاحظ أن الحوار دار حول قضايا عميقة وجادة، ولم يتطرق إلى النواحي الشخصية أو المجالات البعيدة عن هموم الأمة. كان الحوار مركّزًا حول تقويم المرحلة الفكرية السابقة وما جرى فيها، وتبعية الأمة للغرب، ومشكلة التربية والتعليم وقضية اللغة والشعر وغيرها من القضايا التي ما زال لها حضور عند تسجيل الحوار قبل ثلاثين عامًا، بل ما زالت حاضرة في أيامنا الراهنة.

كما يلاحظ أن القضايا المثارة في الحوار هي القضايا التي ألح عليها أنور الجندي نفسه في كتاباته ومؤلفاته، واستغرقت جهده على مدى حياته الفكرية والأدبية.

ولعل هذا ما جعل الحوار يبدأ بسؤال الدكتور محمد محمد حسين - رحمه الله - عن تقويم المرحلة التي أمضاها منذ نصف قرن (١٩٣٣ - ١٩٨٢م)، وهو يجالد في وجه التغريب والشعوبية والغزو الثقافي والسموم الناقعات التي طرحها الدكتور طه حسين وغيره في طريق الأدب العربي.

الاحتواء:

وكانت الإجابة مؤكدة على ضرورة مواجهة القيود والحواجز التي وضعت لاحتواء الفكر الإسلامي؛ حيث قال:

«لعلك تعرف من أحاديث بيننا مستفيضة ماضية فلم يدع (يقصد الغرب) مجالًا من المجالات إلا وضع قيوده وحواجزه حتى يحتويَ الفكر الإسلامي في دائرة معلقة، فلا يستطيع تحقيق ذاتيته أو التماس مصدره القرآني الأصيل، وهي محاصرة شملت عدة ميادين؛ أهمها وأخطرها ميدان الشريعة الإسلامية».

وينتقل الحوار إلى مناقشة التفاصيل فيتوقف عند الخطر الذي يتصل باحتواء الشريعة الإسلامية، ثم الخطر الذي يأتي من جانب تبعية التعليم في البلاد الغربية للمناهج الأجنبية، ثم دعوة التغريب والشعوبية والغزو الثقافي إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام، ثم التحديات التي تواجه المجتمع الإسلامي نتيجةً لمخططات التغريب، ثم المؤلفات المسمومة التي أخرجتها الجامعة العربية في فترة تولي الدكتور طه حسن لرئاسة اللجنة الثقافية: مختارات إمرسون اليهودي، و«قصة الحضارة» لـ«ويل ديورانت» و«الحرية والثقافة» لديوي، وغيرها من المؤلفات التي تحمل سموم الطعن في التاريخ الإسلامي وإشاعة المفاهيم الصهيونية، ثم مخططات التغيير في مجال اللغة العربية،...»..

نماذج إجابات موجزة:

ويمكن أن نقرأ بعض النماذج الموجزة لإجابات محمد محمد حسين لنرى مدى عمق التجربة التي شغلت الرجل طوال نصف قرن وجعلته يصر على مجابهة الأخطار التي تواجه الأمة، وتعطل مسيرتها، وتصنع مضاعفات تزيد من متاعبها ومشكلاتها.

الشريعة والغرب:

حول احتواء الشريعة الإسلامية يقول:

«هذا المجال بذلت فيه القوى الاستعمارية وذات النفوذ في البلاد العربية بعد الحرب العالمية الثانية جهودًا كبيرةً من أجل احتواء الشريعة الإسلامية تحت اسم التطوير، بحيث تصبح أداةً لتبرير القيم الغربية وتقريب ما بين الشعوب الإسلامية والغرب، فهي الغاية الأخيرة والهدف المقصود الذي يسعى إليه، ومن أساليبهم في هذا التطوير أن يستدرجوا المسلمين إلى مؤتمراتٍ للكلام في نقاطٍ معينةٍ من نظم الشريعة التي تخالف ما أسفر عنه عُرف الغربيين مما يجري باسم المدنية؛ وذلك لكي يُلجِئوهم إلى تحريفِ نصوص القرآن والحديث والميل إلى ما يوافق العادات الغربية السائدة.

وأكثر ما تجد هذا التحريف في المرأة وما يتصل بشئونها، مثل ما يدَّعي بعضهم من أن الإسلام قد أسَّس للمرأة حقوقًا في الحكم أو الكلام عن الحجاب والنقاب وتعدد الزوجات والزنا.

التبرير والاعتذار:

وقد يُطلَب من أحدهم أن يتحدث عن هذه الموضوعات فيشغل نفسه بتبرير الأساليب العصرية السائدة مما يخالف الشريعة الإسلامية، فينتحل لها الأعذار ويخترع الحيل لتحليلها ومحاولة الميل إلى أقصى ما تحمله النصوص نحو القيم الغربية إرضاءً للداعين إليه، وبذلك يقع في الأحبولة التي دبَّرها له ولأمثاله دهاقنة المستشرقين.

فهو في سبيل دفع تهم الجمود التي يلصقها الغربيون بالشريعة ينجرف إلى أقصى الطرف المناقض في بيانٍ ما تنطوي عليه الشريعة من مرونة التطبيق حتى يبلغ بهذه المرونة حد الميوعة وانعدام الذات والمقومات التي تجعلها لأن تكون

ذيلًا لأي نظامٍ وتبعًا للأهواء، وبذلك ينتهي إلى إلغاء وظيفة الدين؛ لأنه بدلًا من تقويم عوج الحياة بنصوص الشريعة يحتال على نصوص الشريعة حتى يبرر عوج الحياة المعاصرة.

وتُجرَى دراسات المستشرقين ومؤتمراتهم نحو هذه الغاية الخطيرة، وهي تهدف إلى محاصرة (الدين) لتضييق دائرة نفوذه وقصرها على شئون العبادات وإلغاء المعاملات التي يقوم عليها تنظيم المجتمع.

إعادة النظر في الدين:

كذلك فإنَّ من محاذير أعمالهم مع بعض من يؤيدهم من علماء المسلمين فكرة إعادة النظر في الدين وتطويره، ومنهم مَن يطالب بوضع تجربة الدين وتجربة النبوة والمعجزات والصلاة والحياة الآخرة موضع البحث وإخضاعها لقوانين علم النفس الحديث التي تقوم على الحدس، وتخضع للتغيير والتبديل.

حصوننا مهددة من الداخل:

وحول تبعية التعليم للغرب يقول الدكتور محمد محمد حسين: إن حصوننا مهددة من داخلها.. إن وزارات التربية والتعليم هي أهم المعاقل والحصون الساهرة على أمن الشعوب وكيانها؛ لأنها هي المؤتمنة على أثمن ما تملكه الأمة من كنوز، وهي الثروة البشرية بما ينطوي عليه من قوى مادية ومن ملكات تُشرف على تربيتها، وهي ثروة تتضاءل إلى جانبها كل كنوز الأرض؛ لأن كنوز الأرض لا تساوي شيئًا بدونها؛ فالعقل هو الذي يستخرجها، والخلق الديني هو الذي يدفع الناس إلى بذل الجهد وإلى إعمال هذا العقل فيما وُكل إليه من أمور، ولا ريب أن اتصال القائمين على شئون التربية والتعليم في هذه البلاد العربية بالمؤسسات الغربية للتعاون معها في ترويج مبادئ وأساليب يُقال إن المقصودَ بها هو رفع مستوى التعليم وإصلاح

شئون الجيل الجديد؛ أمر لا يصدقه عقل ولا يتفق مع ما يبذلون من محاولات ظاهرة وخفية لابتلاع هذه الأمة والكيد لها.

إن التقدمَ الصناعي لا يُغني شيئًا إن غفلنا عما حفظه التاريخ من دروس وعظات فتفرَّقت بنا السبل ودبَّ فينا دبيب الخلاف ومزَّقتنا الدعوات المتنافرة التي ينقض بعضها بعضًا، والدين واللغة هما أهم دواعي الألفة والتماسك في كل مجتمعٍ إسلامي، والدين هو الذي يوحِّد العادات والأمزجة، فتجمُّع الناس فيما يحبون وفيما يكرهون وفيما يألفون وفيما يعادون على ألوان معينة من الأساليب البيانية؛ لذلك كانت المعاهد والمؤسسات التي تقوم على صيانة الدين واللغة هي بمثابة الحصون والمعاقل التي تسهر على حمايتنا وسلامتنا.

وتحاول بعض الدول الغربية أن تجمع رجال التربية في مؤتمرات لاحتوائهم وتوجيههم وجهتها هي.

سلخ العرب من دينهم:

والمركز الدولي للتربية الأساسية في العالم الغربي لا عملَ له إلا سلخ الريف العربي من دينه وخلقه وعروبته، وطبعه بالطابع الغربي؛ إتمامًا لما بذله الغرب من جهود في «فَرْنَجة» هذه المنطقة بعد أن أعلن المستشرقون أن تأثير «الفَرْنَجَة» أو التغريب لم يتجاوز المدن، وهو احتيال خبيث لدخول الريف بعد أن عجز التنصير وعجزت الأساليب الاستعمارية عن اقتحامه إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وها هو يقتحم اليوم تحت ستار ما يُسمَّى بالتربية الأساسية.

وهي بهذا تهدف إلى تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات على أسسٍ غربيةٍ خالصةٍ تُروَّج باسم العلم؛ هذا التغيير لا يبالي أن يخالف الإسلام وتعاليمه؛ لأن القائمين على هذا التغيير هم مجموعة من الخواجات الذين يختفون خلف الشخوص

العربية التي تبدو للناظر وكأنها تتحرك بإرادتها وهي تسير وراء خطوط مرسومة.

وتهدف هذه المؤسسات إلى إفساد المرأة الريفية و«فَرْنَجِتها» واستئصال حيائها وخلط الذكور بالإناث وإخراج المرأة إلى الأسواق وامتهانها بين الرجال؛ مما يُعرِّض المجتمع كله للانحلال والاندثار، والهدف الخفي هو استفادة معلومات دقيقة من مصادر موثوق بها تخدم الذين يرسمون الخطط السياسية والحربية لهذه المنطقة.

فضلًا عن إفساد البنين والبنات في الرحلات المختلطة، وهو ما تدعو إليه الماسونية بتحويل الأنظمة الوطنية إلى أنظمة عميلة.

إننا إذا احتجنا إلى الاستفادة من خبرة الغرب وتفوُّقه في الصناعات الآلية التي كانت سببًا في مجده وسيادته، فمن المؤكد أننا في غير حاجةٍ إلى استيراد قواعد السلوك والتربية والأخلاق التي تدل الأمارات والبوادر على أنها ستؤدي إلى تدمير حضارته والقضاء عليها قضاءً تامًّا في القريب العاجل.

دعوة باطلة:

وحول الدعوة التي يسمونها تطوير قواعد اللغة العربية أو تهذيبها أو تيسيرها أو إصلاحها أو تجديدها يقول الدكتور محمد محمد حسين: إنها تعني شيئًا واحدًا هو التحلل من القوانين التي صانت اللغة العربية خلال ألف عام أو يزيد، وقد اقترنت هذه الدعوة بصعوبة قواعد اللغة العربية وتوقفها عن النمو والتطور وتخلفها عن مسايرة العصر والانتفاع بما استحدثه الدارسون في الدراسات، وهي دعوة باطلة من وجهين:

هي باطلة أولًا؛ لأنها تتجاهل سنة الله من خلق الناس شعوبًا وقبائل، وكان من آياته وسننه فيهم اختلاف ألسنتهم، وطبيعي حين تختلف الألسنة أن تختلف قواعدها؛ لأن القواعد التي تنظِّم لغة كل مجتمع تنبع من واقعها وتلائم طبيعتها ونظامها.

ومحاولة توحيد القواعد والنظم في اللغات أو في الجماعات البشرية على وجه العموم غرض خبيث؛ يعلم الداعون بها - أو لا يعلمون - أنه فرع من محاولات متعددة تتجه كلها إلى هدف واحد هو طمس الفوارق المميزة بين الأجناس والجماعات البشرية؛ دينية كانت هذه الفوارق أو قومية أو فنية جمالية، مما تسعى إليه الصهيونية العالمية حتى تنحل الروابط التي تقوم عليها المجتمعات البشرية المختلفة، فلا يبقى على وجه الأرض مجتمع متماسك غير المجتمع الصهيوني.

والوجه الآخر: أن أصحابها حين عاينوا الداء لم يصيبوا الدواء؛ رأوا ضعف الجيل الناشئ في اللغة العربية وانصرافه عن تراثها وعجزه عن تذوق أساليبها وروائع آدابها، فظنَّ أن العلة في قواعد هذه اللغة، والحقيقة أن العلة في الذين يعلمون القواعد أو يتعلمونها؛ فكلاهما مقصِّر وكلاهما ابتليت به الأمة العربية في سائر مناشطها من العجز والتفريق وضعف الهمم.

مواكبة الأجواء الحضارية:

وقد ظلَّت هذه اللغة قرونًا طوالًا تزيد عن ألف عام صلحت فيها لمواكبة الأجواء الحضارية التي تقلَّبوا فيها بين مشارق الأرض ومغاربها؛ لم تَضِقْ بشيء منها ولم ينتبهوا إلى وجود هذا النقص في اللغة إلا في نصف القرن الأخير تقليدًا لدعاة المستغربين الذين أخذوا يؤلفون الكتب في اللهجات العامة واقترحوا لهذه اللهجات لغة لتحل محل العربية الموحَّدة في تدوين العلوم والآداب، كما اقترحوا كتابتها بالحروف اللاتينية.

وخطر هذه الدعوات على التراث الإسلامي وعلى الأجيال التالية بين أبناء المسلمين وأبناء العرب خاصة؛ واضحٌ لا شك فيه؛ فكلها ترمي إلى عزل هذه الأجيال عن تراثها بتغيير رسم الخط تارةً وبتطوير اللغة تارةً أخرى، وبتغيير مصطلح العلوم اللغوية من نحو وصرف وبلاغة تارةً ثالثة، وهو مصطلح يشيع استعماله في كل كتب التراث من تفسير القرآن الكريم وشرح الحديث الشريف وشرح النصوص الشعرية والنثرية.

اللهجات العامية:

ثم جاءت بعد ذلك خطوات لتطبيق أساليب جديدة منقولة من دراسات اللغات الغربية أو ما يُسمَّى علم اللغة العام، واقترنت هذه الدعوة بالعناية باللهجات العامية وآدابها أو ما يسمونه بالأدب الشعبي، ونشأت باقتراح بعض المستشرقين من رجال الاستعمار حين جمعوا طائفةً من الأغاني والمراثي والمواويل والأناشيد العامة تروِّج لدعوتهم، واتخذوا بعض ما يسمونه الأدب الشعبي في «ألف ليلة وليلة» موضوعًا للدراسة، هذه الدراسات نشأت نشأةً فاسدةً في حضانة الاستعمار.

لنكن صرحاء مع أنفسنا: من أين جاءتنا هذه الدراسة؟ هل نشأت لحاجة تنبعث من واقعنا؟ إنها اقتُرحت بواسطة أجهزة الاستعمار والتنصير، وقد كانت في أول الأمر في الصحف والمجلات، أما الآن فقد دخلت إلى نطاق المعاهد الدراسية والجامعات حين أرسلوا بعثين إلى إنجلترا لدراسة اللهجات واللغويات على طريقة الغربيين، وعاد كل هؤلاء وكل بضاعتهم التي لا يحسنون سواها هي دراسة اللهجات، وسارت دراسات الأدب الشعبي مواكبة هذا الاتجاه، في الوقت نفسه في كليات الآداب ودار العلوم زعم المخدوعون والمفسدون أن الغرض من دراسة اللهجات تعليم المنهج، فلأي غرض نريد أن نتعلَّم منها دراسة لهجات العربية العامية ووضع قواعد لها إذا لم يكن ذلك تمهيدًا لإكسابها شيئًا من الاحترام ورفع قدرها عند عامة الناس توطئ لاتخاذها لغةً للأدب والتدوين أو تطعيم العربية الفصحى بها على أقل تقدير وللوصول إلى ما يسميه اللغة الثالثة أو اللغة الوسط؟

منهج خاص:

والحقيقة أن لنا منهجنا الخاص الذي أثبت طوال ألف عام أو يزيد صلاحيته، ولا حاجة لنا إلى المنهج الوافد؛ فقد صان منهجنا اللغة العربية، ولا يزال، وواجه احتياجاتها وما جدَّ من شعوبها طوال تلك القرون، فاصطلى بها ولم يَعِ ولم يَضِقْ

بضبط تطوراتها وتوسعاتها من بغداد شرقًا إلى أقصى بلاد المغرب والأندلس غربًا.

وإذا استحدثت مناهج جديدة ومصطلحات جديدة فقد حكمنا بالإعدام على تراثنا لا على تراثنا النحوي والصرفي واللغوي وحده، بل على التراث كله الذي يستعمل هذه المصطلحات في شرح دواوين الشعر ومختاراته، وهو تراث سوف يتمسك به المسلمون من غير العرب وينفرد بمخالفته العرب.

فصل الخطاب:

فلنضع السؤال الصريح الذي فيه فصل الخطاب: هل نريد أن نظل مسلمين تحكمنا أصول الإسلام ونتعرَّف وجوه النفع والضرر من وجهة نظر إسلامية؟ أم أننا نخدع أنفسنا وننافق الناس؟ ليتنا نعرف أننا لا نُحرِّف الناموس ولا نهرب من حكم الله، وأن الذي يرفض أن يعمل عملًا مأجورًا من الله والناس يضطر في آخر المطاف أن يعمل لعدوه مستعبدًا دون أجر.

***

الوعي الحاد:

وهكذا نرى من الإجابات التي قدمها المحاوَر وعيًا حادًّا بطبيعة الظروف التي يعيشها المسلمون في ظل استباحة من جانب خصوم الإسلام في الداخل والخارج، وهو ينبه إلى المخاطر التي تتهدد الأمة، ويشير إلى المسالك والطرق التي ينبغي على المسلمين السير فيها كي لا يقعوا ضحية المكر والخداع من جانب أعداء الدين والطامعين في ثروات الأمة والراغبين في فصلها عن تاريخها وتراثها فضلًا عن شريعتها.

ونلاحظ أن الحوار جمع بين السائل والمجيب حول نقاط مهمة تجمعها وتشغلهما، فلو كان السائل لا تعنيه قضايا الأمة أو لا يهتم بها لما كان لأسئلته مثل هذا العمق وذلك الاهتمام، ولو كان المجيب مهتمًا بذاته وشخصه بعيدًا عن هموم الأمة لما أفاض في إجاباته بمثل هذا التفصيل الدقيق الواعي، والخبرة العميقة

بأساليب الأعداء وأفكارهم ومناهجهم.

بالطبع كان المأمول أن تكون هناك لقاءات أخرى بين السائل والمجيب، ولكن قدر الله سبق واسترد وديعته، فرحل الدكتور محمد محمد حسين، على بارئه، وبقي أنور الجندي يجاهد بقلمه حتى لحق به بعد سنوات، رحمهما الله.

***

البحث

تبدو روح أنور الجندي الأدبية الموجودة في المقال والحوار موجودة في بحوثه التي تناولت القضايا الفكرية والأدبية المختلفة، فإذا عددنا المقالة مثلًا بحثًا مصغرًا، فإن البحث المطول الذي يظهر على هيئة كتاب يبدو مقالة طويلة، فيه كثير من الجزئيات والأفكار التي يعالجها، ويراجعها، ويقيم الدليل على صحة ما يذهب إليه. وفي أبحاثه أفكار ومعلومات- لعل كثير من الباحثين لا يعلمون بها أو لم يصلوا إليها ولكنه يقدمها ويضمنها أبحاثه. وهو أمر مهم بالتأكيد ساعد عليه كثرة اطلاعه على مصادر ما يكتبه ومراجعه وخاصة الدوريات الأدبية والثقافية التي كان يعتمد عليها في تتبع القضايا المعاصرة وحركة المهتمين بها والمروجين، وهو ما لا يتاح لكثير من الباحثين الذين يقصرون جل اهتمامهم على الكتب المؤلفة أو المحققة أو المترجمة. أما هو فقد كان يرى فيما تنشره الدوريات سواء كانت صحفًا يومية أو مجلات أسبوعية أو شهرية أو فصلية أو غيرها؛ نصوصًا مهمة تخدم ما يبحث فيه أو يدرسه.

وأذكر أنه كان يذهب بصورة منتظمة إلى معهد الدراسات العربية في شارع الطلمبات بجاردن سيتي[1]، وكانت فيه مكتبة متخصصة للدوريات التي تصدر في أرجاء الوطن العربي، تقع في بدروم المكتبة الرئيسية، وقد ارتبط بصداقة مع العاملين في المكتبة الذين كانوا يترقبون وصوله صباح كل يوم- عدا العطلات

(١) جوار دار الحكمة بشارع قصر العيني

الرسمية - وكانوا يجهزون له ما يوصي به من دوريات يبحث فيها، وكان ينقل منها على ورق من الذي كان يستخدمه الصحفيون في الصحف اليومية، وذلك قبل استخدامهم للكمبيوتر والإنترنت.

استطاع أنور الجندي أن يجمع كثيرًا من النصوص التي تؤيد ما يكتبه من وجهات نظر، ولكنه للأسف الشديد كان يكتفي بذكر الدورية، دون أن يحدد وقت الصدور أو ذكر الصفحة أو الصفحات، وهو ما أخذه عليه كثير من النقاد، وكان مسوغه في ذلك أن ذكر الكلام وصاحبه يكفي، أو إن ما يشير إليه معروف لدى المتخصصين، ولعل دافعه إلى ذلك كان حرصه على الوقت، ورغبته في معالجة كثير من القضايا التي كان يريد مناقشتها والكتابة حولها.

وقد حاولت تدارك ذلك في بعض كتبه التي أعيد طبعها، ولكنها أرهقتني، بسبب عدم توفر المصادر والمراجع لدي، ولعل بعض من يهتمون بإعادة طبع كتبه يحاولون تدارك هذا الأمر بقدر الاستطاعة مستقبلًا.

كل الفنون والمجالات:

يمكن القول إن أنور الجندي لم يترك فنًّا أدبيًّا أو مجالًا فكريًّا أو حقلًا ثقافيًّا لم يكتب فيه، فقد كتب في كل الفنون والمجالات والحقول. وامتد بحثه ليطول، ويتحول إلى موسوعة كما في موسوعاته العديدة التي خصصها للأدب والتاريخ والصحافة والفلسفة.

وبصفة عامة فإن بحثه يحاول أن يلم بأطراف الموضوع وجزئياته، وقد يكون هناك نوع من التكرار لبعض الفقرات أو بعض الجزئيات، ولكن هذا يعود للعجلة وحرصه على تناول موضوعه والانتهاء منه ليستعد لموضوع آخر.

وقبل أن يعرض لموضوعه يتناول في المقدمة سبب كتابته، وأهمية الموضوع

بالنسبة للأمة وعلاقته بالإسلام الذي هو مصدر الحركة والتفكير، وقبل أن يبدأ تناول البحث يضع أمام القارئ أهم النقاط أو الأفكار الرئيسية التي ستكون مجالًا للعرض والمناقشة ويصل بعد ذلك إلى نتائج تكون خلاصة الفكرة الأساسية.

وفيما يلي نشير إلى بعض النماذج من بحوثه التي عالج فيها أكثر من موضوع، يتعلق بكتابات المعاصرين في ضوء الإسلام، اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب

أولًا: تصحيح المفاهيم في ضوء الكتاب والسنة:

يمثل هذا الكتاب حلقة من حلقات الدفاع عن الإسلام وقيمه، وذلك من خلال بيان المفاهيم الصحيحة للشريعة الإسلامية وعقيدة التوحيد. وجاء تأليف الكتاب ليواجه حالة من اختلاط المفاهيم والمصطلحات بسبب قصور التعليم والإعلام والتربية عن إشاعة الصورة الناضجة والصحيحة للإسلام.

ويقدم أنور الجندي في هذا البحث مجموعة كبيرة من المفاهيم ويوضحها وفقًا للتصور الإسلامي، كما يقدم وجهة نظر الإسلام في المصطلحات المعادية للإسلام والمناقضة له، ويبدو البحث موسوعة ميسرة لمفاهيم الإسلام الصحيحة، والمفاهيم المخاصمة له أو المعادية.

وجاء البحث في قسمين أساسيين:

أولاً: مفاهيم الإسلام الصحيحة:

التوحيد، أصول الإسلام، الفطرة، الاجتماع الإسلامي، القرآن الكريم والسنة، التربية الإسلامية، الغيب، الفن الإسلامي، سنن الله، الاقتصاد الإسلامي، الفكر السياسي الإسلامي، الفصحى لغة القرآن، النبوة، وحدة الدين، الروح، الحضارة الإسلامية، الشريعة الإسلامية، تاريخ الإسلام.

ثانيًا: المفاهيم المغايرة لمفاهيم الإسلام:

التغريب، الاستعمار، الطائفية، الفاشية، الإقليمية، العلمانية، الأيديولوجيات، الروحية الحديثة، الأنثروبولوجية، الوجودية، الفلكلور، الاقتصاد، الاستشراق، الديمقراطية، الحكومة الثيوقراطية، العروبة، السامية، التقدم، الفرويدية، الفرعونية، الأسطورة، الانفجار السكاني، أزمة الحضارة المعاصرة، الاجتماع والعلوم السياسية، التفسير، الرأسمالية، الشعوبية، القومية، السلفية، الصهيونية، الدارونية، البهائية، التطور، الشعر الحر، فساد نظام الربا، القصة.

ويقع البحث في ٤٨٠ صفحة. وقد نشرته دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٣م.

***

ثانيا: إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام:

وهذا البحث يناقش موضوعًا صعبًا وحساسًا؛ لأنه يواجه أشخاصًا بأعينهم في حياتهم، أو من تلاميذهم وأنصارهم المبثوثين في أرجاء الحياة الأدبية والإعلامية. هؤلاء الأشخاص يمثلون النخبة المعارضة للإسلام وقيمه، وفي الوقت ذاته يهيمنون على وسائط التعبير والنشر، فيسمحون لأفكارهم بالذيوع، ويحرمون الفكر الإسلامي من الظهور أو التعبير عن نفسه. وقد كتب أنور الجندي في مقدمته:

« في مطلع هذا القرن الهجري الخامس عشر تقتضينا أمانة القلم ومسئولية الكتابة في الثقافة والأدب والعمل الصحفي خلال أربعين عامًا أن نعيد النظر في كتابات العصريين الذين حاولوا السيطرة على آفاق الفكر الإسلامي الأصيلة وتحويلها من وجهتها الخالصة لله تبارك وتعالى إلى وجهات متعددة وصدق الله تبارك وتعالى: «وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله»(الأنعام:١٥٣). (انظر الكتاب، ص ٥).

وبعد أن استعرض فساد الصحفيين والكتاب والحصار الذي فرض على الكتاب الإسلاميين والصحافة الإسلامية كتب يقول:

"من أجل هذا كله كان لابد من "إعادة النظر في كتابات العصريين". اللهم اجعلنا سلمًا لأوليائك حربًا على أعدائك، نحب بحبك من أحبك ونبغض ببغضك من خالفك، هذا وبالله التوفيق، (انظر، ص٢١).

وقد تضمن البحث النقاط التالية:

- استعلاء موجة الجنس في الأفلام والمسرحيات والمسلسلات.

- حقيقة القمم الشوامخ والعمالقة.

- خلفاء طه حسين وغلمان المستشرقين وزكي نجيب محمود - توفيق الحكيم - حسين فوزي.

- سقوط مذهب الوجودية.

- المؤامرة على الفصحى لغة القرآن - لويس عوض

كتاب العصر:

أ - جيل الرواد: (رفاعة الطهطاوي، لطفي السيد، علي عبد الرازق، أمين الخولي، حسين فوزي، العقاد، هيكل، طه حسين)

ب - كتاب لبنان المارون (فارس نمر، فرح أنطون، سليم سركيس، يعقوب صنوع، شبلي شميل، أديب إسحق، لويس صابونجي، جبران خليل جبران (أدب المهجر)، جورجي زيدان (روايات الإسلام).

ت - الفن والمسرح: نجيب الريحاني - زكي طليمات- يوسف وهبي.

ث - دعاة التغريب: (ساطع الحصري (القوميات)، سلامة موسى (التغريب)،

توفيق الحكيم (التغريب)، لويس عرض (التغريب).

ج - نجوم الصحافة: (مصطفى أمين، إحسان عبد القدوس (القصة)، أمينة السعيد (الصحافة النسوية) حسين مؤنس (التغريب)، صلاح جاهين (العامية)، يوسف إدريس (التغريب)، أنيس منصور)

ح - دعاة الشعوبية:

- مناهج التعليم: أتباع ديوي (إسماعيل القباني - عبد العزيز القوصي).

- د. محمد أحمد خلف الله (الشعوبية)

- عبد الرحمن بدوي (الفلسفة الوجودية).

- غالي شكري (التراث).

- زكي نجيب محمود (التغريب).

- عبد الرحمن الشرقاوي (التفسير المادي للتاريخ)

- عمر عبد العزيز أمين (ترجمة القصة)

- صلاح عبد الصبور (الشعر الحديث بلا شهادة ميلاد)

- عصبة العلمانية أعداء الشريعة الإسلامية - خلفاء علي عبد الرازق: (خالد محمد خالد، محمد عمارة [قبل تصحيح موقفيهما]، محمد أحمد خلف الله، أحمد بهاء الدين، محمد سعيد عشماوي)

- إعادة النظر في كتابات التغريب.

وقد نشرت الكتاب في ٣٣٤ صفحة دار الاعتصام، القاهرة، إيداع ١٩٨٥م.

***

ثالثًا: اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب:

لعل هذا البحث من أوائل - إن لم يكن أول - البحوث التي تحدثت عن اليقظة الإسلامية، ودورها في مواجهة التغريب والاستلاب الفكري والحضاري، وقد ركز فيه على بيان طبيعة التغريب ومعالمه في الساحة الفكرية والأدبية والثقافية بوجه عام، وما بذله رواد اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب والقائمين عليه.

يقول أنور الجندي:

" يعنى هذا البحث بدراسة حركة اليقظة العربية الإسلامية فترة ما بين الحربين (١٩٢٠ - ١٩٤٠)، ولما كانت هذه المرحلة إنما تمثل حلقه من حلقات الفكر الإسلامي كله منذ فجر الإسلام، وكانت حركة اليقظة في العصر الحديث قد بدأت في منتصف القرن الثالث عشر الهجري (عام ١٢٥٦م تقريبًا) فإن الأمر يقتضي تقديم عرض سريع شامل للمعطيات التي قدمتها المرحلة السابقة حتى أوائل الحرب الأولى حتى يمكن استعراض هذه المرحلة الدقيقة التي حفلت بالتحديات والأخطار والتي واجهتها حركة اليقظة في دقة وحسم، واستطاعت أن تكشف زيفها وأن ترد عاديتها وخطرها، وأن تكسب إلى صفها بعض خصومها"(١).

وقد تضمنت صفحات البحث مظاهر التغريب على النحو التالي:

- إقليمية الأدب.
- الهجوم على الفصحى.
- التغريب.
- تزييف التاريخ وتدمير البطولة.

---

(١) الكتاب، ص٥

- إحياء الأساطير.

- الشعوبية واتهام العقلية العربية.

- إسقاط الحضارة الإسلامية.

- الإغريقيات والنزعة اليونانية.

- فصل الأدب عن مقومات المجتمع والفكر.

- المرأة والمجتمع.

- الأدب المكشوف والإباحية.

- الدعوات الهدامة.

- الإقليمية الضيقة.

- تعظيم الغرب.

ثم تناول البحث ما قامت به مدرسة اليقظة الإسلامية من جهود في مكافحة التغريب كما يلي:

- مدرسة اليقظة: أعمدتها ومناهجها (عبد الحميد بن باديس، محمود أبو العيون، مصطفى صادق الرافعي، فريد وجدي، محمد مصطفى المراغي، علي العناني، محمد أحمد الغمراوي، حسن البنا)

- صحافة اليقظة: مجلة المنار، مجلة الفتح، مجلة الشبان المسلمين، مجلة الرسالة، مجلة دار العلوم، مجلة الأزهر، مجلة النذير.

- رفض حركة التغريب: منصور فهمي، إسماعيل مظهر، الدكتور هيكل، زكي مبارك.

- كبرى قضايا الفكر العربي: قضية تحريف المفاهيم وتزييف القيم. تقرير اللجنة عن كتاب الأدب الجاهلي. ظاهرة الضعف والتخلف في العصور الأخيرة.

- أصول الثقافة العربية.

وقد نشرت الكتاب في ٤٠٥ صفحة دار المعرفة، القاهرة، إيداع ١٩٧١م.

***

رابعًا: التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام:

يعد التعليم المرتبط بالتربية عاملًا مهمًا من عوامل التأثير في المجتمع إيجابًا أو سلبًا، فإذا حسنت التربية والتعليم كانت النتيجة إيجابية لصالح المجتمع، ووفرت عليه كثيرًا من المتاعب، والعكس صحيح، وهو ما تعاني منه المجتمعات الإسلامية عامة ومصر خاصة.

يقول أنور الجندي:

"هناك سؤال يطرح نفسه في أفق العالم الإسلامي بقوة، وتلح الأحداث المتصلة في طلب الإجابة عليه، وهي مقدمة اليوم على كل سؤال، هذا هو: ما هو الخنجر الذي طعن به المسلمون؟ لقد تحدث المصلحون عن مقاتل متعددة أصيب بها المسلمون في كيانهم، ولكن أمرًا من ذلك كله لم يكن أشد خطرًا من احتواء الركن الركين في بناء الأمم: احتواء التربية والتعليم..."(١).

وقد قسم المؤلف بحثه على النحو التالي:

الدراسة التاريخية على المستوى الأفقي، وتشمل:

- الغزو التربوي والتعليمي والثقافي.

- مدارس الإرساليات.

(١) انظر الكتاب، ص ٧

- التعليم الوطني.

الدراسة الموضوعية على المستوى الرأسي، وتتضمن:

- واقع التربية الوافدة في العالم الإسلامي وآثارها.
- أوجه الخلاف بين المناهج.
- أوجه النقص في الاقتباس.

التربية والتعليم والثقافة في إطار الإسلام، ويشمل:

- التربية الإسلامية.
- التعليم الإسلامي.
- الثقافة الإسلامية.

وقد نشرت البحث في ٢٣١ صفحة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.

***

طاقة كبيرة:

ولا ريب أن تفرُّغ أنور للجندي للبحث، وطاقته الكبيرة في البذل والعطاء، بالإضافة إلى بركة الوقت التي منحها الله له، كانت من وراء هذا الإنتاج الضخم الهائل من الأبحاث الذي تحول بعضه إلى موسوعات كبيرة تضم العديد من المجلدات، وموسوعات صغيرة تناسب الشباب والباحثين على عجل عن المفاهيم الأساسية الموجزة.

وكما رأينا فقد كان الرجل يلح على فكرته وتقليبها على وجوهها المختلفة- لدرجة التكرار أحيانًا- ليقدم لنا في النهاية أساسًا قويًا للخلاصة التي ينتهي إليها، وفقًا لمفاهيم الإسلام وتصوراته.

وفي كل الأحوال فقد كان أسلوب أنور الجندي سهلًا يسيرًا، ساعدت عليه الصحافة التي عمل بها طويلًا، واتجهت إلى تقديم الدلالة بأقل الكلمات وأبسطها وأيسرها.

ثانيًا: القضايا التي عالجها

كثيرة هي القضايا الأدبية التي ألح عليها أنور الجندي في كتاباته المختلفة، ففضلًا عن تناول القضايا الإسلامية التي تتعلق بالعقيدة والشريعة والثقافة الإسلامية عمومًا؛ فقد كان اهتمامه بقضايا اللغة والشعر والنقد الأدبي والشخصيات الأدبية والصحافة من أهم ما ركَّز عليه عبر كتبه ومقالاته وموسوعاته العديدة.

وفي السطور التالية سوف نشير إلى أهم معالجاته في المجال الفكري والثقافي لإبراز الخطوط العامة لتوجهاته ومنهجه، والتعرف على أهم الملامح التي انطلق منها للدفاع عن الدين واللغة والكلمة المكتوبة.

أولًا: العقيدة والشريعة

في كثير من كتبه ورسائله التي كان يخصصها للشباب، وللقراء البسطاء؛ كان يخصص أنور الجندي مساحة مهمة لبيان مفهوم الإيمان والتوحيد، وأهمية تطبيق الشريعة في السلوك الفردي والجماعي للأمة الإسلامية.

فالعقيدة الإسلامية تقوم على التوحيد، وهو الإيمان بالله الواحد الأحد المتفرد بالخلق والتدبير، والإيمان برسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر، والإيمان بالبعث والجزاء والغيب والقضاء والقدر؛ ليتم إيمان المسلم. (معلمة الإسلام، ٣، الإيمان، ص ٣).

فكرة الأمن

والإيمان عقيدة وعمل، دعامته التصديق بالقلب، والعمل بالجوارح، وهو شهادة باللسان وعمل بالأركان، ولا يتحقق الإيمان إلا بالسلوك والعمل، ويكون ارتباط الإيمان وتمامه بالأعمال (السابق، ص ٤). والإيمان هو الثقة المطلقة

بشخص أو بقول مضمون الصدق، وهو الإيمان بالله والنبي والقرآن، وقد ارتبط الإيمان بفكرة الأمن: " فأي الفريقين أحق بالأمن ؟"(سورة الأنعام: ٨١)، و« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» (الأنعام: ٨٢)، فالإيمان تأمين الإنسان بمصدر وجوده، ومن الحرمان من رحمته، والإيمان لا يتجزأ فهو الإيمان بالحق كله: الإيمان بوجود الله خالق هذا العالم وبكل ماله من صفات الكمال.. (السابق، ص ٥وما بعدها).

وعلى هذا فالإلحاد مثله مثل سائر أنواع الشر طارئ على النفس البشرية، وليس من طبيعتها ولا هو متأصل فيها. وقد كشفت الدراسات العلمية عن طبيعة النفس البشرية وتدينها وحاجتها إلى الدين والتماسها لربها وخالقها. (انظر السابق، ص٢٤).

نظام الحياة

لذا فالتوحيد أساس عقيدة المسلم، والإيمان بالواحد الأحد ضرورة إنسانية في حياة المسلم، وما جاء به الوحي من تشريع وتوجيه للحياة الإسلامية هو أساس الحركة والعمل في المجتمع المسلم، والذين يتصورون أن الإسلام مجرد صلة بين العبد وربه لا يتعداها إلى نظام الحياة مخطئون. وقد فصل أنور الجندي هذه المسألة تفصيلًا شافيًا في كتابه «الإسلام.. نظام مجتمع ومنهج حياة « فمن العقيدة الراسخة ينطلق المسلم إلى العبادات المؤثرة في بناء الإنسان أبلغ الأثر والدافعة له نحو الأخوة الإنسانية التي افتقدتها الدساتير العالمية، ومن العبادة يكون الدستور الداخلي لأمة الإسلام، في نظامها السياسي والاقتصادي المتقدم الذي يتفوق على كل تشريعات الأرض.

ومن تلك الأصول ينبلج النظام السياسي الخارجي لأمة الإسلام، فيُعجِز العالم كله بأخلاقه السامية، من خلال تقديم نموذج خير أمة أخرجت للناس.

وقد شهد للشريعة الإسلامية كل المنصفين من رجال القانون في العالم كله، واعترفت المؤتمرات العالمية مرات متوالية بصلاحية الشريعة للتقنين البشري الشامل، وأن ما حوته من قواعد في الزواج والطلاق والنسب والميراث والوقف والوصية والتجارة والبيع ومختلف العقود والحدود الجنائية وغيرها؛ يمثل نظامًا قانونيًا يعدل أرقى الشرائع، ويفضل ما يقابله من نظم في أحدث الشرائع.

أصول إسلامية

وقد كشف الباحثون من مسلمين وغربيين عن عدد من النظريات التي استعان بها القانون الغربي الوضعي في حل كثير من المشكلات والمعضلات، ومنها نظرية التعسف في استعمال الحق ونظرية الحوادث الطارئة.

وقد اضطرت كثير من الأنظمة الرأسمالية والماركسية في مجالاتها المختلفة: سياسية واجتماعية والاقتصادية؛ أن ترجع إلى أصول من الشريعة الإسلامية، فتأخذ بها مثل فكرة الملكية الخاصة في الماركسية، وتعدد الزوجات وحق الطلاق وقضاء المظالم (القضاء الإداري) في النظم الديمقراطية.

كما انكشف زيف الادعاء بأن الشريعة الإسلامية ذات صلة بالفقه الروماني، وأن المسلمين ليس لهم فكر سياسي أصيل.

إن القانون الأول في العصر الحديث الذي وضعه نابليون؛ استمد مادة وافرة من مذهب الإمام مالك حملها الفرنسيون مع غيرها وهم عائدون من حملتهم الدموية على مصر. لقد غضوا الطرف تمامًا عن الحدود والعقوبات الإسلامية وهي مناط الشريعة الحقيقي الذي أريد به حماية الشخصية الإنسانية والمجتمع من الانحلال والاضطراب والتمزق؛ ولذلك فقد عانوا ولا يزالون نتيجة ذلك القصور وتحكيم الأهواء.

ومن المؤسف أن المسلمين نتيجة ضعفهم خضعوا لسطوة الغرب الذي فرض عليهم قوانينه ونظمه، وأوقف النظام الإسلامي في مختلف مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد.

اعتراف منصف

لقد اعترف كثير من الباحثين المنصفين بعظمة النظام الإسلامي ومكانته وآثاره التاريخية بعد أن طمس هذا الحق طويلًا. ومن ذلك ما اعترف به الكاتب الراحل المهتدي «روجيه جارودي» في فترته الماركسية حين قال:

«إن المتأمل في الدور الذي يلعبه الدين، وبخاصة الدين الإسلامي في حركات التحرر الوطني يقود غير المؤمنين في الواقع إلى إعادة التفكير بروح العصر في مشكلة طبيعة الدين ودوره في عصرنا، ونقطة الانطلاق في هذا التفكير أن الصيغة المشهورة (الدين أفيون الشعوب) التي يراها بعضهم خلاصة المفهوم الماركسي للدين؛ لا يمكن تفسيرها بأنها تعريف للدين، فهذه الصيغة تلخص خبرة واقعة في مرحلة تاريخية محدودة ومجال جغرافي محدد، ومن ثم فالقصة القائلة بأن الدين في كل الأزمنة وكل الأمكنة يصرف الإنسان عن النضال وعن العمل؛ يتناقض تناقضًا صارخًا مع الواقع التاريخي.

لقد لعبت الحركات الدينية دورًا تحريريًّا ضد الاستعمار، وأن الإرهاصات الأولى للنضال الوطني كانت باسم الله قبل أن تكون باسم الوطن، ولقد كان الانتماء إلى الإسلام في الجزائر في القرن التاسع عشر بمثابة احتجاج ضد السيطرة الاستعمارية، مما يدل على أن الإسلام بعيد كل البعد عن قيادة الإنسان إلى القدرية وعدم المبالاة بالحياة الاجتماعية، بل في إمكانه أن يكون خميرة للفعل والنضال[1]...

(1) راجع: أنور الجندي، الإسلامية نظام مجتمع ومنهج حياة، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٩ هـ =١٩٧٩م، ص ٢٨٣ - ٢٦، الأهرام، ٢٥ / ١١ / ١٩٦٩م

الصحوة الإسلامية

ويربط أنور الجندي العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامي بحركة الصحوة الإسلامية التي سطعت عقب هزيمة ١٩٦٧، بوصفها حلقة من حلقات حركة اليقظة الإسلامية التي قادها الأبرار والمصلحون، فأعادت مفهوم الإسلام الأصيل دينًا ودولة ومنهج حياة ونظام مجتمع، مما يؤكد قدرته على الانبعاث من داخله إبّان الأزمات، ومن خلال التحديات لوضع الأمة على الطريق الصحيح.

ولقد تنبه أنور الجندي إلى أن الغرب يحاول أن يفرض مفهومًا للإسلام مختلفًا عن مفهومه الحقيقي، ويلحظ ذلك في محاولات مجموعة من الكتاب المتغرّبين لصياغة مفاهيم تزيف مفهوم الإسلام الأصيل الجامع بالاعتماد على نصوص مبتورة ومجتزأة من هنا وهناك؛ لنفي فكرة الإسلام الأصيل الجامع الذي يشكل منهج حياة ونظام مجتمع، وإثبات أنه دين لاهوتي لا علاقة له بالحياة على النحو الذي عرفت به المسيحية في الغرب، والترويج لمقولات المستشرق «مرجليوث» وبعض تلاميذه في مصر التي تعزّز هذا الاتجاه.

ويعلم الغرب أن في إقامة النظام الإسلامي خطر عليه، فضلًا عن أن هذا النظام يعارض الاتجاه الغربي الربوي الاستهلاكي المسرف المندفع نحو الترف والكماليات والانحلال والإباحيات؛ لذا يعمل النفوذ الغربي على إخضاع الفكر الإسلامي تحت مسمى المرونة وقبول الواقع والرخص لينصهر المسلمون في أتون الحضارة المادية الوثنية الإباحية، مع إنهاء مفهوم الإسلام الأصيل للحضارة الإنسانية القائمة على وحدة البشرية والأخوة والعدل والرحمة.

المفهوم الرباني

إن مهمة الدعاة والمفكرين هي إعادة المفهوم الأصيل للإسلام المستمد من القرآن والسنة. إنه المفهوم الربّاني الذي يحتاج رعاته إلى الصبر الطويل والمرابطة بلا كلل ولا ملل؛ حتى يبرز الجوهر النضير صافيًا برّاقًا متألقًا، وحتى تستمر الرسالة

الخالدة قائمة وممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[1].

ولا شك أن منهج المعرفة الإسلامي يساعد على نجاح مهمة الدعاة والمفكرين في استعادة المفهوم الرباني للإسلام، فهذا المنهج الراسخ الجامع الوسط يقوم على أساس التوحيد، ويجمع بين قوى الحواس والعقل، والوجدان والروح، ويربط بين السمع والبصر، والبصيرة والعقل، ويقوم منارًا سامقًا يهدي الإنسان والفكر البشري في لجج الشك والإلحاد والوثنية والمادية جميعًا، بينما مناهج المعرفة غير الإسلامية تصطرع وتتضارب ولا تنتج ثمارًا ذات مذاق جيد.

قدم الإسلام إلى البشرية المنهج العلمي التجريبي الذي صاغ الحضارة الحديثة واشتقه المسلمون أساسًا من دعوة القرآن الكريم إلى النظر في الكون « قل انظروا ماذا في السموات والأرض..» (يونس: ١٠١)، ثم هناك سنن الله في الأمم والحضارات والمجتمعات، وأشار إلى ذلك القرآن الكريم في عشرات المواضع « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل.. » (الروم:٤٢).

المنهج المتكامل

كما قدم الإسلام منهج المعرفة المتكامل ذا الجناحين: المستمد أصلًا من المصادر الأولية الأساسية: الفطرة والعقل والقلب والوحي. هذا المنهج القائم على المادة والروح والعقل والقلب[2].

إن الإسلام منهج رباني جامع، يعمل على بناء الفرد والأسرة والجماعة على أساس الإيمان بالله، وعلى أساس التكامل والتضامن والعدل والرحمة والإخاء الإنساني، وهو دعوة إلى بناء مجتمع ومنهج حياة يتم إسعاد البشرية، وهو مختلف تمامًا عن المناهج والأيديولوجيات التي قدمها الإنسان لنفسه وما زالت تضطرب

(1) راجع: أنور الجندي، الصحوة الإسلامية.. منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمة على طريق الله، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص ٢٠ - ٢٣

(2) أنور الجندي، منهج المعرفة، معلمة الإسلام- ٢، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص ١ - ٣

وتتخبط ولا تحقق للبشرية شيئًا إيجابيًا كما نرى في الحياة المأزومة التي يعيشها العالم المادي لأنها خلت من التواصل مع الله والارتباط به والتماس منهجه وعجزت عن تحقيق الأمن للناس. لقد فصلت المناهج البشرية بين الروح والمادة، وبين السياسة والأخلاق، وبين الدنيا والآخرة فعاشت المجتمعات في اضطراب وتخبط ودفعت ثمنًا غاليًا لاستقرارها وأمنها[1].

علينا أن نعرف الفوارق العميقة بين الإسلام والنحل المختلفة، ويجب أن يكون واضحًا في أذهاننا موقف الإسلام من الأمور المتشابهات فيما أحدثت الحضارة من فعاليات اجتماعية خاصة في الآداب والفنون، وعلاقات الرجل والمرأة، ووسائل التسلية والترفيه، وهو ما يحتم علينا أن نحافظ على ذاتيتنا الإسلامية المتميزة عن بقية الأمم فنحن مسئولون عن أمانة تبليغ الإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ومن واجباتنا تحرير القضايا في ضوء الإسلام وتصحيح المفاهيم من خلاله، والوعي بالقانون الأساسي لحركة المسلم وهو قانون مترابط بين الثوابت والمتغيرات. بين القيم الأساسية التي جاء بها الإسلام وبين متغيرات البيئات والعصور[2].

ثانيًا: اللغة العربية

تحظى اللغة العربية باهتمام رئيس في كتابات أنور الجندي، بل هي الشغل الشاغل له في كثير من كتبه ومقالاته وأحاديثه الصحفية والأدبية، وقد خصص مساحة كبيرة في كتبه ومقالاته للتعريف باللغة العربية والإشادة بمزاياها بوصفها لغة القرآن الكريم، بالإضافة إلى رد الشبهات التي تثار حولها بالدليل والبرهان.

وفي إجابته على سؤال صحفي لصلاح رشيد بتاريخ الأحد ٠٩/ ٠٣/ ٢٠٠٣ حول أهم

(1) أنور الجندي، أقدم لك الإسلام، سلسلة في دائرة الضوء ٤٧، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص ٨ وما بعدها

(2) السابق، ص ٢٢ وما بعدها

القضايا الثقافية التي يجب أن تكون الشغل الشاغل لأدبائنا ومثقفينا في الوقت الراهن قال:

«على الأدباء والمثقفين عامة أن يدركوا أنهم على بر الأمان، ولا خوف عليهم، ما تمسكوا بالعربية «لغة القرآن» لغة أكثر من ألف مليون مسلم، وليس مائة مليون هم العرب وحدهم؛ لأنه ما تزال قوى التخريب وفلول الاستعمار والأحقاد والغزو الثقافي تطارد اللغة العربية الفصحى مطاردة شديدة، وهناك اتجاه تغريبي يرمي إلى هدم الفصحى وعزلها، والمبالغة في أهمية اللهجات العامية والعناية بدراستها باعتبارها اللغة المستعملة، ولقد اعتقد المسلمون على مدى القرون - واعتقادهم حق - أن لغتهم جزء من حقيقة الإسلام؛ لأنها كانت ترجمانًا لوحي الله ولغة كتابته، ومعجزة لرسوله ولسانًا لدعوته، ثم هذبها الدين بانتشاره وخلدها القرآن بخلوده، والقرآن لا يسمى قرآنًا إلا بها، والصلاة لا تكون إلا بها، فلكل لغة منهجها الفكري القائم على معانيها ومضامينها».

الفصحى لغة القرآن

ولعل أبرز ما كتبه حول اللغة، ويمثل أهمية كبيرة هو ما تضمنه كتابه «الفصحى لغة القرآن» ضمن موسوعاته الكبرى التي خصصها لخدمة اللغة العربية والفكر الإسلامي. وفي هذا الكتاب الذي يعد الجزء العاشر من الموسوعة الإسلامية العربية، يتناول بإسهاب تاريخ اللغة العربية وخصائصها وارتباطها بالإسلام وعلاقاتها بغيرها من اللغات والأفكار والحضارات من خلال تفاصيل متشعبة. ومن خلال كتابين داخليين أولهما اللغة العربية لغة القرآن، والآخر هو اللغة العربية في مواجهة التحديات؛ يرصد أنور الجندي حركة اللغة العربية وقدرتها على التفاعل عبر التاريخ، ومواجهة اللغات الأخرى والتأثير فيها.

في الكتاب الأول ثلاثة أبواب تتناول تاريخ اللغة العربية منذ ما قبل الإسلام حتى نزول القرآن الكريم وانتشار الدين الحنيف، وتأثيرها في اللغات المعاصرة

لنمو الإسلام في: مصر وإيران والبلاد التركية والهند وجنوب شرق آسيا، بالإضافة إلى أثرها في الإسبانية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية.

أما الكتاب الثاني، فيتكون من ثلاثة أبواب أيضًا، ويرصد من خلالها محاولات مقاومة نمو اللغة العربية وتوسعها، والحرب عليها والدعوة إلى العاميات، ودور الإستشراق في مقاومة الفصحى.

ويتوقف عند محاولات هدم قيم الفصحى ومفاهيمها من خلال بدعة إصلاح اللغة وإثارة الشبهات حولها، ويتعرض لما يقوله أعداء اللغة ودعاواهم المزيفة. ويعرض للتحديات التي تواجه الفصحى وقبولها هذه التحديات من خلال الفكر واللغات الأخرى والعروبة والمستقبل.

ويلحق أنور الجندي في نهاية كتابه الموسوعي فصلًا يثبت فيه مجموعة من آراء أشهر المستشرقين الذين تعاملوا مع اللغة العربية وتعرّفوا على كنوزها الأدبية والفكرية.

خصائص الفصحى

ولعل أفضل جزء في هذا الكتاب هو المدخل الذي أوقفه على تناول خصائص الفصحى التي يحصرها في ثماني عشرة خصيصة تكشف عن دقّتها وثرائها وتميّزها عن اللغات الأخرى، ويشير أنور الجندي في البداية إلى ما يشكل الخصيصة الأولى وهي أقوال بعض العلماء القدامى عن لغتنا الجميلة.

يقول الخليل بن أحمد في كتابه «العين»: إن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل يبلغ ١٢٣٠٥٤١٢ كلمة، وهو يعني ما يمكن تكوينه بتركيب أحرف الهجاء على كل شكل من الثنائي والثلاثي والرباعي.

ويقول الحسن الزبيدي: إن عدد الألفاظ العربية ٦٦٩٩٤٠٠ لفظًا لا يستعمل منها إلا ٥٦٢٠ لفظًا والباقي مهمل.

ويقول آخرون: إن اللغة العربية تتألف من ثمانين ألف مادة، المستعمل عشرة آلاف فقط، والمهجور منها سبعون ألف مادة لم تستعمل إلى اليوم.

وهذه الإشارات على اختلاف أرقامها وتعدد مصادرها تكشف عن طبيعة اللغة العربية وتاريخها دون حاجة إلى أي قدر من الإشادة أو المبالغة، وهي في مجموعها تعطي صورة الثراء والغنى في الحصيلة، وتكشف عن البعد التاريخي والنمو والحيوية في الوقت نفسه.

أكثر من مليار مسلم

وإذا كانت اللغة العربية هي اللغة القومية لملايين العرب، فإنها لغة الفكر والثقافة والعقيدة لأكثر من مليار مسلم، وهذه هي الخصيصة الثانية؛ حيث لم تتراجع العربية عن كونها لغة عقيدة ودين ولغة مدنية وحضارة في أي أرض دخلتها، كما كانت لغة السياسة والتجارة والعلم والفكر قرابة ألف سنة، وأثرت بوضوح في الفارسية والتركية والهندوستانية والجاوية والمالاوية، وقد بلغت ذلك الاتساع بفضل القرآن والإسلام.

ولم تبق لغة أدبية واحدة - كما يقول «بروكلمان» - لم يصلها شيء من اللسان العربي.

الخصيصة الثالثة تتمثل في أن اللغة العربية لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثي التي لا وجود لها في جميع اللغات الهندية والجرمانية، وهي اللغات التي تكتب بالحروف اللاتينية. وتمتاز العربية بخصائص أكفل بحاجة العلوم.

إن عدد كلمات الفرنسية ٢٥ ألفًا، والإنجليزية مائة ألف، أما العربية فعدد موادها ٤٠٠ ألف مادة، ويحتوي معجم لسان العرب على ١٨٠ ألف مادة.

وفي اللغة العربية حروف لأصوات لا توجد في كثير من اللغات الأخرى مثل الحاء والخاء والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف.

تعبيرات مختلفة

وتتميز اللغة العربية بتنوع الأساليب والعبارات، وهذه هي الخصيصة الرابعة، ويمكن صياغة المعنى الواحد بتعبيرات مختلفة، كالحقيقة والمجاز والتصريح والكناية، وهي تحسب حساب الفكرة والخاطر والمثال.

ويشير «ريجسير بلاشير» إلى قدرة اللغة العربية على التعبير عن معان ثانوية لا تعرف الشعوب الغربية كيف تعبر عنها. فالفرنسية مثلًا لا تعني إلا بالتعبير الواحد، أما العربية ففيها مذاهب وأساليب تعرب عن مختلف الأساليب الطويلة والقصيرة.

خامس خصائص اللغة العربية كما يرصدها أنور الجندي تقرر أن اللغة العربية أقرب لغات الدنيا إلى قواعد المنطق، فالعربية تكتب كما تقرأ، ومن يتعلم حروفها وحركاتها يمكن أن يقرأ حيثما شاء بدون مشقة. والعرب لم يتركوا شيئًا إلا استنبطوا له اسمًا من لغتهم كالمعدة والهواء والجوهر والشخصي وخسوف القمر وكسوف الشمس والصدى وما إلى ذلك.

والخصيصة السادسة هي أن اللغة العربية ضربت رقمًا قياسيًّا في الكمال؛ حيث تقدمت للفكر بكل المخططات الصوتية الممكنة، وميزت مفاصل الفكر تمييزًا واضحًا مبينًا، وأفاد علم اللغات المقارن أن العربية تعبر بسيكولوجيتها للعلوم الباطنة والظاهرة.

قبول التصريف

وتشير الخصيصة السابعة إلى أن جميع مشتقات اللغة العربية تقبل التصريف إلا فيما ندر، وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين.

وإلى جانب غنى العربية بالمفردات فهي غنية بالصيغ النحوية، كما تهتم بربط الجمل، بعضها بعضًا. وصيغ الفعل العربي تبلغ اثنتي عشرة صيغة كل منها تمتاز بمعنى خاص متصل بالمعنى الأصلي للفعل، ولا تحتاج العربية في الجمل الخبرية

إلى ما يسمى في اللغات الغربية فعل الكينونة to be.

والترادف في العربية له أسباب عميقة، وهناك من علماء العربة مثل ابن فارس وابن على الفارسي من ينكر المترادفات أصلًا بوصفها ألفاظًا جديدة لها معان مختلفة. والرازي يوجب تحديد الترادف بعدم التباين في المعنى.

ويستمر الجندي في سرد الخصائص حتى يصل إلى الخصيصة الثامنة عشرة، مما يجعل آخرها يتصل بأولها في نسيج ملتحم من غير أن تذهب معالمها؛ فكلمة كتب نشتق منها كاتب وكتاب ومكتبة ومكتوب، وفيها الحروف الأصلية في كل كلمة، وأيضًا معنى الكتابة موجود في كل منها. على عكس اللغات الأوربية حيث لا يوجد في كثير من الأحيان صلة بين كلمات الأسرة الواحدة. فالإنجليزية فيها write بمعنى كتب، book بمعنى كتاب، و library بمعنى مكتبة، ولا علاقة بين الحروف في الكلمات الثلاث، وهو ما جعل الإنجليزية تختلف من جيل إلى جيل؛ لأنه لا توجد صلة لغوية بين ماضيها وحاضرها. ولغة شكسبير في القرن السابع عشر لا تكاد تفهم عند جمهور المثقفين اليوم، اللهم إلا المتخصصين في الأدب الإنجليزي؛ بسبب اختلاف النطق وتطوره من جيل إلى جيل، وإلى نمو اللغة بطريقة غير طريقة الاشتقاق العربي، وانقطاع الصلة بين كلمات الأسرة الواحدة في غالب الأحيان[1].

الإسلام سند مهم

وفي سياق إنصاف اللغة العربية والإشادة بها وإبراز معطياتها وغناها، يستشهد أنور الجندي بكثير من آراء المستشرقين والغربيين الذين درسوها، وسبروا غورها، واطلعوا على كنوزها، على سبيل المثال يورد هذا الرأي للمستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس الذي يربط بين العربية والإسلام، فيقول:

(1) راجع: أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م، ص ٧ - ١٧

« إنّ في الإسلام سندًا مهمًّا للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينية حيث انزوت تمامًا بين جدران المعابد.

ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثًا، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافًا من الكلمات العربية ازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوةً ونماءً.

والعنصر الثاني الذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تُبارى؛ فالألماني المعاصر مثلًا لا يستطيع أن يفهم كلمةً واحدةً من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام»[1].

يسرناه بلسانك

كما يورد رأي جوستاف جرونيباوم الذي يتكلم عن منزلة اللغة العربية وسعتها ودقتها ويسرها وخصائصها والنقل إليها؛ حيث يقول:

«عندما أوحى الله رسالته إلى رسوله محمد أنزلها « قرآنًا عربيًّا» والله يقول لنبيّه «فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قومًا لدًّا»، وما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية في شرفها، فهي الوسيلة التي اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية، وليست منزلتها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله في سائر اللغات من قوة وبيان، أما السعة فالأمر فيها واضح، ومن يتّبع جميع اللغات لا يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية، ويُضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشة في المترادفات.

وتزيّن الدقة ووجازة التعبير لغة العرب، وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من

(1) الفصحى لغة القرآن، ص ٣٠١

اليسر في استعمال المجاز، وإن ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيرًا فوق كل لغة بشرية أخرى، وللغة خصائص جمّة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف له نظائر في أي لغة أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها، يبيّن ذلك أن الصورة العربية لأيّ مثل أجنبيّ أقصر في جميع الحالات، وقد قال الخفاجي عن أبي داود المطران - وهو عارف باللغتين العربية والسريانية - إنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبُحت وخسّت، وإذا نُقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي ازداد طلاوةً وحسنًا، وإن الفارابي على حقّ حين يبرّر مدحه العربية بأنها من كلام أهل الجنّة، وهو المنزّه بين الألسنة من كل نقيصة، والمعلّى من كل خسيسة، ولسان العرب أوسط الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا»[1].

وهكذا نرى الفصحى لغة القرآن من خلال أنور الجندي في مكانة عالية يجب أن يفخر بها كل عربي بل كل مسلم، وخاصة في وقت غلبت فيه لغات المحتلين والغزاة في كثير من أرجاء العالم الإسلامي، وفي المقابل فهو يطارد العاميات في كثير من المناسبات، ويقيم الدليل على قصورها أمام الفصحى، ولا يبرئ الداعين إلى استخدام العاميات من سوء النية وخبث الدافع.

***

(١) السابق، ص ٣٠٦

ثالثًا: الأدب والنقد

يرتبط الأدب والنقد لدى أنور الجندي بموضوع اللغة العربية ارتباطًا وثيقًا، فاللغة العربية الفصحى - لغة القرآن - تجعل الأديب المسلم أو الناقد المسلم ينحاز إليها انحيازًا كاملًا، فلا يدعو إلى استبدالها، أو التهرب منها، أو التعصب للغة أجنبية أو لهجة عامية، أو نسبة الأدب إلى إقليم جغرافي أو مكاني.

فالأدب العربي وحدة متكاملة تدور في إطار ثقافي مشترك، وقد أجاب أنور الجندي على سؤال صحفي لصلاح رشيد في حديث أشرنا إليه من قبل بتاريخ الأحد ٠٩/ ٠٣/ ٢٠٠٣؛ حول الدعوة إلى إقليمية الأدب أو تقسيمه حسب الإقليم المكاني، مثل الأدب المصري، والأدب السوري، والأدب العراقي، فقال:

«لا شك أن هذه الدعوى غير عربية الفكر أصلًا، ولا منبعثة من صميم تفكيرنا الذي يجري في طريقه الواسع العميق مرتبطًا بالثقافة العربية التي تشكلت خلال أكثر من خمسة عشر قرنًا، ونحن نعلم أن الدعوات التغريبية حريصة على أن تمزق وحدة هذا الفكر بأن تؤجج دعوات إقليمية ضيقة النظرة تتصل بالإقليم أو العنصر أو النحلة القديمة أو القطر، وقد حاول المغرضون إبراز هذه النظرية في إقليمية الأدب على أساس أن لكل إقليم طابعه الخاص، وأن الأمة العربية هي خلق غير تام التجانس، لكن هذه الدعاوى دائمًا تبوء بالفشل والاندثار؛ لأنها دعاوى مستوردة ودخيلة وليست نابعة من الوجدان العربي، كما أن وحدة الأدب العربي متمثلة في المشاعر والأهداف والمعاني ومواجهة الأحداث، وأنه ليست هناك فروق أساس

بين الأقطار العربية، وإن كانت هناك فروق في الفروع، والأدب العربي قد حافظ على وحدته، وطابعه الشامل في مختلف العصور في أحلك فترات الضعف».

مهمة الدعاة

يرى أنور الجندي أن مهمة الكاتب المسلم- والأديب في المقدمة - جزء من مهمة الدعاة إلى الله في تحرير الشخصية الإسلامية من التبعية بكل صورها وألوانها وتأسيس مدارس واتجاهات إسلامية تستوعب العلوم الحديثة وتُفْرغها في قالب إسلامي، وتعمل على تأصيل الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ولذا فإن عقيدة الكاتب المسلم تقتضي منه أن يرفض التطور على حساب الأصالة والتقدم أو على حساب التفريط في الجذور والقيم الإسلامية، أو يقبل الازدهار المادي على حساب التضحية بالقيم العليا. فالإسلام لا يُخْضع مفاهيمه لأهواء الأمم الأخرى ومنجزاتها المادية أو المعنوية، لسبب بسيط وهو أنه يملك تراثًا أو ميراثًا أفضل مما عند الآخرين، ومتصل الحلقات في إطار جامع متكامل مرتبط بالله.

وعلينا في مجال الأدب والفكر أن نتذكر أن الفكر الغربي محاصر الآن بثلاث نظريات: هي النظرية المادية والدوافع الاقتصادية والدوافع الجنسية وأهواء الوجودية، وكلها تحتقر الإنسان احتقارًا شديدًا، وهناك الجبرية التي تريد أن تخلي الإنسان من المسئولية الفردية وتلقي بها على المجتمعات.

تحديات خطيرة:

على الكاتب المسلم أن يواجه ثلاثة تحديات خطيرة في المجتمع المسلم، وهي:

الأول: التحدي المنبعث من واقع المسلمين متمثلًا في الجمود والجبرية وكتب الخرافات.

الثاني: التحدي المنبعث من الغزو الفكري والتغريب والشعوبية.

الثالث: التحدي المنبعث من الهزيمة النفسية إزاء إباحيات المدنية الغربية.

وهذه التحديات تجعل الكاتب المسلم يؤمن أن هدف التغريب الذي يعمل على خدمة النفوذ الأجنبي والشيوعية والصهيونية؛ هو هزيمة العقل الإسلامي بإذاعة الإلحاد ونشر الإباحية وخلق مركب نقص في أعماقنا يشعرنا بالهزيمة إزاء حضارته المادية[1].

وبالنسبة للأدب العربي فإن خصائصه التي تميزه عن الآداب العالمية المختلفة في الشرق والغرب ترجع إلى البيئة التي نشأ فيها والفكر الذي تشكل في إطاره والتحديات التي واجهته في طريق مساره الطويل. وأعطى القرآن الكريم الأدب العربي العامل الأعظم في ثباته وظهور فنونه وعلومه ومناهجه، وهو الذي أغنى العربية بالأساليب والمضامين[2].

إنسانية الأدب العربي:

وينطلق الأدب العربي من نقطة أساسية وهي إنسانيته وطوابعه القائمة على الحق والخير والعدل؛ لأنه يستمد مفاهيمه من الفكر الإسلامي الذي يعد القرآن الكريم قاعدته الأصيلة، وبقي حريصًا على ألا يجنح عن أرض الواقع الصلبة، ولم يهمل القضايا الحيوية، ولكنه في مرحلة من مراحله بالآثار الواردة من الآداب القديمة والدخيلة، فاضطرب أمره حينًا ثم عاد إلى أصالته.

لقد كان الأدب العربي قادرًا على مغالبة أمرين: الأسطورية والخيال المغرق، والإشراقية، وهي طوابع وفدت إلى الأدب العربي من الآداب الفارسية والهندية وغيرها، وكان الأدب العربي في واقعيته وارتباطه بالطابع الفعلي والحياة؛ أقرب إلى مفهوم الإسلام وجوهره.

(1) راجع: أنور الجندي، عقيدة الكاتب المسلم، سلسلة دائرة الضوء - ٤٥، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص ٥ - ١٢

(2) أنور الجندي، عقبات في طريق النهضة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص٣٠٤

ويمكن القول إن الأدب العربي انحرف في مجالين:

مجال الشعر؛ حيث أخرجه الشعراء الفرس الذين تأثروا بالمجوسية من أمثال بشار بن برد وأبي نواس والضحاك، فأخرجوه من مفهومه الأصيل وانحرفوا به نحو الغزل الحسي والخمريات والغلمانيات، وهو تيار بدا غريبًا ودخيلًا ومدموغًا بالاتهام.

المجال الآخر، مجال النثر: الذي انحرف إلى السجع والمحسنات البديعية والمقامات، وأسرف في ذلك إسرافًا انصرف به عن طبيعته الأصيلة[١].

لقد كان للقرآن الكريم نظرته إلى الشعر والشعراء، محررًا إياهم من الغرور والوثنية ومفاهيم الجاهلية، وفي خلال ذلك نشأ أدب واسع الآفاق تبنته كتب السنة والشريعة والعلوم والتربية والتصوف[٢].

العزل عن التراث:

وقد تسلّطت مدرسة النقد الغربي على الأدب العربي الحديث لتعزله عن تراثه الضخم، مقابل إعلاء شعر المجون وتوسيع دائرته، وحاولت الحكم على العهود الإسلامية من خلال هذا الشعر وشعرائه.

كما حاول التغريب والغزو الثقافي إخراج الأدب العربي من مضمونه الخلقي الذي لا ينفصل عنه، ودفعه إلى الانصهار في مفهوم الآداب العالمية دون أن تدرك أنه يستحيل تذويب آداب الأمم وثقافاتها في آداب الأمم الأخرى؛ لأنها تستمد وجودها وكيانها من النفس والذات والمزاج الخاص[٣].

(1) انظر: أنور الجندي، الشبهات والأخطاء في الفكر الإسلامي، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص ١٦٥ وما بعدها

(2) السابق، ص ١٦٦

(3) السابق، ص ١٦٦ - ١٦٧

الفن للفن:

وكان من أبرز ما دعا إليه النقد الغربي تحرير الأدب من طابع الأخلاق ودفعه إلى تصوير الغرائز والأهواء في غير ما قيد باسم حرية الأدب التي أطلق عليه مصطلح «الفن للفن»، وقد استهدفت هذه الدعوة الاستخفاف بالقيم الخلقية، وغمز كل ما يتصل بالعقائد الدينية والسخرية من الفضائل والبطولات والجرأة على المقدسات[1].

لقد ظل المجتمع الإسلامي طوال حلقات تاريخه مرتبطًا بمقومات وقيم ذات طابع خلقي في مختلف مجالات العلاقة بين المرأة والرجل، والأفراد وبعضهم بعضًا في السياسة والتجارة والعمل[2].

لذا جاءت النزعة إلى الإباحية في الأدب أو الإباحة كما يسميها محمد فريد وجدي، نقيضًا لطبيعة الأدب بالمفهوم الإسلامي، وقد عرفها العرب والمسلمون في العصر العباسي في ظل تحديات خطيرة؛ حيث اضطربت معايير الفكر وتطبيق الشريعة الإسلامية، بسبب الترف العاصف وطوابع التسري وأسواق الجواري، وغير ذلك مما كان مخالفًا لمفهوم الإسلام نفسه، وكان رد الفعل على ذلك قويًا بظهور الزهادة والتصوف الفلسفي ومذاهب الباطنية وغيرها.

ولا ريب أن الفكر الإسلامي الأصيل يعتمد على الضوابط إلى جوار الحريات في موازنة معتدلة للكيان الإنساني، وهناك عدد من الباحثين الغربيين يؤمنون أن كل فكرة فنية لا تستقيم مع الشعور الديني تخرج من إطار الأدب الأصيل (تأمل تولستوي على سبيل المثال)؛ لأن من شأن الفن أن يُعْلي من أمر الإنسان ويسمو به، ليقيم الناس صلات المودة والإخاء، وتندفع البشرية نحو الوصول إلى الإنسانية[3].

(1) نفسه، ١٦٧ - ١٦٨، وعقبات في طريق النهضة، ص ٣٠٦

(2) الشبهات والأخطاء في الفكر الإسلامي، ص ١٦٨

(3) انظر: السابق، ص ١٦٨

الأدب والأخلاق:

وهنا تبدو قضية الأخلاق والأدب ذات حضور مهم في السياق التعبير الأدبي؛ حيث يرى بعض النقاد المتأثرين بالغرب أن هناك تعارضًا بينهما، ولكن المفهوم الإسلامي لا يرى ذلك، فليس هناك تعارض بين الأدب والأخلاق، أو الفن والدين، بل هناك تطابق واتفاق، مثل ذلك التطابق بين العلم والدين، يقول محمد أحمد الغمراوي:» إن للفطرة كلها مُنشئٌ واحدٌ هو الله. والعلم والدين كلاهما اجتمعا على استحالة التناقض في الفطرة، فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة وجب ألَّا تخالف أو تناقض دين الفطرة، ودين الإسلام في شيء، فإذا خالفته في أصوله ودعت صراحة أو ضمنًا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لدفعها عن الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح، وإذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا؛ فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنونٌ قد جانبت الحق ودابرت الخير وأخطأت الفطرة التي فطر الله الناس عليها والخلق؛ ولذا فالأدب المكشوف المستورد الغربي الأصل، يبدو وافدًا غريبًا لا جذور له ولا أصالة، لأنه معارض للمزاج والذوق والفطرة جميعًا[1].

وهناك شبهة تتردد كثيرًا بأن الأدب العربي القديم قد عرف الأدب المكشوف، وهذا صحيح لكنه كان نتيجة غزو شعوبي على النحو الذي يجري اليوم باسم الغزو التغريبي، وقد دخل هذا اللون على أيدي المتصلين بالثقافات والديانات والفلسفات القديمة السابقة على الإسلام، وفي مقدمتها وثنية اليونان ومجوسية الفرس وفلسفات الهند[2].

التجديد الأدبي:

وتمثل قضية التجديد الأدبي أو التجديد في الأدب محورًا مهمًّا من محاور رؤية أنور الجندي للأدب العربي الإسلامي، وهو يؤمن بضرورة التجديد، ولكنه

(1) نفسه، ص ١٦٩

(2) نفسه، ص ١٦٩ – ١٧٠

التجديد القائم على أساس ما نملكه من تراث وتقاليد أدبية، أما التجديد المبتور عن التراث والماضي فلا يعده تجديدًا بل تقويضًا لأدبنا ومعطياته وقيمه.

ولذا يرى أنور الجندي أن الدعوة الحقة إلى النهضة حين تسعى إلى التجديد لا تفصله عن القديم، ولا تعزله عن الماضي، بل تجعل من الماضي سبيلًا إلى الجديد، ومن التطور رابطة بين القديم والحديث. والغربيون أنفسهم الذين يلتمس بعض الكتاب منهجهم؛ إنما يفهمون التجديد على هذا النحو، فلا انفصال بين القديم والحديث، أو بين الأصالة والتجديد، أو بين الماضي والحاضر. فالأسس والأرض والجذور كلها معالم طبيعية لكل حركة تدعو إلى التجديد[١].

وفي هذا السياق يستدعي أنور الجندي رؤية مصطفى صادق الرافعي للتجديد، وهي رؤية تقوم على قاعدتين:

الأولى: إبداع الحي في آثاره بفكره بما يخلق من الصور الجديدة في اللغة والبيان.

الأخرى: إبداع الحي في آثار الميت بما يتناولها من مذاهب النقد المستحدثة وآثار الفن الجديدة، وفي الإبداع الأول إيجاد ما لم يوجد، وفي الثاني إتمام ما لم يتم، فلا جرم كانت منهما معًا حقيقة التجديد بكل معانيها ولا تجديد إلا ثمة، فلا جديد إلا مع القديم[٢].

ولا شك أن قانون التجديد قانون طبيعي، وقانون ثابت، فإذا لم يكن تجديد فتدهور وانحطاط، وهو في الفكر شأنه في الكائنات الحية، بيد أن له أصوله ومقوماته وقواعده، فهو لا ينفصل عن أرضيته وقاعدته، ولا ينقطع عن تطوره الطبيعي[٣].

(1) السابق، ص ١٧١ - ١٧٢
(2) نفسه، ص ١٧٢
(3) الشبهات والأخطاء في الفكر الإسلامي، ص ١٧٢

الفنون الأدبية

يبدو أنور الجندي حريصًا على الفنون الموروثة أكثر من الفنون المكتسبة التي تركت صورة سلبية في ذهنه وتفكيره، فهو مع الشعر الموزون المقفى، وليس مع الشعر الحر أو ما يسمى بشعر التفعيلة، ويلاحظ أنه لم يدرك ذلك اللون الذي يسميه أصحابه قصيدة النثر، وهي كلام غير موزون وغير مُقفى، وتأتي معظم نماذجه في سياق سريالي يصعب فهمه، وتروج له جهات عديدة وتنشره في منابر ذات تأثير واسع.

أما شعر العامية فمرفوض لدى الجندي؛ لأنه يمثل مرحلة من مراحل التآمر على الفصحى، ومحاولة الحلول مكان الشعر العربي الموروث.

ويأخذ الرجل من القصة والرواية موقفًا سلبيًا للغاية، مع أنه كتب في مطلع شبابه رواية ونشرها وعالج من خلالها موضوعًا وطنيًا.

ولا نكاد نجد له اهتمامًا يُذكر بفكرة المسرح إلا من خلال انتقاده لبعض المسرحيات التي حملت مضمونًا معينًا، مثل مسرحية الحسين لعبد الرحمن الشرقاوي.

وإلى شيء من التفصيل حول هذه القضايا..

أولاً: الشعر الحر أو التفعيلي:

يرى أنور الجندي أن ظهور الشعر الحر كان ثمرة من ثمار استيراد النظريات النقدية الغربية الحديثة في ظروف تمكنت فيها جماعات الشعوبيين والتغريبيين من تصدّر أغلب مؤسسات الفكر والثقافة والأدب والصحافة؛ وذلك بهدف إخراج الأدب العربي من أصالته و«كسر عمود الشعر» وفقًا لتسمية لويس عوض. وتعد محاولات الشعر الحر واحدة من محاولات قديمة جرى عليها بعض الشعراء، ولكن «الطقس» الذي وضع فيه الأدب العربي تحت سيطرة الشعوبيين اللبنانيين والماركسيين والتغريبيين من خلال الصحافة وإغراء بعض الشعراء بتغيير أسلوبهم الأصيل تحت مسمّيات المعاصرة والتقدمية والتجديد؛ كان طقسًا مسمومًا.

ولعل فكرة الشعر الحر في نشأتها الأولى كانت مدفوعة بنوايا سليمة تهدف إلى تيسير قواعد النظم أو تمرير بعض الأفكار والمضامين التي تحول بعض الظروف دون إبرازها، بيد أن جماعة الشعوبيين التقطت التجربة ودفعتها إلى الأمام وعمقتها في فترة سمحت للشعوبيين والماركسيين بالسيطرة شبه الكاملة على الصحافة والإعلام.

ومن أبرز معطيات حركة الشعر الحر:

أولا: انفصالها التام عن التراث العربي الإسلامي، والتهويم في آفاق غريبة ليست لها أصالة النظرة الإسلامية العربية العميقة الممتدة.

ثانيًا: الاستهانة بالبيان العربي واللغة العربية والسخرية منهما.

ثالثًا: طابع التمزق والغربة والمأسوية التي لا تصدر إلا عن نفوس لم تعرف الأصالة والإيمان.

رابعًا: استعلاء طابع الرموز والسحر والأساطير القديمة (سومر وبابل وآشور وعشتار)، ما سماه بعض النقاد بأدب الخرائب والأطلال حيث تعوي الذئاب.

خامسًا: إذاعة طابع الشعر الباطني الوثني الذي يتبنى مفاهيم وحدة الوجود والحلول والتقمص والنرفانا، وكلها مفاهيم زائفة.

سادسًا: الاستغراق في الضبابية والرمز والأسطورة بلغة الضياع وغلبة الهلامية والسطحية.

وبصفة عامة يمكن القول إن هذه الظاهرة ليست ظاهرة قوة أو تقدم، ولكنها ظاهرة هزيمة وخضوع لعوامل النكسة والاحتواء والسيطرة الغربية، وقد ظهرت بعد نكبة فلسطين وما لحاها من هزائم شملت البلاد العربية[1].

(1) انظر: أنور الجندي، الشعوبية في الأدب العربي، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص ١٨١ - ١٨٤

شعر العامية:

تمثل الدعوة إلى استخدام اللهجات العامية في الكتابة الأدبية عملًا منهجيًا هدفه إضعاف الفصحى، وضرب الوحدة العربية من خلال الفكر والشعور من خلال الزعم بأن اللغة العربية قاصرة عن مسايرة النهضة العلمية، والادعاء أنها لغة جامدة بفعل انعزال الأمة العربية عن ركب الحضارة العالمية فترة طويلة من الزمن. وأن جرس العامية أفضل من جرس الفصحى، وكلها ادعاءات غير سليمة وغير صحيحة، فالفصحى آصرة وحدة، وجرسها أكثر رقيًا وشاعرية، ومعجمها يتسع للعلوم والثقافة بكل ألوانها.

لقد فاخر «صلاح جاهين» في بحث له عن شعر العامية المصرية في مؤتمر بلغراد عام ١٩٦٦، وكشف عن حقيقة خطيرة وهي أن وسائل الإعلام آنئذ: الراديو والتلفزيون والصحافة والسينما؛ صارت مسخّرة لنشر العامية والتعبير بها. وفي الوقت نفسه يشير إلى أن بعض النقاد في مصر يرفضون الاعتراف بالشعر العامي، الذي يكتب بلغة الحياة اليومية، كما يرفضون الاعتراف بما يسميه التجديدات التي أدخلها شعراء العامية الفصحى على قوالب الشعر (يقصد الشعر الحر)، بل يرفضون الاعتراف بشعر شاعر كبير مثل زميلي «صلاح عبد الصبور».

لقد انبعثت الدعوة إلى العامية مع الدعوة إلى الشعر الحر في ظل تمدد الموجة الماركسية التغريبية التي سيطرت في الستينيات على الصحافة والسينما والمسرح والإذاعة والتلفزيون، والهدف هو إزاحة اللغة العربية وفنها الأول الجميل، وهو الشعر[1].

ولا شك أن الدعوة إلى العاميات والإعلاء من شأنها تجاوزت فكرة التعبير المحدود أو الوقتي الذي يلبي حاجة محدودة مؤقتة في إطار المطارحات أو الاحتفالات الاجتماعية أو الشعبية ذات الطابع الخاص كما عرفها الناس في بعض

---

(1) راجع: السابق، ص ٢١٩ وما بعدها

المناسبات التي تحتفي بالزجل والموال والأغاني والتمثيليات إلى محاولة فرضها بديلًا عن الفصحى لغة التعبير العام، وعن الشعر فن العربية الأول، وهو ما ينبئ عن أمر خطير، تشير إليه في أيامنا لغة الصحافة والتلفزة والإذاعات وفنون التعبير المصورة التي هبطت إلى درك سحيق!

القصة والرواية:

القصة فن من فنون الأدب كالشعر وهو فن قديم ومستحدث. وقبل ظهور الإسلام كانت هناك أساطير كثيرة أطلق عليها فيما بعد اسم القصة، وعندما جاء الإسلام ظهر عصر جديد وفهم جديد أسسه القرآن الكريم بعرض عدد من قصص الأولين على نحو خاص متميز يتسم بالصدق والشمول والإيجاز والاستعلاء على التفاصيل، مع التركيز على استخلاص العبرة والتماس حكمة التاريخ ورسم نواميس الحضارات، وقوانين قيام الأمم وسقوطها، وعوامل تطور المجتمعات وانهيارها.

لقد وصف القرآن الكريم قصصه بـ «القصص الحق»، أما القصة في مفهومها الغربي فهي قائمة على الخيال والوهم، وعلى العقدة والحل، وعلى الإسراف في التفاصيل، وانتفاء الصدق، وطوابع الرمز والظلال؛ إنما تجنح بعيدًا عن جوهر النفس العربية البسيطة غير المسرفة.

ويرى أنور الجندي أن الفكر الإسلامي لا يقبل من القصة غير لون واحد، وهو «القصص الحق»؛ ذلك أن الأدب العربي قد اتسم منذ ظهوره وإلى اليوم بخاصية واحدة تتمثل في الصدق والوضوح والإيجاز، وهي عناصر تكاد تكون مضادة للقصة الحديثة بل معارضة لها.

ولا ريب أن أنور الجندي؛ وهو يؤكد على هذا التصور كانت في ذهنه بعض الأعمال القصصية الهابطة التي قامت على كسر المحرمات والاهتمام بالإباحية والترويج للتحلل في العلاقات بين الرجل والمرأة، والمعتقدات، وغير ذلك. مع

أن الرواية الجادة يمكن أن تقوم بدور مهم في المجال العام وتطوير الوعي بالقضايا الإنسانية والخلقية من خلال الواقع والخيال؛ في إطار فني محبّب وشائق.

ولست أدري هل اطلع قبيل رحيله على أعمال نجيب الكيلاني القصصية مثلًا، وقبلها روايات على أحمد باكثير وآخرين؟

ربما لو اطلع عليها لغيَّر رأيه، مع التحفظ على التصور الغربي ومفاهيمه، ودعا إلى توظيف القصة في خدمة الدعوة الإسلامية، ومحاربة الرذائل الاجتماعية والخلقية والسياسية، وبناء الأوطان والدفاع عنها من خلال النماذج الفريدة في الذكاء والعمل والبطولة والشجاعة.

***

رابعًا: الشعوبية في الأدب العربي الحديث

هذا موضوع قديم جديد اهتم به أنور الجندي اهتمامًا كبيرًا، وتحدث عنه في مواضع كثيرة من مؤلفاته ومقالاته، ووصل الاهتمام لدرجة أن خصص له كتابًا بأكمله يحمل العنوان عاليه.

وسبب اهتمامه بالموضوع أن الشعوبية- كما يراها - مؤامرة من مؤامرات التغريب والغزو الثقافي تهدف إلى ضرب الأصالة الإسلامية العربية، وانتزاع الأدب العربي من قيمه وأسسه وقوانينه حتى ينفرط عقده، وذلك بمحاولة تغليب أجناس أدبية وافدة، أو انتزاعه من طوابعه، ودفعه إلى سلوك طريق مظلمة مضطربة لتحطيم مسيرته، وقطعه عن خيطه الطويل الممتد وتاريخه المتصل الذي تسلم كل مرحلة فيه إلى مرحلة بعدها.

ويرى أنور الجندي أن الشعوبية في الأدب العربي الحديث تسعى إلى تنصيب بدائل زائفة للأصالة الأدبية العربية الإسلامية من خلال بعض الأدباء والكتاب الذين يكتبون باللغة العربية، وتعبر من خلالهم أفكار وافدة ومقاييس غريبة، وخاصة في مجال القصة المكشوفة أو الأدب المكشوف والشعر الحر والشعر العامي مع ترسيخ الإقليميات والطائفيات المنبتّة عن العروبة والإسلام، فضلًا عن تحطيم اللغة وعمود الشعر.

ما هي الشعوبية؟

ولفظة الشعوبية نسبة غير قياسية إلى لفظة «الشعوب»، وقد ظهرت على استحياء في العصر الأموي، ثم ظهرت سافرة للعيان في أوائل العصر العباسي. وهي حركة فريق من الناس لا يرون للعرب فضلًا على غيرهم، بل يذهبون إلى تنقّصهم والحطّ من قدرهم، حتى ألّفوا في ذلك الكتب، وقد يصل بهم الأمر إلى حدّ تفضيل العجم على العرب. وكانوا أحيانًا يسمون «أهل التسوية»، أي مساواة العرب بغيرهم.

وقد سُمّوا بالشعوبيين لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقبائل، فقد قال جمع من المفسرين في قوله تعالى: (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل)؛ إن القبائل العرب، والشعوب العجم.

وظهرت الشعوبية في الشعر العربي باكرًا، فافتتحها أحد شعراء العصر الأموي، وهو إسماعيل بن يسار النسائي الذي افتخر بقومه وأمجادهم، وعيّر العرب في جاهليتهم بعاداتهم وطريقة عيشهم، ثم جاء بشار وأبو نواس وآخرون ليواصلوا التعبير عن استعلائهم وكراهيتهم للعرب.

ويذكر عبد السلام هارون محقق كتاب البيان والتبيين للجاحظ، أن الرواة يقولون: إن زياد بن أبيه حين استلحقه معاوية بأبيه وخشي ألا تقرّ العرب له بذلك، صنع كتاب «المثالب» وعدّد نقائص العرب. كما أن النضر بن شميل الحميري وخالد بن سلمة المخزومي وضعا كتابًا في مثالب العرب ومناقبها، بأمر هشام بن عبد الملك، وكان الهيثم بن عدي دعيًا في نسبه، فصنع كتابًا طعن فيه أشراف العرب. وأما أبو عبيدة، وقد كان أبوه يهوديًا وكان يعيّر بذلك، فصنع كتابًا في مثالب العرب امتاز بالسعة والاستقصاء. وجاء من بعدهم علان بن الحسن الشعوبي

الوراق الزنديق، فألف لطاهر بن الحسين كتابًا في مثالب العرب، بدأه بمثالب بني هاشم ثم بطون قريش ثم سائر العرب، ولم يعبأ في ذلك بالخروج عن أدب الدين، وقد أجازه طاهر عليه بثلاثين ألف درهمًا. وصنع ابن غرسيه رسالة في تفضيل العجم على العرب. وقد رد عليه علماء الأندلس بعدة رسائل(1)، وقد أورد الأخير نموذجًا لردّ ابن قتيبة على الشعوبية، ولابن الكلبي كتاب في المثالب، منه نسخة عتيقة بدار الكتب المصرية.

الجاحظ والشعوبية

ولعل الجاحظ أبرز من عالج موضوع الشعوبية قديمًا، ورد عليهم في مواضع كثيرة من كتابه الشهير «البيان والتبيين»، ففي أول الجزء الثالث على سبيل المثال بعد أن يعرف بمحتوياته تعريفًا قصيرًا، يقول:

ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية (أي يتصف بالتسوية بين العرب والعجم) وبمطاعنهم على خطباء العرب: بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام، ومساجلة الخصوم بالكلام الموزون والمقفى، والمنثور الذي لم يقفّ، وبالأرجاز عند المتْح، وعند مجاثاة الخصْم، وساعة المشاولة وفي نفس المجادلة والمحاورة(2)..

(1) انظر نوادر المخطوطات ١: ٢٢٩ - ٣٣٠، وشرح البكري لأمالي القالي ص ٨٠٨ والخزانة ٢: ٥١٩ وبلوغ الأرب ١: ١٥٩ - ١٨٤

(2) المخصرة: ما اختصر الإنسان بيده فأمسكه، من عصا أو مقرعة أو عكازة، أو ما أشبه ذلك، والمناقلة: مراجعة الكلام في صخب. المتْح: الاستقاء من أعلى البئر. والمَيْح: الاستقاء من أسفلها، المجاثاة: الجلوس على الركبتين للخصومة. المشاولة: أن يتناول بعضهم بعضًا عند القتال بالرماح). (أبو عثمان عمرو بحر بن الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م، ص ٣: ٥ - ٦). وانظر مواضع الحديث عن الشعوبية في البيان والتبيين، ١:٣٨٣، ٢: ٥، ٣: ٥، ٢٩، ٣١، ٨٩

علي شريعتي

وفي موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية؛ يرى المفكر الإسلامي الإيراني علي شريعتي أن الحركة الشعوبية تحولت تدريجيًا من حركة تسوية إلى حركة تفضيل العجم على العرب، وعملت عبر ترويج المشاعر القومية وإشاعة اليأس من الإسلام إلى ضرب سلطة الخلافة، ويقدم مثالًا بالحركة الصفوية متطرقًا إلى استنادها إلى «الشعوبية» فيقول: «وبغية ترسيخ أفكارها وأهدافها في ضمائر الناس وعجنها مع عقائدهم وإيمانهم عمدت الصفوية إلى إضفاء طابع ديني على عناصر حركتها وجرّها إلى داخل بيت النبي إمعانًا في التضليل؛ ليتمخض عن ذلك المسعى حركة شعوبية شيعية، مستغلة التشيع لكي تضفي على الشعوبية طابعًا روحيًا ساخنًا ومسحة قداسة دينية، ولم يكن ذلك الهدف الذكي متيسرًا إلا عبر تحويل الدين الإسلامي وشخصية محمد وعلي إلى مذهب عنصري وشخصيات فاشية، تؤمن بأفضلية التراب والدم الإيراني والفارسي منه على وجه الخصوص».

العنصرية والكراهية

وقد اتخذت الحركة الشعوبية من الآداب وسيلة لزرع بذور العنصرية والكراهية في نفوس أبناء الأمة الإسلامية تجاه العرب خاصة والإسلام عامة، وكان الشعر أحد أهم فروع الآداب المستخدمة في هذا الإطار لكونه أكثر التصاقًا في عقول القراء والمستمعين وأسهل حفظًا في الذاكرة. ومن أعمدة الأدب الشعوبي في الفارسية، الفردوسي والخيام وأبي مسلم الخراساني وأبي بكر الخرمي والرودكي ومحمود الغزنوي.

على سبيل المثال، قام محمود الغزنوي في القرن الثالث الهجري بتكليف

الشاعر الشعوبي أبو القاسم الفردوسي بكتابة قصائد شعرية يمجد فيها تاريخ فارس وحضارتها، وقد تعهد له بأن يعطيه وزن ما يكتبه ذهبًا، وعلى هذا الأساس وضع الفردوسي ملحمته وأسماها الشاهنامة (سير الملوك)، ووضع جلها في شتم العرب وتحقيرهم وتمجيد الفرس وملوكهم. ومما يقوله الفردوسي في «الشاهنامة»: «من شرب لبن الإبل وأكل الضب؟ هل بلغ العرب مبلغًا أن يطمحوا في تاج الملك؟ فتبًا لك أيها الزمان وسحقًا»[1].

أما الشعوبية في الأدب العربي الحديث فتعني:

أولاً: إخراج هذا الأدب عن قيمه الأساسية ورسالته وطبيعته.

ثانيًا: قطعه عن الأدب العربي كله.

ثالثًا: ازدراء ماضي العرب وتاريخهم وتراثهم ومحاولة النظر إليه على أنه غير صالح للانتساب إليه.

رابعًا: فرض مفاهيم وتقاليد وأساليب دخيلة عليه وصبغه بها في محاولة لاحتوائه.

خامسًا: إقامة مناهج وافدة في النقد والتفسير ترمي إلى هدمه والازدراء به[2].

البدائل الزائفة

وكان من أكبر آثار الشعوبية في الأدب العربي الحديث؛ ظهور البدائل الزائفة من خلال مجموعة من الكتاب يكتبون بالعربية لكن وظيفتهم أن يكونوا قناطر

---

(1) صباح الموسوي، ٢٠٠٣؛ دور الحركة الشعوبية في صنع الفرق الباطنية على كاشف الغطاء، ١٣٦٥هـ؛ الشعوبية في السياسة والتاريخ المنشورة في مجلة الاعتدال

(2) انظر: أنور الجندي، الشعوبية في الأدب العربي الحديث، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص ٥

للفكر الوافد، أو أدوات لإدخال الفكر الغربي وتطبيق مقاييسه على المجتمعات الإسلامية وقيمها ونظمها، وكانت آثار هؤلاء قوية وعميقة في مجال اللغة والقومية والأدب والقانون، وأبرزهم دعاة الإقليمية والمصرية التي تقوم على أن يكون الأدب في جميع مصر لمصر، والذين يتخذون من مفهوم القومية في الغرب مفهومًا يمكن تطبيقه على علاقة العروبة بالإسلام، وهم جميعا دعاة فصل لا وصل.

ساطع الحصري: في مجال فصل القومية عن الإسلام.

علي عبد الرازق: في محاولة فصل الدين عن السياسة.

سلامة موسى: في محاولة فصل اللغة العربية عن الفكر الإسلامي.

طه حسين: في محاولة فصل الأدب عن الفكر الإسلامي.

وتهدف الشعوبية في الأدب العربي الحديث بوضوح إلى تدمير النفس العربية، بنقل مفاهيم الغربة والتمزق عن طريق خمريات أبي نواس وبشار، وما افتري به على الخيام، وعن طريق الجنس وكتاباته ومترجماته، وعن طريق الشعر الحر الذي يستهدف إفساد الذائقة العربية، وقد سجل قيام المؤسسة الشعوبية المستشرق الراحل جاك بيرك في تصريح أحدث دويًّا كبيرًا؛ حين قال:

«قامت في بيروت مدرسة (تموز) التي تعمل على التخلص من الفصاحة وتطارد أي نوع من العروبة يشتم منه رائحة التراث، ونضع على رأس هذه المدرسة أدونيس».

أسماء جديدة

لقد وزعت الجماعة الشعوبية نفسها توزيعًا منظمًا على كل خيوط الأدب والفكر والثقافة، وبرزت في السنوات الأخيرة في عنف شديد لتغطي ما حدث من فراغ أدبي بسقوط الأوراق الذابلة التي طواها الخريف من أمثال طه حسين

وسلامة موسى ومحمود عزمي وعلي عبد الرازق وغيرهم، فعملت على تقديم أسماء جديدة[1].

لقد اهتمت الجماعة الشعوبية ببناء الواجهة القادرة على تنفيذ مخططها من خلال الأقلام التي تضعها في الصدارة، عبر سيطرتها على منافذ التعبير والنشر في الصحف والإذاعات والتلفزة والمؤسسات الثقافية التي تملكها السلطة، فلا يسمع صوت غير صوتها، ولا يسمح لأحد سواها برفع صوته، وقد جاء ذلك متوافقًا مع رغبات السلطات المستبدة في أرجاء الوطن العربي التي تعادي بالضرورة فكرة الوجود الفعال للإسلام، وإن كانت تسمح أحيانًا بوجوده الشكلي داخل جدران المساجد، أو من خلال بعض المظاهر التي تنبئ عن وجوده الصوري، الذي لا يتجاوز إلى الفعل والحركة والتأثير !

كانت مدرسة الحزب القومي السوري في لبنان من ركائز هذا العمل، ويمكن القول إنها جمعت الخيوط المختلفة التي كانت متناثرة هنا وهناك، فقد سيطرت جماعة الوميين السوريين الاجتماعيين عن طريق جريدة النهار اللبنانية على الحركة الأدبية ووجهت وجهة خاصة مضادة للعروبة والإسلام، وحمل لواء هذه الدعوة غسان تويني ولويس الحاج ويوسف الخال.

وكانت انتماءات عناصر الواجهة الشعوبية متعددة، منها ما هو ماركسي أو اشتراكي أو بعثي أو قومي سوري أو مُوَالٍ لمذاهب المادية التاريخية أو الوجودية أو الليبرالية أو الفكر الهليني أو الغنوصي، وكلها تحتشد على قاعدة الفكر البشري الوافد بصورة تمكنه من العمل ضد الفكر الإسلامي الأصيل وتشويهه وتحقيره.

(1) انظر السابق، ص ٧ – ٩

مؤسسة الاستشراق

إن مهمة هذه الواجهة الشعوبية هو الحلول مكان مؤسسة الاستشراق والتبشير التي تراجع دورها شكليًا مع انحسار عصر الغزو الاستعماري رسميًا.

وكان دورها في مجال التفسير للأدب العربي الحديث يتجه نحو تطبيق النظريات المادية والماركسية ونظريات علم النفس الفرويدي والمفاهيم الوجودية والمعطيات الأسطورية في تفسير الحياة الإنسانية، بوصف الإنسان في مفهومها حيوانًا باحثًا عن الطعام والجنس وليس كيانًا له ذاتية خاصة، وهو ما يبعد تلقائيًا التفسير الإسلامي وتصوراته بالتفاعل مع النصوص الأدبية.

وقد صور قدري قلعجي معاناة الأدب العربي الحديث تحت هيمنة الواجهة الشعوبية فوصف الأدب العربي المعاصر بأنه «أدب قلق يتحدث عن هويته، وهو في أغلب الأحيان لا يبحث عنها في الجذور العربية بل في التيارات والمذاهب الأجنبية، أنصار هذه التيارات قد سيطروا على مجمل الحياة الفكرية في العالم العربي وباتوا يؤلفون خطرًا على المفاهيم الخلقية والروحية، بل إن هذه المفاهيم غدت موضع تشنيع وسخرية، فالنقاد اليساريون الذين بوأتهم بعض الأنظمة مكان الصدارة وأغدقت عليهم الدول الأجنبية المساعدات هم المسيطرون اليوم على معظم الصحف الأدبية في البلاد العربية، وهم الذين يوجهون الأدب العربي وفق مخططاتهم وأهدافهم، وهم يمارسون إرهابًا فكريًا تكاد لا تستطيع مقاومته العناصر السليمة.

المقاومة الإسلامية

والسؤال هو كيف يمكن وضع فكر إسلامي مضاد قوي يمكن عن طريقه وقف تيار المبادئ الشيوعية والهدامة في ظل هذه الأوضاع العالمية المتماوجة بما يكفل تحقيق الأهداف السامية التي يسعى إليها الإسلام»[1].

(1) انظر: السابق، ص 154 - 157

لقد توسعت الشعوبية التغريبية في مرحلة سيطرة النفوذ الأجنبي الغربي الذي ساد العالم الإسلامي منذ احتلال أكثر عواصم الإسلام وكيفت هذه العواصم تبعيتها للغرب، وازدهرت الإقليميات رغبة في تمزيق وحدة الفكر الإسلامي الجامع، ثم لم تلبث أن سممت مفهوم العلاقة بين العروبة بطرح مفهوم القوميات الوافد.

حاولت حركة اليقظة الإسلامية أن تكشف فساد المفاهيم الوافدة المطروحة في أفق الفكر الإسلامي، وكان المتوقع أن تبدأ مرحلة إسلامية من جديد مع رحيل الاحتلال الغربي العسكري والسياسي، وأن يلتمس المسلمون في الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع، ولكن حركة التغريب الشعوبية كانت قادرة على دفع العالم الإسلامي إلى مرحلة جديدة من الاحتواء والسيطرة الفكرية والثقافية والاجتماعية التي تكونت جذورها قبل ما سمّي بالاستقلال، واستطاع التيار الماركسي عقب الحرب العالمية الثانية أن يتوسع ويمتد ويشكل مع التيار الغربي محاولة خطيرة تهدف إلى محو الشخصية الإسلامية، والقضاء على الذاتية التي شكلها الإسلام بقيمه ومفاهيمه.

ومن هنا كان على حركة اليقظة الإسلامية أن تحشد قواها وتدعم قدراتها للكشف عن هذه الزيوف ودحض هذه الشبهات ودحض تلك الشبهات والقضاء على هذه السموم[1].

الخطر الكبير

شهدت العقود الثلاثة الأخيرة خطرًا كبيرًا بالنسبة للثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي، وظهرت وثائق تكشف عن دور المخابرات الأجنبية وخاصة الأميركية في تجنيد أنواع بعينها من الفنون والآداب، وكتاب وأدباء وفنانين حول العالم، وفي مقدمته الوطن العربي، وكان كتاب «من يدفع للزمار؟» الذي كتبته موظفة

(1) نفسه، ص ٢٢٨

المخابرات الأميركية أديث ستوندرز صاعقًا للأوساط الفكرية في العالم لأنه كشف عن المجلات الأدبية والثقافية التي كان يتم الإنفاق عليها في العواصم العربية، والأدباء الذين كان يتم تجنيدهم لخدمة التغريب وتشويه الإسلام.

كما أخذت الحكومات القمعية في العالم العربي تدخل بثقلها في احتواء الأدباء والكتاب والفنانين للعمل لحسابها، وقد تفاخر وزير ثقافة مصري أسبق بأن المثقفين قد دخلوا حظيرة وزارته، وكان هذا التصريح حاسمًا في تبني الحكومات المستبدة لمواجهة الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية.

وقد كانت مثل هذه الأمَارات دليلًا حيًّا ومؤكِّدًا لما ذهب إليه أنور الجند ي، وكشفه مبكرًا، قبل أكثر من نصف قرن. فقد هيمن الشعوبيون مع تعدد تياراتهم على حركة الفكر والأدب بامتداد العالم العربي، بعد أن سيطروا على وسائط النشر والتعبير بمعرفة الحكومات وأجهزتها القمعية، وتم حصار الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية حصارًا مشددًا، وتم حرمان الأغلبية الإسلامية من حقها في التعبير عن هويتها وأدبها، وفرض عليها نمط غريب من الثقافة في ظل غياب تام للحرية والحوار الجاد بين أطراف المجتمع الثقافي الراهن.

***

الفصل الثالث

المفكر

توطئة

يصعب علينا في هذه الإضاءة أن نحيط بالجوانب الفكرية كلها في كتابات أنور الجندي. ترك الرجل إنتاجًا ضخمًا في هذا المجال يضم عشرات الكتب، وقد رأيت أن أركز على أبرز ما اهتم به وعالجه في استفاضة وإطناب، وأعطاه كثيرًا من القراءة والدرس.

كان الجانب التاريخي مهمًّا لكشف الملامح التي عاش بها المسلمون قديمًا وحديثًا وهم يصنعون بطولاتهم وأمجادهم لخدمة البشرية عامة وإعزاز أنفسهم والمستضعفين في الأرض، ويتعلق بهذا الجانب التعريف بأبرز الشخصيات التي صنعت تاريخ الإسلام وأثرت فيه، بالإضافة إلى تلك الشخصيات التي انحرفت عن المسيرة الصحيحة للفكرة الإسلامية، وانزلقت إلى فكر ملوث أو انحياز إلى الأعداء في تصوراتهم وغاياتهم الشّريرة.

لقد أبرز الجندي الجانب الجهادي المقاوم للغزاة، والجانب الحضاري الذي قدم للإنسانية أسس الحضارة الحديثة في مختلف العلوم والفنون والقيم، وسجل للأمة تاريخها المضيء، وعثراتها التي تخلفت بها عن مواصلة الطريق.

كما كان الصراع مع العلمانية جانبًا خطيرًا، في معركة الاحتفاظ بالهويّة الإسلامية والذاتية، في مواجهة أخطر ألوان الغزو الفكري والثقافي التي يتبناها نفر من بني جلدتنا، في ظل توجيه من الغرب المخاصم للإسلام، وكان العنوان الأبرز في هذا الغزو هو فصل الدين عن الدولة، وإبعاد الإسلام عن المجتمع؛ ليكون المجتمع المسلم غريبًا عن دينه وهويته وخصوصيته.

للأسف؛ فإن النخب الموالية للعلمانية مازالت تبذل جهدها ونشاطها في هذا الاتجاه، وتبدد أدبياتها في الدعوة إلى العلمانية دون أن تبذل عُشر هذا الجهد في بناء المجتمع وحل مشكلاته وإصلاح التعليم ومعالجة متاعب الصناعة والزراعة والاقتصاد والعمال والفلاحين والعشوائيات والطرق والمواصلات، فضلًا عن الدفاع عن الحريات والعدل وكرامة الإنسان المسلم المظلوم.

ويرتبط بمواجهة العلمانية وخطرها الأكبر تحرير الواقع الثقافي الذي سيطر عليه العلمانيون من مختلف المذاهب والاتجاهات: يساريون وليبراليون، ويمينيون وباحثون عن المنفعة، وانتهازيون يتحركون مع اتجاه الريح.

وفي ظل هذا المناخ صنع التغريبيون أشخاصًا ورموزًا أضفوا عليهم طابع القداسة والصنمية بحيث لا يقترب منها أحد، ولا يناقش أفكارها باحثون، بل ينبغي من وجهة نظر تغريبية أن تؤخذ آراؤهم وأفكارهم مأخذ الوحي المقدس الذي لا يعترضه كاتب، ولا يخالفه أديب.

كان طه حسين أبرز النماذج التي تجرأ عليها أنور الجندي بالمساءلة والوثائق في عديد من كتبه وبحوثه، وهو ما أثار عليه الحياة الثقافية التي يتحكم فيها العلمانيون، ولكن الصورة المقدسة لطه حسين تغيّرت، وأعادته إنسانًا يخطئ ويصيب، ويبدع ويهبط.

ثم كان تصحيح المفاهيم الإسلامية والاصطلاحية التي شوهها التغريب والقصور الفكري ضرورة من ضرورات تحرير الواقع الثقافي؛ لأن المفاهيم المغلوطة تقود إلى نتائج مغلوطة، تهوي بالمجتمع إلى دركات الانحطاط الحضاري، والتخلف عن أمم الأرض.

طرح أنور الجندي كثيرًا من المفاهيم التي ينبغي أن تصحح، وأن يعلم الناس مضمونها الحقيقي الأصيل فيسيرون على هدى، ويتحركون على نور.

إن الدعوة إلى نبذ الماضي والتاريخ والتراث والقيم الإسلامية بحجة نبذ القديم، ومهاجمة الفصاحة العربية والخطابة والشعر بدعوى التجديد، ثم تحويل مفهوم البطولة إلى عبادة الأبطال بدلًا من المفهوم الإسلامي الذي يجعل البطولة قيمة قبل أن تكون شخصًا، ويحصرها في القدوة الطيبة والعمل الصالح لحساب الإسلام والمسلمين والبشرية عامة، وإن الترويج لمسألة الصراع بين العلم والدين، ونشر الثقافة والعلوم بدلًا عن التربية والتهذيب الخلقي، وعزل الفكر والأدب عن الدين؛ من المفاهيم الخاطئة التي يصوبها الإسلام لصالح المسلمين والإنسانية عامة.

ولعل رصد أنور الجندي للفكر الوافد ومخططاته يبين طبيعة الغزو الثقافي التغريبي ونشر القيم المعادية للإسلام من خلال جهود المستشرقين والخطط الصهيونية التلمودية عبر المؤسسات القائمة والتنظيمات السرية، وتجنيد المنتديات الماسونية بألوانها المتعددة، وعشرات الأنشطة ومئات الصحف وآلاف المرتزقة في الإذاعات، والقنوات.

إن غاية الفكر الوافد والمخططات الصهيونية تدمير الإنسان العربي المسلم معنويًا، وتزييف التاريخ، وفرض الفكر المادي البشري، وكانت الإرساليات التبشيرية ومؤسسات الاستشراق رأس الحربة في الترويج للمفاهيم والفلسفات المنحرفة مثل الحضارة الواحدة والوجودية والقومية بمفهومها الغربي... وغير ذلك.

لقد أثرى أنور الجندي الفكر الإسلامي بإسهاماته الضخمة، وهو ما نرى بعض ملامحه في الصفحات التالية.

***

أولاً: التأريخ لجهاد المسلمين

يلاحظ القارئ لإنتاج أنور الجندي المكتوب اهتمامه الكبير بفكرة التأريخ لواقع المسلمين وماضيهم، وما يترتب على ذلك من رؤية للمستقبل الإسلامي.

أغلب مؤلفات الرجل تدور في دائرة التاريخ، وخاصة في العصر الحديث. وهو تأريخ متنوع يشمل التاريخ السياسي والحضاري للأمة، ويتنوع في التراجم للأعلام وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، ثم رواية الأحداث المهمة التي مرّ بها المسلمون على امتداد تاريخهم الطويل.

لقد كان العالم الاسلامي وحدة لا تتجزأ قبل الغزو الأوروبي العسكري، وكانت تجمع أبناءه وحدة الفكر والشعور، وأفاد الغزاة من حالة الضعف التي أصابت المسلمين فاتجهوا لاحتلالهم والهيمنة على بلادهم، ولكنهم استيقظوا في مواجهة الخطر الذي دق أبوابهم واقتحم بيوتهم وسلب ممتلكاتهم وثرواتهم، وفرض عليهم ثقافته وأفكاره سعيًا لمحو الإسلام من نفوسهم وشطبه من واقعهم.

هذه اليقظة التي انطلقت من عقيدة الأمة لم تجد من يدرسها ويعبر عنها بالمفهوم الإسلامي في دراسة شاملة تربط بين تحديات الغزاة الأجانب وبين رد الفعل في العالم الإسلامي. ربما كتب بعض الباحثين دراسات قصيرة يستعرضون فيها أحوال العالم الإسلامي الجغرافية والتاريخية، وتحمل في الغالب وجهة نظر غربية أو استشراقية تعتمد على مصادر أوروبية. ويقع كثير منهم بحسن نية في أخطاء علمية تسوغ فرقة المسلمين وتزرع بينهم الشك والعنصرية والطائفية والكراهية[1].

(١) انظر: أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٦ وما بعدها

تصحيح المفاهيم

لقد حمل المحتلون الغربيون حقد الحروب الصليبية في أعماقهم ولم يتخلوا عنه، فخاصموا الدولة العثمانية التي امتد نفوذها إلى قلب أوروبة وسيطرت عليها خمسة قرون، ومن غير المعقول أن ينصفوا الإسلام والعرب والدولة العثمانية أو يحكموا على التاريخ الإسلامي مجردين من الهوى أو متحررين من الأحقاد والمشاعر العدوانية التي يصعب فصلها عن شخصية المؤرخ أو الباحث الغربي.

حقًّا، هناك آراء غربية منصفة، ولكنها قليلة ونحن نرحب بها، وفي الوقت نفسه نسعى لتصحيح المفاهيم الخاطئة المغرضة التي يدفع بها الغزاة الغربيون ليبقى وجودهم مستديمًا في تصوراتنا، ويحقق لهم السيادة والنفوذ.

ولاشك أن العالم الإسلامي يمثل ثقلًا كبيرًا في ميزان التاريخ والسياسة الدولية والوجود البشري، ويقف مع ضعفه ومتاعبه بين الكتلتين الغربية والشرقية مؤثرًا في الأحداث بطريقة ما يعمل لها العالم حسابًا.

ولا ريب أن هذا الثقل الكبير قاوم بصلابة وشجاعة تحدي الحضارة الغربية الاحتلالي، وصمد صمودًا عظيمًا - مع ما تعرض له من هزائم ومحن وآلام - في وجه الجيوش الغازية، وقاوم مقاومة نبيلة في سبيل التحرر من النفوذ العسكري والسياسي والاقتصادي، ولم يسمح للغزاة المحتلين أن يهنئوا بالبقاء الطويل على أراضيه من خلال الجهاد المستمر الذي لم يتوقف.

الوحدة والمقاومة

لقد لعب الغزاة- وما زالوا - على الأوتار القومية بالمفهوم الأوروبي والطائفية والعرقية؛ لتمزيق الأمة من ناحية، والقضاء على المقاومة من ناحية أخرى، ولكن وحدة الشعور التي تربط أبناء الأمة على اختلاف جذورهم وتوجهاتهم مازالت قوية

وقائمة، وتواجه الضربات التآمرية بكل قوة وصبر؛ لأنها تؤمن أن قوتها في التنوع والتعدد، ومصيرها مرتبط بوجودها المشترك مهما بدا لبعض الطوائف أو الأعراق أو المذاهب أنه من الممكن أن يعيش سعيدًا لو تخلى عن محيطه الإسلامي.

خدعة الغزاة

ومن هنا فإن التأريخ للعالم الإسلامي ليس مجرد سرد مجموعة أحداث وحقائق تجاهلها الآخرون أو زيفوها، ولكنه تصحيح لمفاهيم مغلوطة بقصد إنهاض الأمة، وتجاوز العقبات التي تعترضها، وهي الغاية التي يطمح إليها أنور الجندي في عرضه لتاريخ العالم الإسلامي الحديث الذي تعرض ولم يزل لخطط إجرامية يتم تطبيقها من جانب الغرب الطامع في ثروات المسلمين وأسواقهم وبلادهم، والعامل على غسل أدمغتهم وتفريغها من الإسلام وقيمه ومفاهيمه وتصوراته.

لقد خدع الغزاة الغربيون الأمة العربية حين وعدوها إبَّان الحرب العالمية الأولى بإقامة دولة عربية عقب تفكيك دولة الخلافة بعد الإيقاع بين العرب والعثمانيين، وكانت النتيجة تفريق الأمة العربية إلى دول متعددة ذات نظام خاص وحدود خاصة.

ومع ذلك كانت عوامل الوحدة التي نحّاها المحتلون الغزاة قائمة ممثلة في الجذور العميقة للفكر الإسلامي والثقافة العربية واللغة العربية، وهو ما جعل العرب يتحدّون واقع الفرقة بعقد المؤتمرات على المستويين العربي والإسلامي لالتئام الوحدة الفكرية واستمرار الدعوة إلى الأخوة الإسلامية الشاملة.

المأساة الكبرى

واستطاع العرب بعد الحرب العالمية الثانية أن يقيموا حكومات وطنية في البلاد شبه المستقلة، ويواصلوا الجهاد في المغرب العربي الكبير للحصول على الاستقلال. بيد أن المأساة الكبرى التي ألمت بالعرب والمسلمين؛ تمثلت في إقامة دولة للكيان

الصهيوني على أشلاء فلسطين وشعبها، وممتلكاتها، وهو كيان إرهابي دموي عنصري توسعي؛ يدعمه الغرب الصليبي بالمال والسلاح والخبز والخبرة والعلم.

ترتب على قيام الكيان الصهيوني الاحتلالي آثار عميقة طالت كل شيء في حياة الأمة العربية وتجلت بصورة واضحة في الشعر والنثر والفنون والبحث العلمي والمجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية.

وقد وجد النفوذ الاحتلالي الغربي في المجال الثقافي سلاحًا خطيرًا يقاوم به الانتماء العربي إلى الفكر الإسلامي والقرآن والإسلام واللغة العربية والقيم الأساسية التي قام عليها بناء الأمة الإسلامية. وقام الغزاة بتعميق نفوذهم من خلال التبشير والتغريب والشعوبية والغزو الثقافي وإثارة الشبهات بصورة متصلة حول الفكر الإسلامي العربي، وإشعال الخلافات بين المذاهب والملل وتعميق الفوارق المتصلة بالقوميات والأجناس والطوائف، وفرض تيارات فكرية غربية بديلًا عن الإسلام مثل الوجودية والماركسية والليبرالية والحداثة وما بعد الحداثة؛ لتظل الثقافة العربية في حالة اضطراب وتعيش في متاهات وصراعات لا تنتهي![1].

الإنجليز والقرآن

وقد أثر عن آية الله كاشاني الزعيم الروحي في إيران قوله بعد أحداث تأميم البترول في عهد مصدق:

"الإنجليز أضاعوا قرآننا"

وكان السياسي البريطاني جلادستون يردد: "لا طريق للإنجليز بين الأمم الإسلامية مادام فيها القرآن..."[2].

---

(1) انظر: السابق، ص ٢٢ - ٣٠

(2) نفسه، ص ٨١

لقد استعرض أنور الجندي الإسلام وعالمه بدءًا من العرب وتركيا وإيران حتى أفغانستان وباكستان والهند والملايو وإندونيسيا وإفريقية، وتناول عبر قرنين من الزمان هما فترة العصر الحديث وما جرى فيه من أحداث: الوحدة الإسلامية والجامعة الخلافة الإسلامية، وبالمثل تناول الأمة العربية وعالم الإسلام من خلال أحوال مصر والدعوات الإقليمية وحركات المقاومة العربية وثورة الجزائر وجذور الوحدة العربية.

وكان لحركات الإصلاح في العالم الإسلامي مساحة كبيرة في كتاب أنور الجندي "العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي" بالإضافة إلى كتب أخرى عديدة وخاصة معلمة الإسلام"، فقد بسط الكلام حول دعوة التوحيد، والدعوة السنوسية والدعوة المهدية، وحركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، والحركة السلفية وجمعية العلماء والحركة الإسلامية في الهند وباكستان، وحركة الإصلاح في إندونيسيا والحركات الصوفية.

واستعرض أنور الجندي أحوال الثقافة في العالم الإسلامي من خلال التعليم والثقافة واللغة العربية في أرجاء العالم الإسلامي.

وإلى جانب ما سبق فقد عالج التحديات التي واجهت العالم الإسلامي وفي مقدمتها الاستعمار والتبشير والصهيونية، والحركات الهدامة مثل البهائية والقاديانية والماسونية.

دعوات خطيرة

وهذه الحركات وغيرها أفضت إلى محاولات عديدة لتغيير مفاهيم الإسلام والقضاء على قيم الجهاد ضد الغزاة، والادعاء أن الإسلام دين روحاني فقط لا علاقة له بشئون الحياة والمجتمع. كما تجلى ذلك في دعوة الكماليين وكتابات علي عبد الرازق، والدعوة إلى تقبل الحضارة الغربية جملة واحدة بخيرها وشرها

كما وضح في كتاب طه حسين في مصر وأحمد أغايف في تركيا. بالإضافة إلى دعوات تمزيق الوحدة الفكرية للمسلمين وبث الفرقة فيما بينهم ببعث الإقليمية والطائفية والفصل بين العروبة والإسلام، ومحاولة تصنيف الإسلام على أساس جغرافي مثل الإسلام الهندي والإسلام التركي.

ومازالت الدعوات الهدامة تعمل حتى اليوم سرًّا وجهرًا، وتعد إفريقية وآسيا مجالًا خصبًا وحيويًّا لهذه الدعوات.

التأريخ بالوثائق

ويخطو أنور الجندي خطوة مهمة إلى الأمام لم يسبقه إليها أحد في ظني، وهي تسجيل تاريخ الإسلام الحديث من خلال الوثائق التي تتناول الأحداث التي مر بها المسلمون في القرن الرابع عشر الهجري (التاسع عشر والعشرين الميلاديين)، وهي الفترة التي شهدت ذروة الإعصار الاستعماري الذي جدد عصر الحروب الصليبية بصورة أشد قسوة ووحشية وذكاء ضد المسلمين. إنه يترك الوثائق تتكلم وتوضح طبيعة الحدث أو الواقعة أو موقف الشخصية التاريخية. وفي كتابه "معالم التاريخ الإسلامي المعاصر من خلال ثلاثمائة وثيقة سياسية ظهرت خلال القرن الرابع عشر الهجري"[1]، يسجل أنور الجندي وثائقه التي تتناول عالمية الإسلام والأزهر والعالم الإسلامي والتغريب واليونسكو والفكر والثقافة والغرب والإسلام والمؤامرة عليه والمؤامرة الصهيونية والاستعمار الغربي والإسلام في الغرب وعطاء الإسلام والوحدة الإسلامية والنفوذ الغربي في مصر والدولة العثمانية وإيران وقضايا متفرقة.

وتهدف الوثائق إلى وضع الصورة الحقيقية لوقائع التاريخ المتعلق بالمسلمين أمام الباحث المسلم؛ ليراجع الصورة المشوشة التي رسمها الغربيون أو تلامذتهم غير المنصفين من أبناء جلدتنا.

(1) توزيع دار الإصلاح للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت

التاريخ والحضارة

ثمة قضية تشغل كثيرًا من الباحثين؛ وهي قضية الحضارة وعلاقتها بالتاريخ الحديث؛ حيث رأى كثير منهم أن الحضارة الغربية هي النموذج الذي ينبغي أن يحتذى، وفي الوقت ذاته فلا يوجد مكان للحضارة الإسلامية على أرضية البحث والدرس، وإن كان الصراع ما زال قائمًا بين المجتمعات الإسلامية وبين حضارة الغرب التي تستهدف انتزاع المسلمين من منهجهم الأصيل ونهجهم القرآني وأسلوب العيش الإسلامي.

لقد استطاعت الحضارة الغربية أن تكتسح العالم كله وأن تفرض وجودها على المجتمعات الإسلامية، ولكنها لم تستطع أن تحتوي المسلمين أو تقضي على الحضارة الإسلامية.

لقد قدم الإسلام للعالم مفهوم الحضارة بوصفها تحريرًا للإنسان من العبودية والوثنية، كما قدم للبشرية المنهج العلمي التجريبي الذي قامت عليه الحضارة الحديثة. وللأسف فقد انحرفت الحضارة الغربية عن منهج الحق والعدل والرحمة والإخاء الإنساني، مما يدفع بها إلى مرحلة الأفول.

وفي كتابه الإسلام والحضارة؛ يعالج أنور الجندي قضية الحضارة من خلال التاريخ، فيعالج حضارة ما قبل الإسلام، ومنطلق الحضارة الإسلامية، ومنطق الحضارة الغربية وأزمتها ودخولها مرحلة المحاق، ثم يتناول موقف الغرب من حضارة الإسلام، ويقارن بين حضارة التوحيد وحضارة الوثنية.

مفترق الطرق

ويؤكد الجندي أن المسلمين يقفون على مفترق الطرق يلتمسون العلم والتكنولوجيا ومعطيات الحضارة، ويستشرفون هذه المرحلة الجديدة من حياتهم. وهم في حاجة إلى الإصرار على أسبقية الإيمان بالله والأخلاق على كل عطاء

حضاري مادي، وأن نقل مستحدثات العلم والتقدم يجب أن ينصهر داخل فكر المسلمين وقيمهم من أجل صناعة الحضارة القادمة[1].

يقول هاميلتون جب:

"إن الإسلام لا يزال عامل التوازن بين النقيضين في العالم الغربي، فهو يقف في وجه فوضى الوطنية الأوروبية كما يقف حائلًا دون زحف الشيوعية الروسية، ذلك لأنه لم يخضع بعد لضغط الجانب الاقتصادي الذي يعد من خصائص الحياة في أوروبة وروسية على السواء".

"إن الإسلام مطالب بخدمة يسديها للإنسان فهو إلى الشرق الحقيقي أقرب من أوروبة إليه، وله ماض بعيد في تعاون الشعوب وتفاهمها، وليس في مجتمع آخر له ما ليس للإسلام من ماض كله النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات".

ويشير "جب" إلى أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها، وتستطيع وساطة الإسلام أن تحل التعاون محل الخلاف بين المجتمعات في الشرق والغرب، وحل المشكلة التي تواجه أوروبة في علاقتها مع الشرق[2].

وتبقى بعدئذ فكرة تقديم التاريخ من خلال الحضارة ومعطياتها خطوة نحو محو الصورة الذهنية التي ارتبطت في وجدان المسلمين بعرض تاريخهم عبر الحكام والقادة الطغاة أو أولئك الذين لم يكن الجانب الإنساني لديهم ساطعًا، فبدا التأريخ تاريخ أشخاص وليس تاريخ أمة، وثمرة علم وإبداع حصدتها الشعوب الإسلامية عبر سنوات طوال.

(1) انظر: أنور الجندي، الإسلام والحضارة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص١٥

(2) انظر: السابق، ص ٢٩١ وما بعدها

أيام الله

هناك وجه آخر لتقديم التاريخ الإسلامي بعرض أهم وقائعه وحوادثه البارزة التي أثرت في مسيرة الإسلام والمسلمين انطلاقًا من قوله تعالى:" وذكرهم بأيام الله.." (إبراهيم:٥). وللمفسرين رأيان في تفسير "أيام الله" فهناك - وفقًا لتفسير الطبري - رأي يقول بأن أيام الله هي النعم التي أنعم بها ربنا سبحانه وتعالى على بني إسرائيل حيث أنجاهم من آل فرعون، وفلق لهم البحر، وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى.

والرأي الآخر: يقول إن المراد (بأيام الله): وقائعه وأحداثه. قال ابن السكيت: العرب تقول (الأيام)، في معنى الوقائع، يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي: بوقائعها. ومن ذلك أيام العرب؛ لحروبها وملاحمها، كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم جبلة، ويوم البيداء. وغيرها من أيام العرب المشهورة. قال تعالى: "وتلك الأيام نداولها بين الناس" (آل عمران:١٤٠).

ويشهد لهذا التفسير الثاني ما روي عن ابن زيد في قول الله تعالى: "وذكرهم بأيام الله"، قال: أيامه التي انتقم فيها من أهل معاصيه من الأمم خوَّفهم بها، وحذَّرهم إياها، وذكَّرهم أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم. وروي نحو ذلك عن الربيع ومقاتل وغيرهما.

وفي هذا السياق- يرى الأستاذ الريسوني - أن معرفة (أيام الله)، والاعتبار بها، هو جزء من الدين، وجزء من رسالة الأنبياء. وهو صريح قول الله تبارك وتعالى. وليس هذا خاصًا بموسى عليه السلام، كما قد يُفهم من الآية الكريمة، بل هي سنة الله في عامة أنبيائه ورسله، ومنهم محمد - ﷺ - فمن المعلوم أن حيزًا كبيرًا من القرآن الكريم إنما هو تذكير (بأيام الله)، ودعوة للاعتبار بها، "فاعتبروا يا أولي الأبصار" (الحشر:٢).

رشد للإنسانية

ومن هذا المنطلق يأتي التذكير بأيام الله عبر التأريخ الذي يقدمه أنور الجندي في كتاب يحمل عنوان الآية الكريمة: "وذكرهم بأيام الله". فيقدم لنا معطيات سيرة الرسول- ﷺ- في مواجهة تحديات العصر، ومولده وأمانته- ﷺ بوصفهما علامة رشد للإنسانية، والإسراء والمعراج والهجرة النبوية وانتقال الإسلام من الدعوة إلى الدولة، وفتح مكة وخطبة الوداع، والبطولة الإسلامية في العمل والجهاد، ومن نماذجها: خالد بن الوليد، والقعقاع بن عمرو التميمي، ثم نعيش مع عمر بن الخطاب في بيت المقدس وهو يشهد لحظة الحدث العظيم بفتح القدس وتسلم مفاتيحها. ونتحرك مع الجندي في فتح مصر وانتصار حطين وبطولة صلاح الدين الأيوبي وتصفية الغزوة الصليبية وغير ذلك من أيام تشرّف العرب والمسلمين.

صلاح الدين الأيوبي

ولعل أفضل تأريخ لصلاح الدين الأيوبي ما كتبه هاميلتونْ جب حول شخصيته وسلوكه وقيادته وتعامله مع أعدائه. ويورد أنور الجندي شهادته حول البطل المسلم على عدة صفحات، وكأنه يدّخرها لأيامنا هذه التي تقوم فيها بعض الجهات بشيطنة الرجل، ووصفه بالإرهاب لدرجة حذفه مع عقبة بن نافع من مناهج التعليم في بعض الدول العربية التعيسة.

ويشير "جب" إلى أن ما حققه صلاح الدين يعود إلى إنكاره للذات وتواضعه وكرمه ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضد أعدائه وضد من ينتمون إليه انتماء اسميًّا، على حد سواء، ولم يكن صلاح الدين نفسه ساذجًا، ولكنه مع هذا، كان غاية في البساطة فذًّا في النزاهة. ولقد حيّر أعداءه من الأدنين والأبعدين؛ لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم، وأن يقوم بالألاعيب والمناورات

السياسية مثلما يفعلون، وكان هو نفسه طيب السريرة؛ ولذا لم يكن أبدًا يتوقع أبدًا أن يفهم مكر الآخرين، وقلما فهمه، وذلك ضعف استغله فيه أحيانًا أقرباؤه، إلا إنهم كانوا آخر الأمر يصطدمون بصخرة مستقرة من إخلاصه لمثله العليا إخلاصًا لم يكن لأحد من الناس أو لشيء من الأشياء أن يزعزعه من مكانه[1].

وبالنسبة لرجل مثل الإمام الشهيد حسن البنا؛ فقد لوحظ أنه لم يتكلم عنه من وجهة نظره، وقد كان قريبًا من الجماعة ومتابعًا لمسيرتها ومسيرته، ولكنه آثر أن يلجأ إلى شهادة رجل أجنبي غير مسلم، وترجم الموضوع الذي كتبه عنه، على قلة إنتاجه في الترجمة. ولعله أراد أن يأتي بشهادة رجل محايد عن الرجل الذي احتشد خصوم الإسلام وأتباع الاحتلال على تشويه صورته، ومهاجمته بالباطل..

يقول روبير جاكسون في موضوعه "حسن البنا.. الرجل القرآني" عن ظروف لقائه بحسن البنا:

في فبراير سنة ١٩٤٦، كنت في زيارة للقاهرة.. وقد رأيت أن أقابل الرجل الذي يتبعه نصف مليون شخص، وكتبت في النيويورك كرونيكل بالنص:

زرت هذا الأسبوع رجلًا قد يصبح من أبرز الرجال في التاريخ المعاصر- وقد يختفي اسمه إذا كانت الحوادث أكبر منه، ذلك هو الشيخ حسن البنا زعيم الإخوان".

ويضيف جاكسون:

"هذا ما كتبته منذ خمس سنوات، وقد صدقتني الأحداث فيما ذهبت إليه، فقد ذهب الرجل مبكرًا.. وكان أمل الشرق في صراعه مع المستعمر. وأنا أفهم جيدًا أن الشرق يطمح إلى مصلح يضم صفوفه، ويرد له كيانه، غير أنه في اليوم الذي بات فيه مثل هذا الأمل قاب قوسين أو أدنى انتهت حياة الرجل على وضع غير مألوف، وبطريقة شاذة. (يقصد اغتياله في شارع رمسيس بالقاهرة في ١٢ فبراير ١٩٤٩).

(١) انظر: أنور الجندي، وذكرهم بأيام الله، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص١٥٩

وبعد أن يصف جاكسون موقفه من الرجل ودعوته وما لفت نظره فيه من سمت بسيط، ومظهر عادي، وثقة لا حد لها بالنفس، وإيمان عجيب بفكرته، يقول:

"كنت أتوقع أن يجيء اليوم الذي يسيطر فيه هذا الرجل على الزعامة الشعبية، لا في مصر وحدها، بل في الشرق كله.

وسافرت من مصر بعد أن حصلت على تقارير وافية ضافية عن الرجل وتاريخه وأهدافه وحياته. وقد قرأتها جميعًا وأخذت أقارن بينه وبين جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، والسيد السنوسي، ومحمد بن عبد الوهاب، فوصل بي البحث إلى أن الرجل قد أفاد من تجارب هؤلاء جميعًا، وأخذ خير ما عندهم، وأمكنه أن يتفادى ما وقعوا فيه من أخطاء، ومن أمثلة ذلك أنه جمع بين وسيلتين متعارضتين، جرى على إحداهما الأفغاني، وارتضى الأخرى محمد عبده.

كان الأفغاني يرى الإصلاح عن طريق الحكم، ويراه محمد عبده عن طريق التربية. وقد استطاع حسن البنا أن يدمج الوسيلتين معًا، وأن يأخذ بهما جميعًا، كما أنه وصل إلى ما لم يصلا إليه، وهو جمع صفوة المثقفين من الطبقات والثقافات المختلفة إلى مذهب موحد، وهدف محدد"[1].

ثم يتتبع جاكسون حياة البنا في وجوه مختلفة، حتى يصل إلى نهاية بحثه بتساؤل فيه كثير من الذكاء يقول فيه:

"إن الأمر الذي أسأل عنه فلا أجد له جوابًا: هل هناك علاقة ما بين الإسلام كما كان يفهمه حسن البنا ويدعو إليه وبين نهايته؟ إن كثيرين يدعون إلى الإسلام ويحملون اسمه، فهل هناك خلاف جوهري بين ما كان يدعو إليه حسن البنا وما يدعو إليه هؤلاء؟

(1) روبير جاكسون، حسن البنا الرجل القرآني، ترجمة: أنور الجندي، المختار الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م ن ص ٥ – ٧

لأني لا أعرف الإجابة الصحيحة أدع ذلك للتاريخ؟"[1].

استشراف المستقبل

لقد أخلص أنور الجندي في تقديمه للتاريخ الإسلامي كي ينقيه من المفاهيم المغلوطة والوقائع المكذوبة، والتفسيرات التي تقوم على الهوى أو تعتمد وجهة نظر غير موضوعية، مما يساعد الأجيال الجديدة على التعرف على تاريخها الحقيقي، بعيدًا عن التزييف والتضليل والتدليس الذي احترفته بعض الجهات والأبحاث، ونحن في حاجة إلى إعادة قراءة التاريخ من خلال كتابات أنور الجندي لنواجه الحملات الضخمة التي يضخّها الإعلام المرئي والمسموع والمقروء الذي يصب في أعين المتلقين وآذانهم وعقولهم كثيرًا من الأكاذيب والحقائق المغلوطة.

إن معرفة حقائق التاريخ وحوادثه بطريقة صحيحة يهيئ لاستشراف المستقبل بصورة أفضل وأوضح، وهذا ما هدف إليه أنور الجندي من اهتمامه بالتأريخ الإسلامي.

***

(1) السابق، ص ٣٧

ثانيًا: مواجهة العلمانية

الإنجليز السمر:

كان إدراك أنور الجندي للنفوذ الأجنبي وتأثيره في البلدان العربية والإسلامية عميقًا وواعيًا، فقد جاء الغرب بجيوشه الجرارة واحتل معظم العالم العربي والإسلامي، وبقي سنوات طويلة تفاوتت من بلد إلى آخر، ثم رحل وترك وراءه فكرًا خطيرًا ونخبة موالية له، لدرجة أن هناك عبارة تنسب للشهيد- بإذنه تعالى - سيد قطب، صرح بها بعد جلاء الإنجليز عن مصر، تقول:

"خرج الإنجليز الحمر وبقي الإنجليز السمر!".

الإنجليز السمر إشارة إلى النخبة الموالية للغزاة الذين انسحبوا بجيوشهم من البلاد، ومنحوها استقلالًا شكليًا، ولكنهم بقوا في عمق الوطن من خلال هذه النخبة التي ترفض منهج الإسلام وتشريعاته ومعطياته فضلًا عن الاستقلال والحرية، كما أنها لا تخافت بالولاء للتصور الغربي وتجلياته، وخاصة في الجوانب السلبية والهامشية.

وخطورة أن تتشبع النخبة بمفاهيم الغرب الاستعماري تأتي من كونها المخ الذي يقود المجتمع في المجالات المختلفة: السياسية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والإعلامية والعسكرية والفنية والقانونية والتجارية والتربوية والتعليمية، وغيرها.

فلسفة القوة الانتهازية

ولأن الغرب الاستعماري كان متشبعًا بروح العلمانية منهج حياة، وفلسفة قوة انتهازية تسمح له باستغلال الشعوب الضعيفة ونهبها وفرض ثقافته وقيمه المادية عليها دون أن يردعه وازع ديني أو ضمير إنساني، فقد فرض المفهوم العلماني في

حكمه للمستعمرات وتنشئة النخبة الحاكمة من أبناء البلاد على الإيمان بالعلمانية بوصفها طريقًا أوحد في حكم الشعوب الإسلامية؛ مع ما يرتبط بذلك من مصادمة هوية الأمة واحتقار دينها ونبذ تراثها المضيء، والانحياز للغزاة وسلوكهم الإجرامي المهين للشعوب والإنسانية، وعنصريتهم القبيحة الفجة واستعلائهم المشين.

تعريفات متعددة

ومن خلال تعريفات العلمانية المتعددة يتضح أنها تتفق على فصل الدين عن السياسة والحكم، وتتفاوت التعريفات بعدئذ فيما يتعلق بالتفاصيل.

فموسوعة ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، مثلًا تقول:

العَلمانية هي فصل الحكومة والسلطة السياسية عن السلطة الدينية أو الشخصيات الدينية. وتعني أيضًا عدم قيام الحكومة أو الدولة بإجبار أي أحد على اعتناق معتقد أو تبني دين أو تقليد معين لأسباب ذاتية غير موضوعية، كما تكفل الحق في عدم اعتناق دين معيّن وعدم تبني دين معيّن دينًا رسميًا للدولة. وبمعنى عام فإن هذا المصطلح يشير إلى الرأي القائل بأن الأنشطة البشرية والقرارات وخصوصًا السياسية منها يجب أن تكون غير خاضعة لتأثير المؤسسات الدينية[1].

الدنيوية

وهناك من يرى أن العلمانية هي المقابل اللغوي العربي لكلمة Secularism الإنجليزية وتترجم حرفيًا بمصطلح "دنيوية"، وكان هذا المصطلح يستعمل في وصف العامة من غير رجال الدين قبل أن يتّخذ دلالة سياسية، وقد يظن بعض الناس أن المصطلح في اللغة العربية لمعنى الكلمة هو العلمانية وهي مشتقة من كلمة

(1) انظر: كارين آرمسترونج، النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، دار الكلمة، دمشق ٢٠٠٥، ص.١٠٢ وما بعدها

العالم أو العلم؛ حيث يستخدمه بعض الكتاب لتجنب الارتباك، في حين يفضل البعض الآخر مصطلح الدنيوية على النقيض من "الدينية". ومصطلح العلمانية ررجمة غير دقيقة، وغير صائبة لكلمة Secularism في الإنجليزية، أو Secula - ite أو Lauque بالفرنسية، وهذه الكلمة حسب أصلها في اللاتينية لا علاقة لها بلفظ العلم ومشتقاته، على الإطلاق. فلفظة العلم في الإنجليزية والفرنسية، يعبر عنها بكلمة Science، وأما المذهب العلمي، فيطلق عليه كلمة Scientism، والنسبة إلى العلم في الإنجليزية هي Scientific أو Scientifique في الفرنسية.

والحق أن اشتقاق العلمانية من العلم خطأ محض، بل هو تمويه خطير، وزيف كبير، ذلك أن منهج العلم في حقيقته لا يقر منهجًا ناقصًا، ولا يرى أن العلم التجريبي القائم على المحسوس والتجربة هو وحده العلم، ولا يرى أن عالم الغيب مما يستبعد تمامًا أو ينظر إليه على أنه غير قائم وغاية ما يقول العلم التجريبي في عالم الغيب (الميتافيزيقا) أنها مما لا تستطيع وسائله وأدواته أن تقول فيها الكلمة الفاصلة[1].

الجذور البعيدة

وتعود جذور العلمانية إلى الفلسفة اليونانية القديمة لفلاسفة يونانيين أمثال أبيقور، غير أنها خرجت بمفهومها الحديث في عصر التنوير الأوروبي على يد عدد من المفكرين أمثال توماس جيفرسون الرئيس الثالث للولايات المتحدة، وفولتير، والمفكر الإنكليزي جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) أحد الداعين إلى نظام يفصل الدين عن الدولة، ويطلق الحريات العامة. ويطبق المفهوم ذاته على الكون والأجرام السماوية عندما يُفسّر النظام الكوني بصورة دنيوية بحتة بعيدًا عن الدين في محاولة لإيجاد تفسير للكون ومكوناته.

(1) أنور الجندي، سقوط العلمانية، ط ٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠، ص ٤٢

ولا تعد العلمانيّة - وفقًا لهذا المفهوم - شيئا جامدًا بل هي قابلة للتحديث والتكييف حسب ظروف الدول التي تتبناها، وتختلف حدة تطبيقها ودعمها من قبل الأحزاب أو الجمعيات الداعمة لها بين مختلف مناطق العالم. وتزعم هذه الرؤية أن العلمانية ذاتها ليست ضد الدين بل تقف على الحياد منه. ففي الولايات المتحدة مثلًا وُجد أن العلمانية خدمت الدين من تدخل الدولة والحكومة وليس العكس. وقد يعدها بعضهم جزءًا من (التيار الإلحادي)[1].

نزعة سوفسطائية

وقد اعترف مراد وهبة– لأول مرة وهو طائفي متعصب، ومن أكبر دعاة العلمانية في بلاد المسلمين – أن العلمانية في أصولها وجذورها "نزعة سوفسطائية"، وفقًا لعبارة الفيلسوف السوفسطائي "بروتا غوراس" (٤٨٠– ٤١٠ ق.م) التي تعد بداية العلمانية: "الإنسان مقياس الأشياء جميعًا"!

ويضيف مراد وهبة: "أن عصر التنوير – الذي عرفته أوروبا في القرن الثامن عشر – "والذي يحرر العقل من كل سلطة ما عدا سلطة العقل" هو "تنوير مؤسس على العلمانية" – أي على النزعة السوفسطائية – وأن هذا التنوير قد أفرز – في القرن العشرين – "حركة لاهوتية تسمى "اللاهوت العلماني" وأن فلاسفة هذا اللاهوت العلماني: "توماس التيزر" و"وليم هاملتون" اللذين نشرا عام ١٩٦٦م كتابًا عنوانه: "اللاهوت الراديكالي وموت الله".. وأنهما قد حكما "بموت الله" تبعًا لموقف الفيلسوف الألماني "نيتشه" (١٨٤٤– ١٩٠٠م) الذي أعلن "أن الله قد مات" وذلك في كتابه "هكذا تكلم زرادشت".

فالله – في هذا اللاهوت العلماني – المؤسس على التنوير السوفسطائي –

(1) راجع: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط٢، الرياض، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م، ص ٣٦٥ وما بعدها

النابع من الحكمة السوفسطائية والعلمانية السوفسطائية - قد مات، ومعه مات المطلق، ولم يبق إلا النسبي كما قرر السوفسطائيون[1].

لاهوت نسبي؟!

ويعلق محمد عمارة على ذلك بأن الرجل لم يفسر لنا "لغز" وجود "لاهوت علماني"؟! إذ كيف يكون هناك "لاهوت" نسبي غير مطلق؟ وكيف يموت الله في هذا اللاهوت؟!.

ويضيف عمارة أن "الحكمة" في الثقافة الإسلامية - التي يرفضها وهبة - "هي الصواب في غير نبوة"، أي إن لدنيا صوابًا جاء به الوحي، وصوابًا جاء به العقل.. والله سبحانه وتعالى هو الذي أنزل الكتاب والحكمة. وفي القرآن يوصف الوحي بأنه "فرقان" ويوصف العقل بأنه "فرقان"، وفي هذه الثقافة الإسلامية يصبح الشرع مع العقل "نورًا على نور"[2].

حركة اجتماعية

وتقدم دائرة المعارف البريطانية تعريف العلمانية بكونها: "حركة اجتماعية تتجه نحو الاهتمام بالشؤون الدنيوية بدلًا من الاهتمام بالشئون الأخروية. وتعد جزءًا من النزعة الإنسانية التي سادت منذ عصر النهضة الداعية لإعلاء شأن الإنسان والأمور المرتبطة به بدلًا من إفراط الاهتمام بالعزوف عن شئون الحياة والتأمل في الله واليوم الآخر. وقد كانت الإنجازات الثقافية البشرية المختلفة في عصر النهضة أحد أبرز منطلقاتها، فبدلًا من تحقيق غايات الإنسان من سعادة ورفاه في الحياة الآخرة، سعت العلمانية في أحد جوانبها إلى تحقيق ذلك في الحياة الحالية".

(1) انظر: مجلة الثقافة الجديدة، وزارة الثقافة، القاهرة، عدد أغسطس ٢٠١٥

(2) محمد عمارة، العلمانية: مقال نزعة سوفسطائية، موقع عربي ٢١، ٢٨ أكتوبر ٢٠١٥

بيد أن أنور الجندي يؤكد أن العلمانية ليست قاصرة على فصل الدين عن الدولة، بل تهدف إلى إقصاء الدين عن كل ميادين الفكر والحياة والقوانين والتعليم والاقتصاد[1].

حياد الدولة

وإذا كان بعض دعاتها يرفع شعار حياد الدولة تجاه الدين، وأنها ليست عقيدة إيجابية أو فلسفية تعتمدها الدولة وتبشر بها، بل هي موقف سلبي، فهو من العبارات المقنّعة خطيرة المدلول؛ لأنها تسعى إلى شطب الدين وإلغائه كليًا من الحياة والمجتمع والفكر[2].

وقد حاول العلمانيون - بقصد التخفيف من طبيعة العلمانية المعادية للدين - الإيحاء أنها ليست أيديولوجيا أو عقيدة بقدر ما هي طريقة للحكم، ترفض وضع الدين أو سواه مرجعًا رئيسيًّا للحياة السياسية والقانونية، وأنها تتجه إلى الاهتمام بالأمور الحياتية للبشر بدلًا من الأمور الأخروية، أي الأمور المادية الملموسة بدلًا من الأمور الغيبية.

وفي السياق ذاته تحدث بعضهم عما يسمى بالعلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية، والأولى يتحرر فيها الفرد من قيود المطلق والغيبيّ وتبقى الصورة العقلانية المطلقة لسلوك الفرد، مرتكزًا على العلم والتجربة المادية. أما الأخرى فهي تركز على الدنيويات، وتترك الجانب الأخروي الغيبي للأفراد.

ويذهب بعضهم مثل حسن حنفي إلى مزاعم أبعد حين يروج لفكرة أن الإسلام دين علماني بمعنى غياب الكهنوت، أي بعبارة أخرى غياب المؤسسات الدينية الوسيطة. فلا وجود لكهنوت أو كنيسة تملك الهيمنة على الأتباع.

وحاول بعضهم أن يغير المصطلح من الدولة العلمانية إلى الدولة المدنية، أو دولة مدنية ذات مرجعية إسلامية! وهي محاولات فيها التفاف واضح على الحقيقة بهدف إقصاء الإسلام وإبعاده عن المجتمع وتشريعاته وقيمه.

(1) سقوط العلمانية، ص ٢٤

(2) السابق، ص ٢٥

ويوضح أنور الجندي أن العلمانية لها أكثر من مدلول، وأن الدلالة تتحول من زمن إلى آخر، وأن المترجمين العرب أخفوا دلالته الحقيقية حتى لا تصدم الحس العربي، وتبقى في نطاق العلم مما يحميها من الاتهام، وصدق جان ريفو حين قال: إن العلمانية كلمة لها رائحة البارود؛ لما تثير من استجابات متضاربة متناقضة[1].

ملخص أهداف

ويرى أنور الجندي أن المصادر التي تناولت العلمانية تجمع على أنها تستهدف الغايات الآتية:

أولاً: عزل الدين عزلًا تامًّا عن المجتمع، وإتاحة الفرصة لقيام نظام سياسي لا يستهدي بالشريعة، وتأسيس الاقتصاد على أساس الربا.

ثانيًا: إبعاد قطاع أصيل من الفكر الإنساني، وهو جانب الروح والوحي وعالم الغيب، وكل ما يتصل بالدين من أخلاق وعقائد وإيمان بالله، وعزله عزلًا تامًّا عن الفكر والحياة.

ثالثًا: إعلاء كلمة العقل والمادية والإلحاد، وإقامة منهج علماني يقيس الأمور بمقاييس الحس والعقل والتجربة وحدها، سواء ما يتصل بالإنسان أو المجتمع أو الحياة[2].

باروخ اسبينوزا

والعلمانية لم تنشأ مذهبًا فكريًّا بشكل مطرد إلا في القرن السابع عشر، ولعلّ الفيلسوف اليهودي الملحد باروخ إسبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧)، كان أول من أشار إلى أن الدين يحوّل قوانين الدولة إلى مجرد قوانين تأديبية. وأشار أيضًا إلى أن الدولة كيان متطور وتحتاج دومًا للتطوير والتحديث على عكس الشريعة الثابتة الموحى بها؛ لذا يرفض اعتماد الشرائع الدينية مطلقًا، مؤكدًا أن قوانين العدل

(1) سقوط العلمانية، ص ٧

(2) سقوط العلمانية، ص ٢٠ وما بعدها

الطبيعية والإخاء والحرية هي وحدها مصدر التشريع.

لقد عاش سبينوزا في هولندا أكثر دول العالم حرية وانفتاحًا آنذاك، ومنذ استقلالها عن إسبانيا، طوّر الهولنديون قيمًا جديدة، وحوّلوا اليهود ومختلف الأقليات إلى مواطنين بحقوق كاملة، وأسهم جو الحريّة الذي ساد إلى بناء إمبراطورية تجارية مزدهرة ونشوء نظام تعليمي متطور، فنجاح الفكرة العلمانية في هولندا، وإن لم تكتسب هذا الاسم، هو ما دفع - حسب رأي عدد من الباحثين ومن بينهم كارن أرمسترونغ - إلى تطور الفكرة العلمانية وتبينها لتكون إحدى صفات العالم الحديث.

عامل حاسم

ويُعدّ تيقظ الحركة اليهودية في أوروبة، وانبعاث مفاهيمها من التلمود والتوراة المحرفة، وتشكل ذلك التحدي الخطير باسم الماسونية، وما اتصل بها من حركات تغيير كانت الثورة الفرنسية في مقدمتها عاملًا حاسمًا في بلورة العلمانية. وسيطر هذا العامل على الفكر الأوروبي في عصر التنوير معارضًا الفكر الغربي المسيحي، لإقامة أنظمة جديدة يتاح في ظلها خروج اليهود من الجيتو، والحصول على حق المواطنة، مقدمة للوثوب إلى الحياة الفكرية والاجتماعية، والسيطرة عليها.

وكانت العلمانية الطريق الذي يحطم الحواجز الضخمة التي تقف في وجه اندماجهم في المجتمعات الأوروبية. فقد سيطر اليهود على ميادين الفكر والثقافة والطب والعلم والصحافة، وتركوا لغيرهم السياسة[1].

ثم استطاعوا السيطرة على السياسة من خلال الصحافة والمال، ثم كانت الثورة الفرنسية الخطوة الأولى، تلاها خطوتان: إسقاط الدولة العثمانية، وإقامة النظام الشيوعي في موسكو[2].

(1) سقوط العلمانية، ص ١٦

(2) السابق، ص ١٦ - ١٧

نتاج يهودي

وتكشف هذه الخلفية أن العلمانية نتاج يهودي تلمودي أصيل كان له أبعد الأثر في الفكر الغربي، فقد سادته عوامل أربعة مهمة:

١ - نظام اقتصادي قائم على الربا. ٢ - قانون وضعي متنصل من شرائع الله.

٣ - تعليم لاديني متحرر من نفوذ الكنيسة.

٤ - ديمقراطية تحل الإيمان بالدولة محل الإيمان بالعقيدة[١].

حضارة العصر

وقد ساعد على نجاح فكرة العلمانية في أوروبة عجز السلطات الدينية الأوروبية مسايرة حضارة العصر، ولم يتردد بعض المفكرين في وصف الدين عندهم بأوصاف هابطة. فأوجست كونت وليفي بريل اعتبراه لا يصلح إلا لتنظيم الشعوب البدائية، وأنه ليس إلا خطوة من خطوات الإنسانية نحو المبدأ العلمي الحديث.

وفكرة كارل ماركس أن الدين أفيون الشعوب ما كانت لتنتشر لو أن رجال الكنيسة كانوا على مستوى الحضارة الحديثة ومشكلاتها المتعددة، ولكنهم وقفوا موقف المتفرج من الأفكار والتيارات الفلسفية التي نشأت في ذلك الحين[٢].

وكان يمكن للدين أن يصحح موقفه هناك، ولكن القوى التلمودية كانت أسبق وأجرأ، وقامت المنظمات الماسونية بإسقاط الحكومات المسيحية الخاضعة لنفوذ الكنيسة، وإنشاء حكومات متحررة من هذا النفوذ. وصار الفصل بين الدين والدولة أول الركائز التي تحول بين نفوذ الكنيسة والحكم. وكان أول قرار لأول حكومة علمانية في أوروبة وهي الجمعية الوطنية الفرنسية ١٧/ ٩/ ١٧٧١م اعتبار اليهود المقيمين في فرنسا متساوين، لهم حقوق المواطن وعليهم واجبات جميعًا[٣]..

(1) نفسه، ص ١٧

(2) السابق، ص ٢١

(3) نفسه، ص ٢٢

مؤيدو العلمانية

كان العسكر الانقلابيون والبعثيون، وغير المسلمين من العرب، والليبراليون في القرن العشرين وخاصة بعد منتصفه؛ من أوائل المؤيدين للمبادئ العلمانية في بلدان الشرق الأوسط، وقد سعوا إلى إقصاء الإسلام عن الحياة العامة، وذهب بعضهم إلى محاولة استئصاله مما أدخل الحكومات في صراع ممتد ضد الحركات الإسلامية. وقد اكتسب مصطلح العلمانية دلالة سيئة في العالم الإسلامي منذ الانقلاب العثماني وإقامة النظام السياسي العلماني في تركيا في عام ١٩٢٤ على يد الديكتاتور مصطفى كمال أتاتورك.

ويشير الجندي إلى أن نكسة ١٩٦٧ كانت توقيتًا لإعلان الصيحة بضرورة علمنة الذات العربية وإخراجها من إطار الدين، وإتمام صفقة نقل العلمانية كاملة بعد أن بدأت بالتغريب والنظرية المادية والقانون الوضعي والمناهج الأجنبية في التربية والتعليم، وفصل الدين عن الدولة، ويقول العلمانيون إنه قد حان الوقت لتحرير الذات العربية من الإطارات الغيبية! - أي الإسلام بالذات- فقد جعلوا الإسلام سبب النكسة، ورأوا أن تجاوزها يقتضي إنهاء ثنائية العلمنة الجزئية مع مفاهيم الإسلام[1].

وقد روَّج العلمانيون في مصر والعالم العربي لكتاب "الإسلام وأصول الحكم" الذي ألفه عام ١٩٢٥ الشيخ علي عبد الرازق (١٨٨٨ - ١٩٦٦)؛ وكان الرجل من الأزهريين وقاضيًا بالمحاكم المصرية، وزعم في كتابه أن الإسلام دين لا دولة، وأن نظام الخلافة غير ملزم! وقد أثار الكتاب لغطًا كثيفًا ورفضًا عنيفًا أدى إلى إخراجه من هيئة كبار العلماء، وإن كان العلمانيون والغربيون قد امتدحوه وأشادوا به!

نتائج مأساوية

لقد خدعنا بأسلوب الغرب في الحكم والتربية والاجتماع، وجرينا وراء التجربة الغربية حتى نهايتها التي كانت سقوط فلسطين في يد الصهيونية، ثم جرينا وراء التجربة الماركسية حتى كانت نهايتها سقوط القدس في يد الصهيونية وتعرية المجتمع العربي

(١) السابق، ص ٩

تعرية كاملة، حتى تعرف أن الهزيمة والنكبة والنكسة التي توالت منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧؛ إنما كان مصدرها التماس أسلوب الغرب وحجب أسلوب الإسلام. وعندما حطمنا هذا القيد والتمسنا أسلوب الإسلام لم تمض إلا سنوات قلائل حتى كان نصر رمضان المؤزر الذي هو علامة على الطريق الجديد الذي يجب أن يسلكه المسلمون والعرب[١].

لقد كان هدف الصهيونية والليبرالية والماركسية - ومازال - ضرب الإسلام، والحرص أن يظل بعيدًا عن دائرة العمل والتنفيذ، وألا يمتلك المسلمون إرادتهم القادرة على الانتقال من الدائرة الضيقة التي حبسهم فيها الغزو الثقافي والتغريب إلى الدائرة المرنة التي أنشأها لهم الإسلام[٢].

ومن الحقائق التي تغفلها كتب التاريخ عن عمد ما طرحه رئيس الوزراء البريطاني جلادستون على مجلس العموم البريطاني عام ١٨٨٣ حين حمل المصحف، وقال: "ما دام هذا الكتاب باقيًا في الأرض فلا أمل لنا في إخضاع المسلمين، بل نحن على خطر في أوطاننا".

يضاف إلى هذا قول اللورد اللنبي حين دخل القدس عام ١٩١٧:

"اليوم انتهت الحروب الصليبية"[٣].

الخروج من الإطار

إن الدعوة إلى علمنة الذات العربية تعني إخراجها من إطار الدين ومصدرها معروف كما سبقت الإشارة، والعرب يعرفون أن مصدر تحررهم هو فكرهم الأصيل. ومفهوم الإسلام الذي نشأهم وكوّنهم وعلمهم على مدى التاريخ، وأن جوهر العصر مرتبط بالتماسهم مفاهيم الإسلام وتحرير أنفسهم من التبعية للفكر

(1) أنور الجندي، تحديات في وجه المجتمع الإسلامي، في دائرة الضوء - ٣٠، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص ١١

(2) السابق، ص١٥

(3) السابق، ص ٢١

الوافد على أية صورة من صوره وإحياء فريضة الجهاد، والتماس مصادر الشريعة الإسلامية، وبناء التربية على النهج القرآني.

فالعلمانية ليست دعوة علمية خالصة لوجه الحق، ولم تستهدف تحرير الإنسان العربي، بل كانت تستهدف إخراجه من ذاتيته وقيمه ومزاجه النفسي، وتركيبه الاجتماعي لتقذف به في أتون العالمية والأممية(١).

إن منهج الإسلام المعرفي يقوم على أساس الوحي والعقل، والدعوة إلى عمارة الأرض والسعي في مناكبها، وبناء الحياة بالعمل. فهو ليس منهجًا غيبيًّا، ولكنه منهج متكامل، لا يقف عند حدود المحسوس، ولا يؤله المادة أو العقل أو الإنسان أو التاريخ(٢).

بينما الفكر الغربي المسيحي ليس إلا فكر المخططات التلمودية التي رسمتها بروتوكولات صهيون، ويعرف المسلمون والعرب الرابطة بين الفكر المستمد من هذه المخططات وبين الغزو الصهيوني الذي أحدث هزيمة ١٩٦٧ (٣).

إن الفكر الغربي تشكل من خلال مفاهيم العلم التجريبي الذي قدمه الإسلام، ومن خلال المفاهيم التي كانت قد امتزجت باسم المسيحية بالإضافة إلى جذور الوثنية اليونانية مما اختلط جميعه، وحاول الانصهار في بوتقة واحدة، وهي تعاني صراعًا حادًّا وأزمة عميقة تتقاسمها وتمزقها بين العلم والوثنية من ناحية، وبين مفاهيم الرهبانية والإباحية من ناحية أخرى(٤)..

أما المفهوم الإسلامي فقد فصل بين العلوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية، وجعل لكل منها منهجًا خاصًّا يتفق مع طبيعته وماهيته(٥)..

(1) سقوط العلمانية، ص ١٣
(2) السابق، ص١١
(3) نفسه، ص ١٢
(4) سقوط العلمانية، ص ١٥
(5) السابق، ص ٤٩

وفي كل الأحوال فقد كان هدف اليهود نقل العلمانية إلى العالم الإسلامي للسيطرة على الفكر الإسلامي واحتوائه وإقامة إمبراطورية الربا العالمية[1]..

صراع ومقاومة

لقد ركز دعاة العلمانية في العالم الإسلامي على الإقليمية، والفصل بين الوطنية وبين مفهوم الأمة العربية من ناحية، وبينها وبين وحدة العالم الإسلامي من ناحية أخرى، كما عملت على الفصل بين هذه الأقطار ثقافيًا وبين الفكر العربي الإسلامي[2]..

بالإضافة إلى صراع فكري عنيف دار بين العلمانية والتشريع الإسلامي، وسعى العلمانيون من خلاله إلى تشكيل نماذج من النخبة والمثقفين تتجاوز الدين ولا تقف عند اللغة العربية أو تاريخ الإسلام أو قيم القرآن ومنهجه الشامل[3]..

وفي خضم هذا الصراع لم يستسلم المسلمون للعلمانية ومخططاتها، بل قاوموا، وانكشفت حقائق وانبلجت أضواء، وكانت أولى بوارق المقاومة فشل القوانين الوضعية في تحقيق الأمن والطمأنينة للمجتمع بسبب قصورها وعجزها. وجاءت دراسات جامعية أوروبية تنصف الشريعة الإسلامية وتبين عن جوهرها وأهميتها وعظمتها وتراجع بعض التشريعات القانونية أمامها، واعترف أصحاب هذه الدراسات الغربية أن الإسلام سبق إليها. وفي مرحلة تالية اعترف الأوروبيون اعترافًا كاملًا بالشريعة الإسلامية في عدد من المؤتمرات الدولية ١٩٣٣ - ١٩٣٧ وما بعدها حيث انكشفت حقائق كثيرة إزاء ما يطرحه الاستعمار والتغريب من شبهات، وأهمها استقلالية الشريعة عن القانون الروماني. وقرر مؤتمر القانون الدولي في لاهاي ١٩٣٧ بأن الشريعة الإسلامية:

(1) نفسه، ص٢٣

(2) سقوط العلمانية، ص ٢٧

(3) السابق، ص ٣١

١ - مصدر من مصادر التشريع العام.

٢ - صالحة للتطور.

٣ - تشريع قائم بذاته ليس مأخوذًا من غيره.

لقد صارت الشريعة الإسلامية مصدرًا أساسيًّا للقانون في كثير من دساتير البلاد العربية، مما أدى إلى سقوط العلمانية في مجال من أهم مجالات الحياة وهو التشريع[١]..

اليقظة الإسلامية

وفي مجال مقاومة العلمانية المتوحشة استطاعت حركة اليقظة الإسلامية أن تواجه حركة التبشير لإخراج القرآن والإسلام من التعليم في البلاد العربية بإنشاء المدرسة الإسلامية، وساعد على ذلك اعتراض كثير من الكتاب المسلمين على تغريب التعليم، وألحُّوا على إدخال الدين في التعليم العام، وتحرير مناهج التعليم من النفوذ الأجنبي[٢]..

كما امتدت المقاومة الإسلامية للنظام الاقتصادي الربوي الذي سيطر على ثروات الأمة الإسلامية، وجعلها رهينة في يد الغرب الاستعماري، وكتب العلماء المسلمون أبحاثًا كثيرة تؤكد على تحريم التعامل بالربا في الإسلام، وطرح البدائل الإسلامية لاقتصاد منتج مثمر مستقل، ونظام مصرفي لا يعتمد على الربا[٣]..

لقد وجدت محاولات فرض العلمانية من خلال التشريع والتعليم والاقتصاد؛ معارضة تتزايد مع كل يوم، بعد أن أثبتت فشلها الذريع[٤]..

(1) نفسه، ص ٢٨ - ٣٠

(2) سقوط العلمانية، ص ٣٠ - ٣٢

(3) السابق، ص ٣٣ - ٣٤

(4) نفسه، ص ٣٥

جهد فكري

واستطاعت مدرسة اليقظة الإسلامية أن توقظ القلوب من أجل العمل الإسلامي، وأن تبذل الجهد الفكري لكشف أخطار التحديات التي تواجه الوطن الإسلامي ومحاولة تحطيم مؤامرة النفوذ الأجنبي التي كانت تعمل على تطويق العالم الإسلامي عسكريًّا وسياسيًّا[1]..

وقد تمثلت طلائع هذه المدرسة في العديد من القادة على امتداد العالم العربي والإسلامي، منهم على سبيل المثال: عبد العزيز جاويش وطاهر الجزائري، والقاسمي والطاهر بن عاشور والألوسي ورفيق العظم وشكيب أرسلان وتوفيق البكري وأحمد كمال باشا وأحمد الشريف السنوسي ومصطفى الغلاييني وأحمد زكي باشا وأحمد تيمور ومجدين العرب العلوي ومحمد رشيد رضا وفريد وجدي ومحمود سامي البارودي وحفني وعبد الرحمن البرقوقي.. وغيرهم من أجيال جاءت بعدهم وحملت راية اليقظة الإسلامية.

وأعتقد أن الصراع بين العلمانية المتوحشة والإسلام سيظل مستمرًّا، تغذيه رغبة الدول الكبرى في قهر الشعوب المستضعفة وفرض أنماط حياتها الثقافية والاجتماعية على أبنائها، ورغبة المسلمين في الدفاع عن هويتهم واستقلالهم الكامل.

***

(١) انظر: أنور الجندي، المدرسة الإسلامية على طريق الله ومنهج القرآن، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت، ص ٣ - ٤

ثالثًا: تحرير الواقع الثقافي: طه حسين نموذجًا

نخبة موالية

صنع التغريب بما يملكه من طاقة ونفوذ نخبة موالية له في بلاد العرب والمسلمين، تأتمر بأمره، وتتحرك بمنهجه وتصوره، تحيطها هالة من الشهرة وما يشبه التقديس، بحيث لا يجرؤ كائن من كان على مراجعة أفكارها أو التصدي لأقوالها وأحكامها، ومن يفعل فهو معارض لحركة التاريخ، وسابح ضد التيار الهادر، مما يعني أن علي الأمة أن تأخذ بما يُلقى إلى أسماعها فتتقبله دون مناقشة وتعمل من خلاله، وإلا فإنه محكوم عليها بالتخلف والرجعية والعودة إلى الوراء.

وإذا كان التغريب قد تمت له السيطرة على النشر والإعلام، فهو لا يسمح بتمرير ما يخالف منهجه وتصوراته، وما يسمح به يتحول إلى ما يشبه الأصنام والأوثان يعبدها الناس ويدورون حولها. هكذا كان شأن مدرسة اللورد كرومر (١٨٤١ - ١٩١٧) المندوب السامي للاحتلال الإنجليزي في مصر، فقد صنع نخبة رائدة في التغريب بدهائه وذكائه؛ لتكون مددًا للاحتلال واحتياطيًّا له؛ يجعل الشعب يتقبل الاحتلال ويتعايش تحت رايته، ويفرط في مصالح الوطن الرئيسية، وينفذ أفكاره المسمومة في المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بما يضعف الأمة ويمحو هويتها ويضيع حقوقها.

المقاومة

في المقابل فإن حركة اليقظة الإسلامية كان عليها أن تقاوم الاحتلال الأجنبي عن طريقين، الأول: مواجهة الجمود والعجز والتقصير والجبرية بفهم الإسلام فهمًا أصيلًا مستمدًا من منابعه. والآخر: مدافعة الاحتلال ومقاومته، فكانت بذلك تحرر العقيدة كما تحرر الأوطان. وقد تحملت اليقظة في سبيل ذلك كثيرًا من التضحيات والمعاناة والاضطهاد، وكان في طليعة رواد اليقظة الإسلامية: السلطان العثماني عبد الحميد وجمال الدين الأفغاني ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وعبد العزيز الثعالبي والشيخ القسام، وعشرات غيرهم، قاموا بإزعاج الاستعمار ليخرج من بلاد المسلمين.

وقد استطاع الغزاة أن يصنعوا رجالهم من أهل البلاد المحتلة ليلتقوا بهم في منتصف الطريق، ويتفاهموا معهم على حساب أوطانهم، ويؤمنوا أنه لا سبيل لحرية الأوطان إلا بالتفاهم مع المحتل والتعامل مع الغاصب!

رموز شبه مقدسة

كان من الطبيعي بالنسبة لباحث مثل أنور الجندي أن يهتم بتحرير الواقع الثقافي، وكشف زيفه وأباطيله، ويفتش في حقيقة الرجال الذين تبناهم الاحتلال وجعلهم رموزًا شبه مقدسة في الأدب والفكر والحقل الثقافي بصفة عامة أمثال أحمد لطفي السيد، وطه حسين، ومحمود عزمي، وعلي عبد الرازق، وسلامة موسى، ولويس عوض. وقد تصدى في كثير من كتبه لهذه الرموز وأمثالها وخاصة طه حسين، فقد عقد لهم كتبًا أو فصولًا عديدة امتدت على كثير من صفحات كتبه، ثم قدم للحياة الثقافية كتابه الذي أحدث ضجة كبيرة في حينه وهو "طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام" الذي طبع أكثر من مرة، وأتبعه بكتابه "محاكمة فكر طه حسين" الذي كان

ردًّا علميًّا على ما أثاره الغاضبون من كتابه الأول. وكان قد أصدر قبل ذلك كتابًا صغيرًا بعنوان "أكذوبتان في تاريخ الأدب الحديث: أحمد لطفي السيد وطه حسين". وإذا عرفنا أن الأول كان يلقب بأستاذ الجيل والآخر يوصف بعميد الأدب العربي؛ أدركنا دلالة العنوان "أكذوبتان" بما يعني أن الرجلين لا يمثلان شيئًا من الألقاب أو الصفات التي تطلق عليها، وهي ألقاب وصفات تتجاوز أستاذ الجيل وعميد الأدب العربي إلى ألقاب وصفات أخرى تضعهما في دائرة التقديس والصنمية!

طبقة الباشوات

إن أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) الذي يلقب بأستاذ الجيل والمفكر والفيلسوف ومدير الجامعة ورئيس دار الكتب المصرية ورئيس تحرير جريدة الجريدة وزعيم حزب الأمة وأبي الليبرالية المصرية؛ لم يكن إلا معبرًا عن طبقة الباشوات التي خدم أغلبها الاحتلال البريطاني، وكان صاحب آراء صادمة منها أنه كان يرى ألا ضرورة لتعليم أبناء الشعب المصري أو أبناء الأمة، وإنما يُكتفى بتعليم أبناء الذوات وحدهم، ويؤمن أن الغرب هو المثل الأعلى في نظامه السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ثم إنه يكره الدولة العثمانية والخلافة والجامعة الإسلامية والعروبة ويدعو إلى العامية والإقليمية الضيقة "مصر للمصريين"، وينفذ تعاليم مدرسة اللورد كرومر التي تمكنت من قيادة المصريين كما يريد الإنجليز الغزاة[1]..

لقد وصفه العقاد بقوله:" هذا لطفي السيد، ليس بالفيلسوف ولا هو بأستاذ أحد، ولم يكن في كل ما كتبه وقاله في حياته دليل واحد على أكثر من أنه رجل متحذلق ضيق الاطلاع يملؤه الغرور..." وهذا أهون ما وصف به العقاد أستاذ الجيل كما يلقب، أما الأوصاف الأخرى فالمجال يضيق عنها[2]..

(1) انظر: أنور الجندي، أكذوبتان في تاريخ الأدب الحديث، دار الأنصار، القاهرة، د.ت، ص٣ - ٥

(2) كوكب الشرق، ٣١يوليو ١٩٢٨

كتاب أرسطو

ويشير أنور الجندي إلى أن أحمد لطفي السيد لم يترجم كتاب الأخلاق لأرسطو الذي وضع اسمه عليه بوصفه مترجمًا له، وهو كتاب ظهر على الناس بدون مقدمة للمترجم كما جرت العادة، وكما تقتضي طبيعة الأعمال المترجمة ذات القيمة. ويرجع ذلك إلى أن قسم الترجمة في دار الكتب هو الذي قام بنقل الكتاب عن النص الفرنسي إلى اللغة العربية طبقًا لشهادة الأستاذ أحمد عابدين مدير دار الكتب آنئذ، وقد جاءت الترجمة في غاية التعقيد؛ لأن مستوى المترجمين المتفاوت كان دون مستوى المترجم الفرنسي (سانهيز) الذي نقل الكتاب من اليونانية إلى الفرنسية[1]..

كتاب الأيام

وفيما يتعلق بطه حسين (١٣٠٦ هـ - ١٨٨٩ = ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م) فالأمر أشد خطورة؛ حيث لقي اهتمامًا كبيرًا من الشباب الذي قرأ له كتاب الأيام، وتأثر به انطلاقًا من تعاطف الشباب مع رجل كفيف جاهد في سبيل العلم حتى أحرز مركزًا مرموقًا. بالطبع لم يقرأ أغلبهم الشعر الجاهلي أو مستقبل الثقافة في مصر، وقد استغل طه حسين العطف والشفقة والرحمة في سبيل الوصول إلى القمة، فلما وصلها هاجم أستاذته وحطم آراء العلم، وجرى وراء البريق الذي قدمته له القوى التي يستطيع أن تصنع له الأقلام والكتاب التي تشيد به وترفعه إلى عنان السماء.

يعلن أنور الجندي أنه لا يغض من قدر طه حسين صاحب الأيام، ولا يضيره القول: إن طه حسين من أصحاب النثر الفني، وإنه من المدرسة المبتدعة، أو البيانية كما أسميتها أنا، وهي المدرسة التي بدأت بالمنفلوطي وأكملها الرافعي والزيات

(١) انظر: أنور الجندي، أكذوبتان في الأدب العربي الحديث، ص ٦ وما بعدها، ص ٢٨ - ٣٣

والبشري وآخرون، كما لا يستطيع أحد أن ينتقص من موسيقى الأسلوب لدى طه حسين وفنه وبلاغته التي ترجع أساسًا إلى ما استطاع أن يمنحه له القرآن الذي حفظه، والأزهر الذي اتصل به، والتراث الإسلامي الذي تعرف إليه في صدر شبابه، فما ذلك النثر الفني إلا من معطيات الفكر الإسلامي أساسًا. ومن أجل هذا وجد كتاب الأيام قبولًا في النفس الإسلامية العربية في هذه البلاد المقدسة التي ارتبطت بالقرآن الكريم وبيانه، وكانت حواشي فكرها وأعماقه مرتبطة ببلاغة الأسلوب النبوي، وأدب الصحابة والثقافة الإسلامية على مدى قرون[1]..

مبالغات وتضخيم

بيد أن طه حسين دار حوله زيف كثير ومبالغات حاولت تضخيمه لحساب الذين استعملوه ضد المسلمين والعرب.

ويكشف الدكتور محمد صبري السربوني(١٨٩٤ - ١٩٧٨)، بعض الأكاذيب التي تتعلق بشخص طه حسين وسلوكه في حياته العلمية والعامة بحكم أنه كان زميلًا له في السوربون. يحكي بعض المواقف التي ارتبطت بعلاقته بالجامعة والأساتذة، فيقول:

"دخلت أنا وطه حسين امتحان الليسانس في عام واحد، وعندما ظهرت النتيجة ذهبت فلم أجد اسمي ولا اسمه، وفي اليوم التالي وجدت اسمه محشورًا بين السطور فذهبت إليه وأبلغته".

وقد أثار حشر اسم طه حسين بين السطور كثيرًا من الدارسين المصريين. فقد قام زميل آخر هو جلال شفيق بكشف الحقيقة، فقال: إن طه حسين ذهب إلى الأساتذة وهم مجتمعون، واستدر عطفهم، وذكرهم بأنه على أبواب الزواج بفرنسية، وأنه غريب وأعمى؛ فرثوا له!

(1) انظر: السابق، ص ١٨

ويدعم هذا ما جاء في كتاب سامي الكيالي عن طه حسين؛ حيث يقول في مقدمة رسالته للدكتوراه:

"وليسمح لي بأن أعتذر عن أسلوبي الفرنسي إذا ما بدا بلا ريب في كثير من المواضع ركيكًا أو خاطئًا، وكذلك عن الأخطاء المطبعية التي قد تقع في هذه الرسالة، فما كنت إلا (غريبًا وأعمى).

ويسجل الدكتور طه أنه في امتحان الدكتوراه بعد ذلك بعامين أو ثلاثة دخل لجنة الامتحان ودخلت معه زوجته تحمل طفلها، فلما رآها رئيس اللجنة ابتسم. فأخذت ورقة من أمامه وكتبت فيها كلامًا، فلما قرأه قال: "إذًا سنخفف عنك أسئلة الامتحان:

حدثنا عن تاريخ الدولة الأموية.

فماذا كتبت في الورقة وماذا فهم الأستاذ؟

هذا رجل كفيف جاء إلى فرنسا وتزوج من فرنسية، وهو عائد إلى بلاده ليكون لسانًا للثقافة الفرنسية والغربية في بلاده ولاءً وأصهارًا، وهكذا كانت تسير الأمور بالعطف والرثاء والإحسان إلى كفيف أعمى"(١)..

كلام لا يُسكت عليه

من جهة أخرى يشير الدكتور محمد صبري السربوني، إلى أن طه حسين لم يكن صادقًا فيما أورده في كتاب الأيام، من أنه كان يدرس في ثلاثة معاهد أو أربعة في باريس، وبعد أن عدد طه حسين مجموعة من الأساتذة الذين درس على أيديهم، يقول السوربوني:

"إن هذا الكلام لا يُسكت عليه؛ لأن طه حسين لم يدرس على كل هؤلاء، فإن دارس التاريخ لا بد أن يتخصص إما في القديم أو العصور الوسطى أو التاريخ الحديث، وقد كان طه حسين متخصصًا في التاريخ القديم فكيف درس تاريخ الثورة الفرنسية، وكيف

(٦) انظر: السابق، ص ١٦،١٥

درس البيزنطي والتاريخ الحديث. والدكتور طه كان قليل التردد على السوربون لعاهته، ولا أذكر أبدًا أني رأيته يستمع لهؤلاء، وكونه استمع إلى محاضرة أو محاضرتين لأستاذ من الأساتذة لا يعني هذا أنه درس عليه، ومن ثم لا يعقل أنه تتلمذ على هؤلاء جميعًا".

ويضيف السربوني موضحًا طبيعة دراسة طه حسين للتاريخ القديم ودفاع بعض تلاميذه عنه قائلًا: "إن ما درسه طه حسين هو اللغة اللاتينية لتعينه على فهم التاريخ القديم، أما الذين نقلوا عن طه حسين كالكيالي وكامل زهيري؛ فإن معلوماتهما قاصرة بالنسبة للدراسة في السوربون"[1]..

الجانب الفكري

وإذا انتقلنا من الجانب الشخصي والسلوكي المرتبط بطه حسين إلى الجانب الفكري، فإننا نلاحظ أن أفكاره التي أطلقها في الحقل الأدبي والفكري وشغلت الناس طويلًا؛ قد سقطت بعد أن تجاوز الفكر الإسلامي المعاصر مرحلة التبعية للفكر الغربي الوافد إلى مرحلة أشد قوة وأصالة ورشدًا، ويمكن رصد عشرة أفكار رئيسية لطه حسين، تم إسقاطها، وقد فصلها أنور الجندي في كتابه "طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام"، ونوجزها فيما يلي:

ابن خلدون

أولًا: ادّعاؤه أن ابن خلدون لم يكن مؤسسًا لعلمي الاجتماع والتاريخ، وقد استقاه من الباحث اليهودي "دور كايم" (١٨٥٨ - ١٩١٧)، فقد كان طه يهدف إلى إرضاء اليهودي المشرف على رسالته في السوربون، والتقرب إلى الفرنسيين بازدراء أهل المغرب العربي الذين لم يتقبلوا المدنية الغربية، وسخر من جهادهم في سبيل مقاومة الاستعمار.

(1) انظر السابق، ص ١٨

ثانيًا: كان رأيه في انتحال الشعر الجاهلي محل استهجان كثير من الباحثين الذين كشفوا زيفه مثل الرافعي ومحمد فريد وجدي ولطفي جمعة ومحمد أحمد الغمراوي ومحمد الخضر حسين وناصر الدين الأسد الذي كشف عن المصادر التي سرق منها الفكرة، وكانت لمبشر مسيحي استتر تحت اسم "هاشم العربي"، وعرف من بعد بأنه الدكتور "زويمر"، ومن كاتب يهودي هو "مرجليوث".

الأساطير

ثالثًا: إحياء الأساطير في كتابه "على هامش السيرة"، وقد دعا إلى دمجها في السيرة النبوية بعد أن أبعدها مؤرخو المسلمين، وأعطى نفسه مطلق الحرية في الإضافة إليها. وقد هاجم هذا الاتجاه أصدق أصدقائه، وهو الدكتور محمد حسين هيكل الذي ألف "حياة محمد". وقد صف الرافعي "على هامش السيرة" بأنه "تهكم صريح".

رابعًا: ادِّعاؤه أن سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام ليسا موجودين حقيقة، وإن أشار إليهما القرآن الكريم. وقد لقي هذا الادعاء معارضة شديدة، وأثار شبهات حول موقف طه حسين من الإيمان بالله ومن الإيمان بالقرآن والنبوة، وتبين من بعد أنه كان خدمة لهدف الصهيونية التلمودية التي أنكرت صلة إبراهيم وإسماعيل بالجزيرة العربية، وسكتت عن بناء البيت، وحاولت أن تجعل وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم عليه السلام محصورًا في ابنه إسحق، أي بني إسرائيل وحدهم، وكان يبغي من وراء ذلك خدمة الصهيونية، فضلًا عن تحريض طلابه في كلية الآداب على نقد القرآن الكريم بوصفه كتاب أدب، كما أشارت محاضر جلسات مجلس النواب المصري عام ١٩٣٣.

عقلية مصر

خامسًا: زعمه أن عقلية مصر يونانية غربية كما ورد في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"، وأن الإسلام لم يغير هذه العقلية، ثم إعلانه أن على المسلمين والعرب أن يأخذوا حضارة الغرب: خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحمد منها وما يعاب، وقد كشف كثيرون زيف هذا الرأي.

سادسًا: الادِّعاء أن مصر فرعونية وليست عربية، ولن تكون عربية أبدًا؛ لأن العرب في زعمه غزاة لمصر مثل الرومان والفرس. وأدى هذا الادعاء إلى حرق كتب طه حسين في ميدان عام بدمشق.

كلية لاهوتية

سابعًا: دعوته إلى إلغاء الأزهر، وتوحيد التعليم الأساسي وجعله مدنيًّا غربيًّا، لا يدرس فيه الدين حتى يصبح الأزهر "كلية لاهوتية" مثلما حدث في تركيا والغرب.

ثامنًا: ذكره أن المتنبي شاعر العربية الأكبر منكور الأب، وأنه يمكن أن يكون لقيطًا جاء من طريق غير شرعي. وتلك سبة في التحليل أبطلتها التحقيقات العلمية التي أجراها كثيرون، منهم محمود شاكر وعبد الغني الملاح، كان واضحًا أن طه يريد تحطيم الشخصيات البارزة في الأدب العربي، وهو ما يتطابق مع هوى المستشرقين.

الاتصال بالصهيونية

تاسعًا: هناك شبهة اتصاله بالصهيونية، ومن دلائلها إشرافه على دار الكاتب المصري عام ١٩٤٦ التي كان يمولها الصهيوني إسرائيل ولفنسون (١٨٩٩ – ١٩٨٠) تلميذه في كلية الآداب؛ الذي ألف كتاب "اليهود في جزيرة العرب" وقدمه طه إلى الناس مشيدًا به، والكتاب خلاصة دعاوى اليهود وأكاذيبهم حول فلسطين.

عاشرًا: دفاعه عن عبد الله بن سبأ وإنكار وجوده ودوره في فتنة عثمان؛ اعتمادًا على مصادر أحياها الصهاينة، في مقدمتها كتاب (أنساب الأشراف للبلاذري) حيث نشروا منه الجزء السادس فقط في تل أبيب، وهو مصدر إنكار دور عبد الله بن سبأ، ولا ريب أن طبع جزء واحد من كتاب متعدد الأجزاء وجعله مصدرًا في بحث خطير كهذا يمثل أمرًا أشد خطورة.

الوقوف أمام الكعبة

ويتساءل أنور الجندي بعد عرض هذه الآراء والأفكار أو الادعاءات:

كيف استطاع طه حسين أن يقف أمام الكعبة عندما زار مكة عام ١٩٥٤ رئيسًا للجنة الثقافية بالجامعة العربية، وكيف طاف بها وهو الذي أنكر وجود إبراهيم وإسماعيل من قبل؟[1].

وقد فصل الأستاذ أنور الجندي- رحمه الله- هذه الأفكار والآراء ودعمها بالوثائق والأسانيد في كتابه الذي أثار ضجة كبيرة عند صدوره عن دار الاعتصام بالقاهرة، عام ١٣٩٦هـ= ١٩٧٦م).

وهنا أذكر أن الأستاذ أنور كان يطبع ملازم كتبه بما يتوفر له من معاشه البسيط على ورق جرائد أسمر (ستانيه) وفي عدد متواضع من النسخ يتراوح بين ألف وثلاثة آلاف نسخة، وتقوم دار الاعتصام بتغليفها في غلاف مقبول، وتبيعه بسعر رخيص حسبة لله يحتسبها المؤلف.

وقد ظهرت الطبعة الأولى مليئة بالتصحيف وفقدان علامات الترقيم، فقد كان الرجل يتولى التصحيح بنفسه في ظل مشاغله العديدة وسنه المتقدم. وحين نفدت الطبعة الأولى في زمن قياسي، بعد أن أحدثت رد فعل صاخبٍ في الصحف والمجلات والإعلام، رأت دار الاعتصام أن تقوم بنفسها بإعادة طبع الكتاب، وساعد على ذلك أنها امتلكت بالتقسيط جهاز جمع آلي، وكان كتاب طه حسين أول ما جمعه هذا الجهاز، وأسند إليّ تصحيح الكتاب في طبعته الأولى؛ ليكون أصلًا يتم جمع حروف الطبعة الجديدة على أساسه، ثم تولى غيري تصحيحها في صورتها النهائية، فخرجت الطبعة الجديدة جيدة وخالية من كثير من التصحيفات.

(١) انظر: أكذوبتان في تاريخ الأدب العربي الحديث، ص ٢٠ – ٢٦

مدخل مهم

وقد فصل الكتاب حياة طه حسين وأفكاره في ثلاثة أبواب، مهد لها بمدخل مهم للغاية ضمنه قائمة بالأبحاث التي ناقشت فكر طه حسين وأدبه في حياته وبعد رحيله، مع ذكر الموضوعات التي أثارت ضجة حول الرجل واقتضت مناقشته ومعارضته في مصادر آرائه وأفكاره التي نقل عنها وهي في الغالب أجنبية أو لا يوثق فيها، ثم رصد أهم ردود الفعل على المستوى العام.

في الباب الأول: حياة طه حسين مرحلة التكوين والإعداد، ويرصد فيه مطالع حياته، ورحلته إلى أوروبة وآثارها، وارتماءه في أحضان الاستشراق، واستسلامه للتبعية الفكرية الغربية، ثم الولاء التام للسياسة الغربية.

وفي الباب الثاني: يتناول مرحلة النضوج والتألق في حياة طه حسين عبر الجامعة، ووزارة المعارف، والصحافة والسياسة الحزبية، ومجمع اللغة والجامعة العربية، والمحاضرات والمؤتمرات.

أما الباب الثالث: فيتضمن آراء طه حسين وصراعه مع أهل جيله من خلال أفكاره، وطريقة البحث، وظاهرة التحول والتناقض، والأسلوب والأداء الفني، والاستجواب البرلماني، وأهل جيله ومواقفهم تجاهه.

وتشير الخاتمة إلى أهم ما جاء بالكتاب، وتبرز الدافع إلى تأليفه وتَعِد بتقديم بحث آخر جامع في الموضوع نفسه، وهو ما جاء كثير منه في كتابه "محاكمة فكر طه حسين".

وفي الطبعة الثانية أضاف أنور الجندي فصلًا سماه الفصل ما بعد الأخير تضمن ردودًا ومناقشة لما قوبل به الكتاب في طبعته الأولى من مؤيدي طه حسين.

التريث في الحكم

ويشير أنور الجندي إلى أن الدكتور طه حسين قد اكتسب شهرة واسعة، وأنتج إنتاجًا غزيرًا، وكان له نشاط واسع في الجامعة ووزارة المعارف والصحافة والتأليف.

لذا يتريث الجندي في الحكم على الرجل وآثاره قبل إضاءة الطريق إلى فهمه بتقديم الوقائع والوثائق المتصلة بحياته وفكره على النحو العلمي الصحيح حتى يجيء الحكم منصفًا عادلًا غير مشوب بشيء من التحامل أو التحيز[1]..

ولعل أهم ما أثار الناس ضد طه حسين كان ما جاء في كتابه في الشعر الجاهلي، وتعلق بفكرة الشك، وإنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، مما يعني تكذيب القرآن الكريم، فضلًا عن زعمه أن الشعر الجاهلي منحول، وأنه من وضع الشعراء الإسلاميين، فكان الاستجواب البرلماني الشهير الذي جاء مع معركة أدبية صاخبة صنعت معركة برلمانية دارت رحاها بين نواب البرلمان في ١٤ سبتمبر ١٩٢٦، حيث قدم النائب عبد الحميد البنان نائب الجمالية اقتراحًا من ثلاثة أقسام: مصادرة كتاب في الشعر الجاهلي، إحالة الدكتور طه حسين إلى النيابة، إلغاء وظيفته. وواصل النواب، ومنهم عبد الخالق عطية والشيخ القاياتي سلسلة من الاتهامات والانتقادات لطه حسين بأنه يطعن في الدين. وقد سلم معالي وزير المعارف بالقسم الأول من الاقتراح وتكلم دولة عدلي باشا رئيس الوزراء عن القسم الثاني وجرت بينه وبين دولة الرئيس "سعد زغلول" مناقشة اشترك فيها وزير المعارف والحقانية انتهت بأن ذكر عدلي باشا أن قرار المجلس بإحالة المؤلف إلى النيابة يكون بمثابة اعتراض على تصرفات الحكومة، وذكر مسألة الثقة بالوزارة. مما دفع البنان إلى إقامة دعوى قضائية ضد طه حسين، وحققت النيابة معه في ١٩ أكتوبر عام ١٩٢٦.

(١) انظر: أنور الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام، ط٢، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص٧

مناقشات البرلمان

وهاجم سعد زغلول في هذه المعركة طه حسين قائلًا: إن الدين متين وليس الذي شك فيه زعيمٌ ولا إمامٌ حتى نخشى من شكه على العامة، فليشك ما شاء، ماذا علينا إذا لم يفهم البقر؟".

وقد كان طه حسين محل مناقشات في البرلمان منذ ظهر كتابه في الشعر الجاهلي الذي عدله وغير فيه وسماه في الأدب الجاهلي؛ حتى عام ١٩٤٠ حيث تقدم النواب: عبد الرحمن فهمي ورضوان السيد وأحمد والي الجندي ومحمد عبد اللطيف دراز وأحمد عبد الفتاح معبد باستجواب للحكومة عن الأسباب التي حدت بوزارة المعارف إلى إسناد وظيفة مراقب الثقافة العامة إلى رجل عرف بنزعات وآراء تخالف تقاليد البلاد وأخلاقها ودينها. وقد حملت بيانات النواب أمام تفصيلات مسهبة لأسباب الاستجواب والتهم الموجهة إلى طه حسين[1]..

بيد أن الفصل بعد الأخير الذي ألحقه الجندي بكتابه في الطبعة الثانية يقدم صورة واضحة لتأثير طه حسين في النخب التي لا تستريح للإسلام بوصفه وحيًا ومنهجًا للحياة، وقد برز غضب الشيوعيين والليبراليين على وجه الخصوص عقب ظهور الكتاب الذي أطاح من خلال الوثائق والنظرة العلمية بالقداسة الزائفة والهالة الكاذبة التي حاول التغريب والغزو أن يحيط بها الدكتور طه، ويفرضه زعيمًا ومصلحًا ومفكرًا على الإسلام والمسلمين. لقد كان الكتاب قنبلة هزت المعسكر التغريبي، ومن ثم تشكلت هيئة للدفاع عن طه حسين تتحرك في اتجاهين:

الأول: الدفاع عن الرجل بوصفه زعيمًا وبطلًا وقائدًا يمكن أن يوضع في صفوف القمم التي عرفها الإسلام في العصر الحديث.

(١) انظر تفاصيل الاستجواب في السابق، ص ١٧٧ - ١٩٧

الآخر: الادعاء أن طه حسين رجع عن آرائه في آخر حياته وعاد إلى الإيمان بالله حين ألف على هامش السيرة وبكى أمام الكعبة.

خلط للأوراق

وقد صحبت عملية الدفاع عن طه حسين من جانب مؤيديه شتائم وسباب وخلط للأوراق مما تغاضى عنه أنور الجندي؛ حيث ركز على القضايا الجوهرية في ردوده على هؤلاء المؤيدين.

بالإضافة إلى اتهام أنور الجندي أنه لم يعارض طه حسين في حياته، بل أشاد به قبل رحيله في مقالته "أدباء معاصرون: طه حسين" التي كتبها ونشرها في مجلة "الأديب" اللبنانية المحتجبة (١٩٤٢ - ١٩٨٣م) في عدد يوليو ١٩٥٣م، الجزء السابع، السنة الثانية عشرة، ص٥١،٥٢، ومقالته الأخرى بعنوان "صفحات مجهولة من حياة طه حسين ١٩٠٨ - ١٩١٦م"[1]، وكلتاهما تفيض إعجابًا وتقديرًا، ويرد الجندي على ذلك بأنه كتب في حياة طه حسين يرد على مخالفاته للمفاهيم الإسلامية ومعارضته للأصالة العربية واندفاعه في صف التغريب والغزو الفكري، ويكشف عن آرائه الخطيرة في أبرز كتبه: في الشعر الجاهلي، حديث الأربعاء، مستقبل الثقافة في مصر، منذ عام ١٩٥٧ أي قبل وفاة طه حسين بنحو عشرين عامًا في كتبه:

١ - المعارك الأدبية.

٢ - الصحافة السياسية.

٣ - الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقية.

٤ - المساجلات والمعارك الأدبية[2].

---

(1) مجلة "الهلال"، فبراير ١٩٦٦م - عدد خاص عن طه حسين

(2) الصادر طبعته الأولى عن دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧٢، وطبعته الثانية عن مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م

أخطر كتاب

وعند صدور كتاب (الصحافة السياسية) عام ١٩٥٩ أعلنت عنه الصفحة الأدبية للأخبار، بأن صورت غلاف الكتاب، ونشرت بجانبه صورة طه حسين وصورة العقاد، وقالت إنه أخطر كتاب صدر يقدم تناقضات الكتاب في هذا الوقت المبكر- وطه حسين حي يرزق- ويكشف عن تناقضاته بين الهجوم على سعد زغلول ومدحه، وبين شتم الوفد والدفاع عنه.

وقد ضم كتاب (المعارك الأدبية) للجندي أكثر من عشرين معركة كان فيها طه حسين في الجانب السلبي، وتناول كتابه الآخر المساجلات والمعارك الأدبية؛ الآراء الخطيرة في كتب الدكتور طه: الفتنة الكبرى، مع المتنبي، على هامش السيرة. ويعد كتاب طه حسين.. حياته وفكره في ميزان الإسلام؛ بلورة لهذه المعارك والمساجلات[1]..

ومن الطبيعي أن يشيد الناس بموضوع جيد أو كتاب جميل لكاتب ما، ولكنهم حين يطلعون على مجمل إنتاجه، وخاصة إذا كان إنتاجًا غزيرًا به أخطاء وسلبيات وتجاوزات؛ أن يتغير موقفهم، طالما كانوا يبحثون عن الصواب والموضوعية وهما - فيما أتصور - غاية أنور الجندي.

أشد المدافعين

كان الكاتب اليساري الراحل رجاء النقاش (١٩٣٤ - ٢٠٠٨م) من أشد المدافعين عن طه حسين إلى جانب آخرين في الصحف المجلات (العربي الكويتية، الهلال، الجمهورية، الجديد، الإذاعة والتلفزيون، أكتوبر، صباح الخير..)، وقد خصه الأستاذ أنور بردٍّ خاص.

وكان رجاء النقاش يشرف على بعض أعداد الهلال فكتب مقالًا مطولًا نشره في عددين متتاليين (١٩٧٦).

(١) انظر: السابق، ص ٢٢٦ وما بعدها

ورأى الأستاذ أنور أن خطأ رجاء النقاش الذي أقام عليه رده هو وقوعه تحت تأثير طه حسين وعجزه عن فهم أعماقه النفسية وله عذره بحكم السن، فقد ولد مع الثلاثينيات وعايش الفترة التي تألق فيها طه حسين في ظل حزب الوفد والجامعة والوزارة، وتأثر به لأكثر من عامل ربما من ناحية الحزبية وربما من ناحية الاعتقاد الذي عاش عليه جماعة من المثقفين بأن طه حسين هو الذي فتح لهم الطريق للتحرر من القيم الإسلامية التي يسخرون منها ويرونها من التقاليد البالية!

ويبدو أن الأستاذ أنور تحرج من أن يقول إن رجاء النقاش يساري، واليساريون يتبنون كل الأطروحات التي تصب في تشويه تاريخ الإسلام أو قيمه أو ثوابته أيًا كان صاحبها، وهو ما وجدوه عند طه حسين في عديد من كتبه وآرائه.

السخرية من الأمة

ويؤكد أنور الجندي أن طه حسين كان ساخرًا من الأمة وقيمها ودينها وتاريخها المضيء، وكان مراوغًا، يلعب بكل شيء، وقد كشف كثير ممن كتبوا عن هذه الخلة التي هي مفتاح حياته الأكبر وكل ما فيه من خُلال تبعٌ لها. فهو أشبه برجل ينصب للناس فخًا أو يحفر لهم حفرة في طريق ويختبئ لينظر حتى يقع فيه الناس فيضحك ويخرج لسانه ساخرًا، فإذا خوفته خاف وانطوى حتى يزول الخطر، فإذا زال الخطر عاد إلى سخريته وأفخاخه ومؤامراته.

لقد زيف قيم الأخلاق في الجامعة بين الأساتذة والطلاب، وبين الطلاب والمراجع، وأساليب البحث مما رواه تلاميذه وخاصة الدكتور نجيب البهبيتي. كما أفسد الحياة الجامعية ودفع الشباب والشابات إلى الاختلاط والفساد، وأقام الحفلات الراقصة في البيوت وسمح للأساتذة الأجانب بإقامة الندوات وتشكيك الطلاب في عقائدهم، وفتح أبواب الحرية إلى غايتها فكان لا ينجح ولا يفوز ولا

يتقدم إلا هؤلاء الأتباع المنافقون الذين يتزلفون إليه وينتظرونه على باب سيارته ويقبّلون يده ويكوّنون الخلايا الخطيرة التي تعمل للتغريب والغزو الثقافي.

إنه لا يتوقف عن السخرية من الأزهر ورجاله وكل صاحب خلق. وقد صرف من حوله ممن حافظوا على الأخلاق والقيم وأضرّهم وحجبهم عن المناصب والوظائف.

وهذه الصورة الحقيقية عن الدكتور طه غابت عن رجاء النقاش- كما يقول أنور الجندي- فراح يتحدث عنه كأنه زعيم أو علم أو بطل لا تجوز عليه الاتهامات والشبهات.

ويتابع أنور الجندي رصد سلبيات طه حسين الشخصية والعلمية والعامة - كما يراها - ليقنع رجاء النقاش أن صورة الرجل ليست كما يتصورها هو ورفاقه فالخطر كل الخطر أن تظل آراء طه حسين الزائفة والمسمومة تعمل عملها في الأجيال الجديدة. ولم يعد في الإمكان خداع هذه الأجيال بإمكان أن يكون المسلم ملحدًا ومؤمنًا أو مسلمًا وماركسيًّا في آن.

إن تقلبات طه حسين وتناقضاته وتحولاته وراء من يحميه أو يحقق له الشهرة تجعل إسقاط الهالة الزائفة من حوله أمرًا خلقيًّا كي لا تستمر خديعته للأجيال الجديدة، فالرجل- أي طه حسين صاحب هوى ومطامع ومصالح، ويحب فيبلغ غاية الحب، ويبغض فيبلغ غاية البغض، ويعبر عن هذه الحقيقة عشرات ممن عاشروه وخالطوه وتتلمذوا على يديه في مقدمتهم سكرتيره فريد شحاته الذي صاحبه أربعين عامًا، والدكتور إبراهيم اللبان والدكتور نجيب البهبيتي.

ثم إنه أقام فكره كله على التشكيك واللا أدرية والتساؤل وإثارة الشبهات ودون أن يقدم إجابة واحدة تملأ القلوب طمأنينة والنفوس رضا. ثم إنه كان بارعًا في الهجاء أشد براعة وبارعًا في المديح أشد براعة؛ فهو صاحب قلم مباع لكل من يفيد الرجل، وكان أكبر من أفادوه وأغدقوا عليه هم رجال التغريب؛ فله بهم روابط نسب ومصاهرة[1]..

(1) انظر السابق، ص ٢٣٦ - ٢٤١

تغيير المواقف

وفي سياق تغيير طه حسين لآرائه ومواقفه وخاصة ما يتعلق بالإسلام والإيمان، فإنه تجدر الإشارة إلى أن الدكتور محمد عمارة أصدر كتابًا بعنوان "طه حسين: من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام"، صدر أول مرة ملحقًا لمجلة الأزهر في عددها الصادر (شهر ذي القعدة ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م)، ثم صدر في طبعة أخرى عن دار الفكر، القاهرة، ٢٠١٥، اجتهد من خلاله في البرهنة على تراجع طه حسين عن أفكاره التي أثارت لغطًا كبيرًا وغضبًا عظيمًا؛ فذكر أنه في سنة ١٩٣٣ خاض بفروسية وشجاعة مبهرة، معركةً شرسة ضدَّ التنصير والمنصِّرين، فكتَب ستَّة مقالات ضدَّ زلزال التنصير، هي: "عدوان"، "هزل"، "حزم"، "فتنة"، "توفيق"، "تجن"، في صحيفة (كوكب الشرق)، وتوقف "عمارة عند ما أسماه "مرحلة الإياب الفكري الصريح والحاسم إلى أحضان العروبة والإسلام (١٩٥٢ - ١٩٦٠م)، وفيها ظهرت تحوُّلات فِكر طه حسين أكثر فأكثر نحو العروبة والإسلام، ومن أبرز هذه التحولات، تأكيدُه على حاكميَّة القرآن، والانتقال من الفِرعونيَّة إلى العروبة التي صاغَها الإسلام، - وزيارته لأرض الحجاز ١٩٥٥م، وما حصَل فيها من أجواء إيمانية. ووصيته أن يحفر على قبره الدُّعاءُ النبوي:

"اللهمَّ لك الحمد، أنت نور السَّموات والأرض ومَن فيهنَّ، ولك الحمد، أنت قيُّوم السموات والأرض، ولك الحمد، أنت ربُّ السموات والأرض ومن فيهنَّ، أنت الحقُّ، ووعدك الحقُّ، والجَنَّة حقٌّ، والنار حقٌّ، والساعة حقٌّ، والنبيُّون حقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وعليك توكلتُ، وبك آمنتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنتَ إلهي لا إله إلَّا أنتَ".

طه حسين أوّابًا

ولقي صدور الكتاب ترحيبًا لدى عديد من الإسلاميين، وكتب فهمي هويدي مقالًا بعنوان "طه حسين أوّابًا" يثني فيه على الكتاب وعلى تغيير موقف طه حسين، كما كتب الدكتور محمد عبد المطلب مقالًا نُشر في جريدة «الأهرام» يشيد أيضًا بكتاب د. عمارة، ويؤيده من خلال مرويات عن لسان د. مصطفى ناصف، مؤلف كتاب «طه حسين والتراث» الذي ذكر أن أحد الصحافيين سأل طه حسين: «ما الحدث أو الواقعة التي أسفت عليها أشد الأسف في مسيرتك الحياتية والثقافية؟»، فأجاب: «يوم أن ألقيت عمامتي في البحر».

أما الكتاب اليساريون وأشباههم فلم يرحبوا بصدور الكتاب، وقد أصدرت دار الهلال كتابًا بعنوان: «طه حسين.. لغو الصيف وجد الشتاء» للدكتور محمود الضبع، يُعدّ ردًّا على كتاب د. عمارة يؤكد أن طه حسين كان «حداثيًّا حقيقيًّا»؛ لأنه كان يدرك العلاقة بين الحاضر و«التراث»، وأن كتابات طه حسين تنتمي إلى الفكر المتحرر من الحدود الزمانية والمكانية والسياقات التاريخية (!).

وقال بعضهم: "إن ثمة «محاولة من قبل التيارات المتشددة (؟) لاختطاف طه حسين، وصبغه برداء إسلامي(؟)»، ولعل المقال الأخير الذي كتبه فهمي هويدي يأتي في هذا السياق، والذي حمل عنوانًا صادمًا (طه حسين أوّابًا)(؟)... فهناك محاولة عبثية من قبل أنصار التيار الإسلامي لإهالة التراب على المنجز التنويري الذي صنعه المفكر الدكتور طه حسين، وتصويره على أنه قد تراجع عن آرائه التقدمية في ما بعد لصالح الإسلاميات(!!)"، وكأن الإسلاميات- أو الإسلام بالأحرى - شرٌّ وبيلٌ يجب التخلص منه وفقًا لإرادة اليساريين وأشباههم[1]..

(١) انظر: جريدة الشرق الأوسط، لندن، العدد١٣١٢٧، الخميس ١٣ محرم ١٤٣٦ هـ = ٦ نوفمبر ٢٠١٤م

تحطيم الالتزام الإسلامي

ويمكن القول إن الدفاع عن طه حسين وصورته شبه المقدسة من جانب اليساريين وأشباههم؛ ظل حتى يومنا هذا، وما زال، ليس حبًّا فيه - كما أرى - بقدر ما هو رغبة في تحطيم الالتزام الإسلامي والاستهانة به واستباحة قيم الشريعة الغراء، ثم التماهي مع الثقافة الغربية بشرها دون خيرها.

وعلى سبيل المثال فقد ظل رجاء النقاش يدافع عن الرجل حتى قبيل رحيله، ويلتمس كل مناسبة ليثبت أنه خلو من العيوب، وأنه فوق الانتقادات والقصور. ففي مقالة له بالأهرام أول مايو ٢٠٠٥ تحت عنوان: "هل قام طه حسين بتقبيل يد الملك فاروق؟" يعلن أنها وقفة أخيرة مع الاتهامات الموجهة إلى طه حسين من أعدائه والمختلفين معه والذين لا يثقون به ويعتبرونه مفكرًا مطعونًا في وطنيته، بل ومطعونًا في دينه وعقيدته. ويرى أنه يتحدث عن طه حسين الرمز الذي يمثّل هذه القبيلة من الذين يجاهدون على ساحة الآداب والفنون والأفكار ويتحملون في سبيل ذلك أهوالًا وصعوبات. كما يرى أن الدفاع الآن عن طه حسين لا يفيده في شيء، بل إنه يفيدنا نحن. فقد حقق طه حسين لنفسه مكانة رفيعة في عصره وبين أهله، والدفاع عنه دفاع عن كل الأحرار في كل مكان وفي أي محنة يتعرضون لها ويعانون منها. ولا يعني ذلك أنه أصبح في نظرنا من المقدسين، ثم يعترف رجاء النقاش أن طه حسين ليس قديسًا، وله مثلما لغيره أخطاء وهفوات، وأحيانًا سقطات، ولكنها كلها لا تمس طه حسين الذي ندافع عنه؛ لأنه هو الرمز الحي لكل مفكر يجاهد من أجل التقدم والنهضة وكرامة الإنسان(؟).

نموذج حي للتنازل

وينتقل رجاء إلى موقف طه حسين من الملك فاروق. إنه كما يقول: نموذج حي للتنازل من أجل مقابل عام له قيمته وأهميته. فالأستاذ أنور الجندي رحمة الله عليه، وهو رجل فاضل وعالم مجتهد، رغم اختلافنا معه واعتراضنا على

بعض أفكاره؛ أقول: إن أنور الجندي في كتابه عن "طه حسين.. حياته وفكره في ميزان الإسلام" يشير إلي أن طه حسين قام بتقبيل يد الملك فاروق بعد تعيينه وزيرًا للمعارف سنة ١٩٥٠، ثم إن طه حسين خطب للملك فاروق ومدحه مدحًا شديدًا في مناسبات عديدة! وقد استدل أنور الجندي على حكاية تقبيل طه حسين ليد الملك فاروق بما شهد به اثنان من الشهود في محكمة الثورة التي تم تشكيلها في١٥ سبتمبر سنة١٩٥٣. ولكن أنور الجندي لم يذكر اسم الشاهدين، ولم أستطع أنا الوصول إلى الاسمين في حدود ما رجعت إليه من مصادر حول محكمة الثورة[1]..

ومن البداية فإن التهمة الملصقة بطه حسين لا يمكن أن يقبلها العقل، فقد كان طه حسين عندما تولى وزارة المعارف في١٢ يناير سنة١٩٥٠ في قمة شهرته ومكانته الأدبية والشعبية، ولم يكن تعيينه في وزارة المعارف يزيد من قدره أو يرفع من شأنه، بل العكس هو الصحيح، أي أن طه حسين كان هو الذي يرفع شأن الوزارة ويعطيها قيمة فوق قيمتها العادية. (هل الشهرة مقياس للصواب؟).

ولقد سمع طه حسين في حياته مثل هذه الاتهامات التي تتصل بموقفه من الملك فاروق، ولم يسكت طه حسين، ولكنه دافع عن نفسه بقوة وصدق. وفي مقال نشرته له مجلة روز اليوسف بتاريخ٢٩ مارس١٩٥٤ يقول طه حسين:

أي من المصريين يجهل أني كنت وزيرًا للمعارف في يوم من الأيام، وأني خطبت أمام فاروق في مواقف لم يكن بد من أن أخطب فيها حين وضع الحجر الأساسي لجامعة الإسكندرية ومعهد الصحراء. والناس جميعًا يعلمون أن الوزراء ما كانوا ليخطبوا أمام فاروق فيعيبوه ويذموه ويدلوا على ما كان يتورط فيه من

(١) تحدث طه حسين عن الشاهدين دون أن يذكر اسميهما وهو يدافع عن نفسه في النص الذي أورده رجاء النقاش فيما يلي من مقاله

طغيان وما كان يقترف من آثام، وإنما جرت عادة الوزراء حين يتحدثون إلى الملوك أن يتحدثوا بشيء غير هذا.

الجوع والصمت

ثم يقول طه حسين بعد ذلك: أنا لم أكسب لنفسي من فاروق مالًا ولا جاهًا، فقد كنت غنيًّا عن ماله وجاهه، وإنما كسبت لمصر ما نفع أهلها في حياتهم الداخلية فأباح لهم التعليم ويسر لهم أموره، وما نفع مصر في العالم الخارجي فأنشأ لها معهدًا في مدريد، وكرسيًّا لثقافة البحر المتوسط في نيس وكرسيًّا للغة العربية في جامعة أثينا.

ثم يقول طه حسين مخاطبًا رئيس تحرير روز اليوسف ومخاطبًا كل مواطن آخر. وإنك لتذكر أن أباه الملك فؤاد أخرجني من الجامعة سنة١٩٣٢ وأراد أن يضطرني إلى الجوع فلم يفلح، وأراد أن يضطرني إلى الصمت فلم يفلح أيضًا. وإنك لتذكر أن فاروقَ أخرجني من وزارة المعارف حين أنزل حكومة الوفد عن السلطان سنة أربع وأربعين(١٩٤٤)، وأراد أن يضطرني إلى الجوع والصمت فلم يبلغ إلى ما أراد شيئًا؛ لأن الله هو الذي يرزق الناس على رغم الملوك والحكام؛ ولأن الله هو الذي يمنح الناس من صدق العزم وقوة الإرادة ما يمكنهم من أن يثبتوا للخطوب ويخرجوا من الكوارث والنائبات مهما يبلغ بها التعقيد. وهناك أشياء لا تعلمها أنت ولا يعلمها الناس، وإنما يعرفها أفراد قليلون منهم من قضى نحبه ومنهم من لا يزال حيًّا أرجو له طول البقاء. أنت لا تعلم أن فاروقَ أرسل إليّ الرسل بالمغريات سنة خمس وأربعين١٩٤٥ فلم يجد إلى إغرائي سبيلًا، وإنما رددت رسله ردًّا رفيقًا كريمًا فيه كثير من ارتفاع عن الصغائر، ولو شئت لبلغت من فاروق وسلطانه وماله وجاهه ما أردت، ولكني لم أرد، لأني رأيت الكرامة والوفاء والصدق في خدمة الوطن أغلى من المال والجاه والسلطان.

تقبيل يد الملك

ثم يتحدث طه حسين عن حكاية تقبيل يد الملك فاروق فيقول: والشيء بالشيء يذكر، فقد شهد شاهدان أمام محكمة الثورة بأني قمت مع غيري من الوزراء بتقبيل يد فاروق، والله يشهد ما قبلت يد فاروق ولا يد أبيه ولا يد عمه السلطان حسين ولا يد ابن عمه عباس حلمي الثاني حين كان أميرًا لمصر، ولا يد ملك من الملوك الذين لقيتهم قط، والله يشهد أنني ما قمت بتقبيل يد أحد من الناس إلا أن تكون يد أبوي أو يد بعض شيوخنا في الأزهر رحمهم الله، لا أستثني يد سيدة أجنبية كانت ترفع يدها إذا لقيتني في بعض المحافل فتلصقها بشفتي إلصاقًا.. وأضحك من ذلك إن شئت، وأعبث به إن أحببت، فليس عليك في الضحك والعبث جناح".

ثم يختتم رجاء مقاله بالقول:

هذا بعض ما قاله طه حسين في الدفاع عن نفسه. فهل لديك مانع من تصديقه والثقة بأن ما يقوله هو الحقيقة؟.. أنا شخصيًّا أصدق طه حسين، وأرى أنه كان في أدبه وحياته كلها من الكبار، وكان من أصحاب الكرامة والكبرياء، وهؤلاء لا يكذبون، ولا يتقبلون الكذب من أحد.

سؤال وإجابة

وقد يكون رجاء النقاش على صواب في بعض النقاط أو لا يكون، وهناك غيره من دافعوا عن طه حسين دفاعًا مستميتًا وأيدوا آراءه المثيرة وأفكاره الخاطئة وخاصة ما جاء بكتابه "في الشعر الجاهلي" وعلاقته بالصهيونية، فضلًا عمّن رأوا أنه تراجع عن آرائه وغيّر من أفكاره وخاصة ما يتعلق بالإسلام. فما هو موقف أنور الجندي من كل هذا؟

لقد رد على التعقيبات التي ظهرت بعد صدور كتابه كما سبقت الإشارة، وراح يجيب عن السؤال:

هل غيَّر طه حسين آراءه في السنوات الأخيرة من حياته؟

لقد أجاب عن هذا السؤال وكرر الإجابة في أكثر من كتاب من كتبه، وربما كانت الإجابة المفصلة هي التي حملتها إحدى رسائله، وأهم ما جاء فيها:

إن الدفاع عن طه حسين من بعض عارفيه ومريديه وكل من كان له عليهم فضل أو لهم به صلة، هو من حقهم.. ولكن المعادلة الصعبة هي أن المسئولية الأخلاقية أمام الأجيال هي أكبر بكثير من العاطفة الفردية والهوى الشخصي.

إن هؤلاء القوم ما كادوا يرون هذه الصورة التي كشفت حقيقة طه حسين تنشر على الناس حتى بادروا إلى الدفاع عنه بالقول:

- لقد غيَّر الدكتور طه حسين آراءه في آخر حياته.
- لقد تراجع الدكتور طه حسين عن أخطر آرائه.

والقصة تسمعها من الكثيرين.. ولكن هل هي صحيحة حقًّا؟

خداع ومكر

الواقع أن هناك ما يمكن أن يقوله هؤلاء: أن الدكتور طه كتب "على هامش السيرة" وبه كفّر عن "الشعر الجاهلي"، وكتب كتابه "الشيخان" عن أبي بكر وعمر.. وبه كفّر عن "مستقبل الثقافة".

وذلك كله خداع وباطل.. فإن الدكتور طه لم يغير من آرائه مطلقًا؛ لأنه كما يقول الدكتور محمد نجيب البهبيتي: كان له حارس وديدبان يحول بينه وبين ذلك (يقصد زوجه الفرنسية).. هذا الحارس مقيم في بيته يلفت نظره دائمًا إلى الخط المتفق عليه. ولكن الدكتور طه حسين غيّر أساليبه ووسائله في سبيل أن يصل إلى قلب القارئ المسلم. وبعد أن كانت أساليبه هي الهجوم على الإسلام أصبحت

تقوم على ترضّي الإسلام داخليًا ودسّ السم على مراحل خلال البحث، ولا يقل السمّ المدسوس في كتاب "الشيخان" عن السم المدسوس في "هامش السيرة" أو في "الشعر الجاهلي" ولكن القوم لا يعلمون وسائل إخفاء الشبهات.

إن الذي يتردد على الألسنة هو: أن كثيرًا من أصدقاء طه حسين واجهوه برأيهم في "الشعر الجاهلي" أو "هامش السيرة" أو "مستقبل الثقافة" فقال لهم: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما كتبت الشعر الجاهلي" أو قوله: "اكتم عني" أو قوله للسفير المسلم أحمد رمزي عن كتاب مستقبل الثقافة: "إنني متفق معك على أن في الكتاب أخطاء كثيرة".

ذلك هو أسلوب طه حسين المرن الماكر الخادع الذي لا يواجه بالمعارضة أو الهجوم، ولكنه يلين حيث يرى أن صاحبه واع لسمومه، فإذا وجد من يجهل لم يمتنع عن خداعه. وقصته مع اللواء محمود شيت خطاب معروفة. فقد قال في آخر أيامه أن القرآن كان غير منقوط فكان يُقرأ على قراءات مختلفة ففي آية: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا" كانت تقرأ فتثبتوا" فردَّه محمود شيت خطاب وقال له: هذا كلام أعداء الإسلام.

أدلة كثيرة

أما القول بالتراجع فإن هناك من الأدلة الكثير الذي يكذبه:

أولاً: أن أسلوب التراجع معروف، وهو أن يعلن الكاتب أنه كان يقول بكذا ثم تبين له سوى ذلك، وأن يوقف على الفور ما له من مؤلفات في هذا الصدد.

ثانيًا: أن يعلن أنه اتخذ هذا الأسلوب كوسيلة للعمل ثم تبين له أنه لا ينتج وأنه تحول عنه.

ومثل الحالة الأولى الإمام الأشعري، ومثل الحالة الثانية الدكتور محمد حسين هيكل.

فهل تراجع طه حسين حقًّا عن رأي من آرائه وهو حي، وأعلن ذلك. ذلك ما لم يحدث. وهل يكفي أن يتراجع طه حسين عن رأي أو آخر في مساره خاصة مع صديق، دون أن يوقف هذا الرأي عن الذيوع والانتشار؟! إن ذلك لا يكفي، بل إن هذا يؤكد إصرار الدكتور طه على الرأي وحرصه على أن يذيعه في الناس فيفسد به مزيدًا من العقول والقلوب. ولقد أشار كثيرون إلى وقائع الدكتور أحمد الحوفي والسيد محمد بهجت الأثري، وسعيد الأفغاني، ولكن هل توقف طه حسين عن آرائه، هل حدَّث تلاميذه بشيء من هذا التراجع، إن ذلك الأمر ظل قاصرًا على مسمع عدد قليل من أصدقائه.

هذا شيء. وهناك شيء آخر، أن بعض مقالات الدكتور طه التي نشرها في أول الشباب وفيها آراؤه الجارحة قد عاد فجمعها في مؤلفات صدرت في آخر حياته. وهذا يعني إصراره على تلك الآراء وأنه لم يتنازل عنها.

مؤامرة فاشلة

أما القول بأن كتبه "على هامش السيرة" أو "الفتنة الكبرى" أو "الشيخان" هي تراجع عن آرائه السابقة وتحول إلى الإسلام؛ فذلك قول ساذج، وقد فندنا ذلك في كتابنا عن طه حسين. ونضيف بأنه كانت هناك مؤامرة وفشلت. هذه المؤامرة كانت ترمي إلى تنصيب الدكتور طه (إمامًا للإسلام) وقد غضب القوم عندما هاجم الإسلام بعنف في المرحلة الأولى، وطلبوا إليه أن يدخل الإسلام من باب آخر حتى يمكن أن تكون آراؤه حجة على المسلمين من بعد في فتوى ضالة على النحو الذي حاول أن يتحدث به في مؤتمر الحوار بين الإسلام والمسيحية، وهو حوار مشبوه، ولكن آراء طه حسين التي قدمها في هذا المؤتمر لم تلبث أن أصبحت حجة من بعد ووصفت بأنها مبادرة طيبة ومقدمة لما قام به البعض بعد ذلك في طريق محفوف بالمخاطر والشبهات.

وكانت الخطة أن يعود طه حسين إلى الإسلام في ضجة ضخمة، واختاروا لها وسيلة وخطة:

أما الوسيلة فهي كتابه "على هامش السيرة"، أما الخطة فهي الانضواء تحت لواء حزب الأغلبية (الوفد) لتكون قدرة طه ونفوذه أقوى في تحقيق الأهداف المرسومة. ولقد خدع كتاب هامش السيرة كثيرين وظنوا أنها دعوة حارة إلى الدين، وخفي عليهم جانب السخرية والتهكم الواضح فيه، والذي كشفه الرافعي منذ اللحظة الأولى.

أما "الفتنة الكبرى" فإنه محاولة جريئة لتبرئة اليهود من فتنة (عبد الله بن سبأ) وهي فتنة جذور عميقة في تاريخ الإسلام، فأراد طه حسين أن يخدم اليهودية العالمية بعمل آخر مضاف إلى قولته في إبراهيم وإسماعيل، وفي كتابته عن قضية اليهود في ألمانيا وأوروبا، ويتصل ذلك بإصدار مجلة الكاتب المصري ومحاضراته في الدور الإسرائيلية في القاهرة والإسكندرية.

وهناك الوثيقة التي تدحض كل الشبهات وهي حديثه مع مجلة الاثنين التي كانت تصدرها دار الهلال. والاتهام موجه فيها صراحة إلى الدكتور.

وإذا كانت هناك محاولة لتبرئة الدكتور من آرائه القديمة فإننا نقبل بأي نص صحيح يكون فيه الدكتور طه قد تراجع عن رأي من هذه الآراء الخطيرة التي قدمها خلال حياته ومن خلال كتبه وآثاره.

وفي هذا رد على محاولة البعض بالقول بأن طه حسين صحيح العقيدة.

وهذه هي الوثائق:

رأيه في الدين:

١ - إن الدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء ويأخذ الناس بالإيمان بهما يثبت أمرين لم يستطع العلم أن يثبتهما. فالعلم لم يصل بعد إلى إثبات وجود الله ولم يصل بعد إلى إثبات نبوة الأنبياء.

٢ - إن العلم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وكما ينظر إلى الفقه، وكما ينظر إلى اللباس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتتبع الجماعة في تطورها بما تتأثر به الجماعة.

إذًا فالدين في نظر العلم الحديث ظاهرة كغيره من الظواهر، لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحي وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها.

"وهذه آراء الفيلسوف اليهودي دور كايم".

رأيه في القرآن:

لاشك أن الباحث الناقد والمفكر الحر الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب ديني آخر يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين لا يربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثير بيئات متباينة.. فمثلًا نرى القسم المكي فيه يمتاز بكل ميزات الأوساط المنحطة، كما نشاهد أن القسم المدني اليثربي تلوح عليه إمارات الثقافة والاستنارة. وإذا دققتم النظر وجدتم القسم المكي ينفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد، ويمتاز كذلك بتقطيع الفكرة واقتضاب المعاني وقصر الآيات والخلو التام من التشريع والقوانين، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة التي تشبه بيئة مكة تأخرًا وانحطاطًا، أما القسم المدني فهو وديع لين مسالم يقابل السوء

بالحسنى ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين، كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات، ولاشك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن.

"وهذه آراء الفيلسوف اليهودي جولدزيهر".

رأيه في الرسول ﷺ:

ونوع آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه من قريش، فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون من صفوة بني هاشم، وأن تكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف، وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بني قصي، وأن تكون قصي صفوة قريش، وقريش صفوة مضر، ومضر صفوة عدنان، وعدنان صفوة العرب، والعرب صفوة الإنسانية.

"وهذه آراء الفيلسوف اليهودي مرجليوث".

هذه هي آراء طه حسين موجزة في الإسلام والقرآن والنبي، فهل غيَّرها؟".

الواقع أنه ليس هناك دليل من كتاباته الأخيرة أو آثاره من نص يمكن أن يدل على تغير هذه النظرة، بل إن كل الكتابات توحي بأنها أساس لفكرته عن الإسلام ومفهومه له[1]..

(1) انظر: أنور الجندي، هل غيَّر الدكتور طه حسين آراءه في سنواته الأخيرة. في دائرة الضوء - رسالة (٥)، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت، طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام، ص ٢٤٧ وما بعدها، محاكمة فكر طه حسين، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٢٦٨ - ٢٧٦

زلزال كبير

ومن المؤكد أن أنور الجندي أثار بكتاباته عن طه حسين زلزالًا كبيرًا في الحياة الثقافية العربية، وكان لهذا الزلزال صداه في كثير من النفوس والمواقع؛ لأنه حرر الثقافة من فكرة عبادة الرموز وتقديسها، وفتح المجال أمام قراءة الشخصيات القائمة في الحياة الأدبية قراءة علمية تنزع عنها هالة القداسة وتخضعها للمراجعة والتقويم على ضوء النقد الجاد والأسس الموضوعية.

لقد اجتهد أنور الجندي في قراءة طه حسين وجمع كثيرًا من الوثائق والشواهد التي تعزز كثيرًا مما ذهب إليه بشأن الرجل، وخاصة ما يرتبط بعلاقته بالعقيدة والهوية، وإذا أضفنا إلى ذلك تقويمه لكثير من الكتاب والأدباء الذين تصدروا المشهد الثقافي في العصر الحديث عبر عشرات الكتب والرسائل التي أصدرها، فإنه يكون قد أسهم إسهامًا كبيرًا في خلق حالة من التوازن الفكري أمام شبه التقديس أو الإحاطة بهالة من التقدير لرموز التغريب تحجبهم عن التناول الموضوعي والعلمي. فهم في كل الأحوال بشر يصيبون ويخطئون، وقد يتراجع بعضهم عن خطئه أو يتمادى فيه، وهنا يكون التناول القائم على الوثائق والأسس العلمية أمرًا لا مفر منه يفيد الحقل الثقافي، ويجعل الأجيال الجديدة على بينة من طبيعة الرموز التي تتلقى عنها أو تعجب بها.

يمكن القول إنه قد تم تحرير الواقع الثقافي من الخضوع لرموز شبه مقدسة أو أصنام يراد من الناس عبادتها من دون الله. وذلك بفضل الجهد المخلص الذي بذله أنور الجندي وتحمل في سبيله التهميش والإقصاء والأذى!

***

رابعًا: تصحيح المفاهيم

خطوة أساسية

انشغل أنور الجندي في معظم كتاباته بتصحيح المفاهيم التي شوّهها المغرضون، والأحداث التي زيفها أعداء الإسلام وخصومه، سواء كانت هذه المفاهيم والأحداث عقدية أو فكرية أو شخصية أو ثقافية بوجه عام.

وقد عرضنا في الفصل الثاني بإيجاز لكتاب أنور الجندي "تصحيح المفاهيم في ضوء الكتاب والسنة"، وتناول فيه المفاهيم الصحيحة والمفاهيم الخاطئة، مما يدل على اهتمام الرجل بموضوع المفاهيم في حركة الفكر بصفة عامة، وحركة الإسلام والدعوة إليه بصفة خاصة.

تصحيح المفاهيم والوقائع خطوة أساسية في نهضة الأمة وبناء المستقبل، وشيوع المفاهيم الخاطئة والأحداث المزيفة يقود إلى صراعات ومتاعب تستنزف كثيرًا من الجهود والإمكانات والوقت، وتحسب سلبًا بالخصم من رصيد الأمة وثرواتها المادية والمعنوية.

ولا ريب أن الأمة شهدت منذ مطالع النهضة الحديثة كثيرًا من المتاعب والآلام بسبب المفاهيم الخاطئة والأحداث الزائفة التي أشاعها أعداء الأمة وأبناؤها الجاهلون بدينها وعقيدتها وتراثها.

ولا ريب أن معظم المفاهيم الخاطئة كانت نتيجة لعملية التغريب التي جاءت على قدم وساق بفعل الهيمنة الاستعمارية على الأوطان الإسلامية وخاصة مصر

التي تعد قلب الأمة وعقل الإسلام، وحققت وجودًا ملحوظًا في التعليم والثقافة والصحافة والإعلام والأدب وغير ذلك من عناصر تخاطب العقل والوجدان، وكان الترويج للعلمانية من أخطر هذه المفاهيم كما جاء في فصل سابق من هذا الكتاب؛ حيث يتم الفصل بين الإسلام والمجتمع أو الدين والدولة أو إقصاء الإسلام عن حياة المسلمين وتفكيرهم وسلوكهم، مما يخلق بيئة حاضنة لنمو المفاهيم الخاطئة حول الإسلام والتفكير العلمي والعلاقة بين المسلم وماضيه وحاضره ومستقبله.

الغاية المستقيمة

وفي هذا الإطار يبدو التدليس أو التضليل واضحًا في طرح بعض المفاهيم لغير ما وضعت له أو استغلالها لتحويل وجهة المسلم عن الغاية المستقيمة.

يقول أنور الجندي مبينًا كيف تستغل قيم الإسلام في تسويغ إحلال القيم الغربية محل القيم الإسلامية:

"إن أخطر المحاولات التي تحتاج إلى الانتباه الوافر: هي محاولة وضع الإنسان في موضع تبرير القيم الغربية باسم سماحة الإسلام وانفتاحه وقابليته للجديد ومسايرته لظروف الأمم والحضارات، ولا ريب أن للإسلام قواعد كلية لا سبيل إلى النزول عنها وخاصة في مسائل الربا والحدود وعلاقة الرجل والمرأة وعلاقة الأسرة بالمجتمع، كذلك فللإسلام أصول ثابتة في المعاملات. كل ذلك ليس موضع التبرير أو التأويل؛ لأنه هو الدعامة الصحيحة للمجتمع الإسلامي، أما فيما عدا ذلك فإن هناك محاولات للاجتهاد، هذا فضلًا عن سعة الأطر ومرونتها التي تجعلها كفيلة بالصلاحية لكل البيئات والعصور"[1]..

(1) أنور الجندي، تصحيح المفاهيم الإسلامية، سلسة في دائرة الضوء، رقم ١٣، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص ١٥

ثغرة خطيرة

إن استغلال سماحة الإسلام للإساءة إلى الإسلام ثغرة خطيرة استغلها التغريب للنفاذ إلى القيم والمعتقدات الإسلامية، وكانت أكبر عوامل التزييف على الساحة الفكرية تتمثل في عرض القضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من خلال وجهة نظر رأسمالية أو ماركسية أو اشتراكية غربية، مع تجاهل شديد، وتآمر صامت على وجهة النظر الإسلامية الأصيلة التي تنتمي إلى الأمة وقيمها وتراثها ومجتمعها.

ففي الجامعات مثلًا تدرس القضايا الاقتصادية والسياسية وعلوم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والأدب من خلال الرأسمالية أو الماركسية أو النظريات الوافدة عمومًا، تلك التي جاءتنا مع النفوذ الغربي، دون أن تجد صدى في دراستها للمفاهيم الإسلامية التي أقامت حضارة باذخة امتدت على مدى خمسة عشر قرنًا في المجالات الإنسانية كافة، وعلى أساسها قامت الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة.

إن أتباع الماركسية وأشباههم يهيمنون اليوم على المؤتمرات والندوات التي تتعرض لما يسمى "التراث والفكر السياسي" لينشروا مفاهيمهم المسمومة ويتعرضوا للإسلام في استهانة واضحة.

إقصاء وجهة النظر الإسلامية

لقد صارت الهيمنة العلمانية على وسائط التعبير والنشر شبه كاملة، ومن خلال هذه الهيمنة يتم إقصاء وجهة النظر الإسلامية بكل خشونة ووحشية، تحت دعاوى أن أصحابها يوصفون بالتطرف أو الإرهاب أو التخلف أو الظلامية ونحوها. ويحاولون تجميل موقفهم المنحرف والمعادي للحرية وهوية الأمة الإسلامية بالحديث عن العروبة والوطنية والتقدمية والتنوير وغيرها، مع السخرية من القيم الإسلامية ومحاولة تحطيمها.

وإلى جانب ذلك يتم الترويج لدراسات تزيّف التاريخ بهدف إلغاء الدور الإسلامي للعرب وغيرهم، وعلى سبيل المثال تذاع من المحطات المعادية عروضٌ لكتاب صبحي وحيدة (في أصول المسألة المصرية)، في محاولة لإعطاء مصر دورًا متميزًا في مواجهة التتار ووصف هذا الجهد بأنه في سبيل العرب. وذلك ليس صحيحًا لأن مصر كانت تدافع عن المنطقة باسم الإسلام وليس لحساب العرب، ثم إن الذين قادوا الجهاد ضد التتار لم يكونوا من العرب أساسًا، بل كانوا مسلمين ويتحركون بمنهج الإسلام وبدافع منه. إنها محاولة خلق المغالطة، التي تقوم على التدليس والتضليل لإبعاد الإسلام عن مركز الحركة والتصور.

مؤسسات خطيرة

ويرى أنور الجندي أن هناك أربع مؤسسات خطيرة استحوذ عليها النفوذ الأجنبي من أجل تغريب الفكر الإسلامي وإثارة الشبهات حوله وضرب الأمة الإسلامية في مقاتلها وتشويه خطواتها نحو تحرير وجهتها وامتلاك إرادتها. وهذه المؤسسات هي:

١ - الاستشراق: المؤسسة الصانعة لكل السموم والشبهات.

٢ - المدرسة عن طريق التعليم.

٣ - المدرسة الموازية عن طريق وسائل الاتصال والتسلية.

٤ - الصحافة بسمومها المبثوثة يوميًا في الخبر والقصة والصورة[1]..

مفاهيم خاطئة

وهناك مجموعة من المحاذير أو المفاهيم الخاطئة التي يحذر منها أنور الجندي يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولا: الدعوة إلى نبذ الماضي والتاريخ والتراث تحت لافتة نبذ "القديم". وهذه الدعوة الغامضة محاولة لهدم الإسلام، في الوقت الذي يدعون فيها إلى إحياء الماضي الوثني والجاهلي السابق على الإسلام الذي تلاشى تمامًا.

(1) أنور الجندي، عقبات في طريق النهضة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص ١٢٢ وما بعدها

ثانيًا: مهاجمة الفصاحة العربية والخطابة والشعر العربي، وإحياء العاميات في عملية استهداف للبيان القرآني لينفصل المسلمون عن القرآن وفهمه.

ثالثًا: مفهوم البطولة الإسلامية لا يستمد من نظريات لامبروزو أو فرويد أو إميل لودفيج، ولكن وجوده الحقيقي يأتي من أثر العقيدة الإسلامية التي تربي عليها الأبطال، وتقدير البطولة يرتبط بالعمل الصالح والجهاد المشروع، وليس الحرب من أجل امرأة كما في إلياذة هوميروس على سبيل المثال. إنها بطولة تخليد الأعمال وليس تقديس الأشخاص.

رابعًا: الصراع بين العلم والدين لا وجود له في الإسلام، ولكنه في معتقدات أخرى، وتاريخنا الإسلامي لم يعرف مثل هذا الصراع.

خامسًا: نشر العلوم والثقافات ليس بديلًا عن التربية والتهذيب الخلقي كما يروِّج بعضهم، فالعلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولكي يتحقق استخدامه استخدامًا صحيحًا فلا بد أن يتم ذلك في إطار الأخلاق ومن أجل الخير العام وعمارة الأرض وتقوى الله.

سادسًا: لا يجوز فصل الفكر العربي المعاصر ولا الأدب العربي المعاصر عن الدين والتراث والتاريخ والأصول والجذور. فالفكر الغربي المعاصر لم ينفصل عن جذوره اليونانية والهلينية والمسيحية الغربية. والفكر الغربي يعلن أنه لا يفهم فهمًا صحيحًا إلا إذا فهمت الإغريقية واللاتينية.

سابعًا: القول بأن كل دين قابل للتطور وملاءمة العصور لا ينطبق على الإسلام؛ لأن الفكر البشري وحده هو الذي يتطور ويطوره أهله ليوافق العصور والأزمان. أما الدين الإلهي فقد أقامه الخالق جل وعلا في إحكام وتقدير، وجعله قادرًا على مواجهة المجتمعات والعصور، وفيه سعة ومرونة قابلة للحركة والتجدد. والشرائع والأخلاق الإسلامية ثابتة وليست نسبية.

ثامنًا: فرّق الإسلام بين الأخلاق من ناحية، والتقاليد والعادات من ناحية أخرى. الأخلاق هي القيم التي رسمها الإسلام وهي راسخة لا تتحول ولا تتغير (الخير والشر والحق والباطل)، أما العادات والتقاليد فهي من صناعة المجتمع، ويحاول الغزاة رفعها إلى مكان القداسة لتطغى على الأخلاق والقيم الإسلامية.

تاسعًا: الموت ليس نهاية الحياة كما يزعم بعضهم، وهذا الزعم مريب ويثير الشك في النفس، فكيف ينتهي العالم دون أن يفصل في أمره أو تكشف حقائقه؟ إن مفهوم المسئولية الفردية يترتب عليه الحساب والجزاء، ومن ثم فإقرار البعث والحياة الحياة الآخرة مطابق للفطرة، ولا يشكل تناقضًا عقليًا "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ" (المؤمنون: ١١٥).

ولا يقلل كون الحياة معْبرًا إلى الآخرة من هدف بنائها وتحسينها وجعلها أكثر أصالة وعمقًا، في إطار الاتجاه إلى الله وتقدير المسئولية الفردية والرضا بقضاء الله في النتائج.

عاشرًا: ليس الوحي انطباعًا في نفس النبي محمد- ﷺ- فهناك فارق عميق وواضح بين نظم القرآن وكلام النبي، ولنحذر خطأ القول إن القرآن فيض العقل الباطن وليس وحيًا إلهيًا حتى ليقول بعضهم: أليس الأفضل الإشادة بعبقرية محمد وألمعيته وصفاء نفسه بنسبة القرآن إليه، كلا، ولا داعي لهذه الإشادة الزائفة، فإن الله تبارك وتعالى قد أشاد بما لا تستطيع البشرية كلها أن تقوله حين أعلن أنه عبده ورسوله، وأنه بشر يوحى إليه.

حادي عشر: تمثل دعوى أن كل إنسان حر، يرفض النصيحة أو وجهة النظر الأخرى أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ خطرًا كبيرًا يحطم الرابطة الأصيلة بين الأجيال ويشعل الصراع بينها ويدفع الأجيال الجديدة إلى التمرد على القيم

الأساسية للمجتمعات. فالدعوة لا تكون إلى متابعة الناس بقدر ما تكون إلى التماس مفاهيم الدين الحق والأخلاق الثابتة. إن الشباب وهو يحمل أمانة الغد يجب أن يُبنى على الأساس الصالح، ويتحرز من أخطاء السابقين، ويستمد التجربة والمثل الأعلى والأسوة الحسنة من النموذج الأكبر: محمد - ﷺ- قدوة الأجيال والأمم.

ثاني عشر: تعد دعوى الكبت التي يروِّج لها فرويد متعارضة مع فكرة المجاهدة في المفهوم الإسلامي وخطرًا كبيرًا. فالكبت يقوم على إنكار الرغبات واحتقارها وعدم الاعتراف بها، بينما يعترف الإسلام بالرغبات النفسية والحسية والجنسية اعترافًا كاملًا. ولكنه ينظمها، ويؤخرها عن طريق المجاهدة حتى تتوفر لها الإمكانات المادية التي تحققها.

الكبت يؤدي إلى العصاب بسبب الإنكار والاحتقار، أما الاعتراف مع التأجيل مؤقتًا فذلك مما تقبله الطبيعة البشرية وترضاه. وقد أثبتت التجارب أن النفس الإنسانية قابلة للتوجيه والتحذير والعقوبة دون أن يحدث لها ما يسمى بمركبات النقص أو غيرها.

إن خالق النفس البشرية قادر على حمايتها وحفظها بما يضع لها من تعاليم ومفاهيم، وهي ليست شاقة أو عسيرة أو مضرة كما تبالغ الفلسفات الأرضية التي تسعى إلى تخريب المجتمعات وتفكيكها قبل السيطرة عليها.

ثالث عشر: لا ريب أن الدعوات الصهيونية العالمية إلى الجنس وعدم الخجل من الأعضاء التناسلية تنذر بخطر عظيم. فقد هاجمت الصهيونية التلمودية الآداب الدينية المسيحية وفرضت العلمانية حتى يتعلم الشباب في طفولتهم أسس دعوات الجنس والانحلال، ونقل هذا إلى مجتمعاتنا الإسلامية يهدم صلابة الشباب الذي يحمل أمانة الغد وإسقاط الأسرة التي هي ركيزة الأساسية للمجتمع[1]..

(1) أنور الجندي، تصحيح المفاهيم الإسلامية، ص ١٦ - ٢٢

معلمة الإسلام

لقد أنشأ أنور الجندي معلمة الإسلام لتصب في نهر تصحيح المفاهيم، والمعلمة أو المعجم أو دائرة المعارف تضم مجموعة من المصطلحات أو المواد المراد تعريف القراء بها في طبيعتها الحقيقية وصورتها الصادقة، وقد جاءت معلمة أنور الجندي لتربط بين الأصالة والمعاصرة في ضوء الإسلام من خلال ٩٩ مادة أو مصطلحًا في مختلف أبواب الشريعة والأخلاق والتربية والاجتماع والاقتصاد والنفس والثقافة والحضارة والعلم والفن والتاريخ واللغة والسياسة والفلسفة ومقارنة الأديان، ومن هذه المواد الإسلام والتوحيد والنبوة والقرآن والدين والإنسان (روح وجسد) والإنسان (إرادة وحرية) والإنسان (عقل وقلب) والإنسان (حياة وموت) والنفس وعلم النفس (الفرويدية) والجنس، الوجودية والأخلاق والشباب والمرأة والتربية والتعليم والثقافة والأدب واللغة والعلم (في الإسلام) والعلم (في الغرب) والنظرية المادية ونظرية التطور والفلسفة ومنهج المعرفة والثوابت والمتغيرات والتراث والأصالة والتكامل والانشطارية والأمة الإسلامية ووحدة البشرية...الخ.

وحدة البشرية

وإذا قرأنا على سبيل المثال المقصود بوحدة البشرية نجده يشير إلى إعلان الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان عن وحدة البشرية، وأن الناس أمة واحدة في الأصل ثم اختلفوا " وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا "(يونس ١٩) وأن الناس جميعًا خلقوا من نفس واحدة، وأصبحوا شعوبًا وقبائل، وليس هناك فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى.

ومن شأن هذه الوحدة أن تدفعهم إلى الإخاء الإنساني والوحدة العالمية والترابط والتكامل، كما قرر الإسلام وحدة الدين الذي جاء به الأنبياء منذ نوح

عليه السلام (الصواب منذ آدم عليه السلام) حتى محمد - ﷺ- فهو رسالة واحدة هي التوحيد وشرعة واحدة.. ويستمر الجندي في تفصيل وحدة البشرية من خلال وحدة النفس البشرية الأولى، والمساواة بين الأجناس، وإلغاء نظام الطبقات، وإقرار مبدأ الكرامة الإنسانية لكل الناس، فلا يستعبد إنسان غيره بسبب اللون أو الحسب أو القوة، وتكريم الجنس البشري عامة على أساس عدم التفرقة في المعاملة بين جنس وجنس أو طبقة وأخرى، والدعوة إلى العدل في المحبة والبغض وفي القريب والغريب وإعلاء رابطة الدين على رابطة القرابة والوطنية.

ويعالج فكرة العنصرية التي تبناها الغرب بالنظر إلى العلم البيولوجي أو الوراثة البيولوجية، وما تحمله من استعلاء وتمييز وخاصة ما جاء في كتاب مونتسيكو المسمى (روح القوانين) الذي وصف الزنوج والأفارقة بأنهم ليس لهم روح، ويدعي أن الله سبحانه لا يمكن أن يكون قد خلق روحًا طيبة في أجسام حالكة السواد، بينما يقول المقريزي العالم المسلم: إن البشرة السوداء لا تقلل شرف النفس الطاهرة، ولا تنتقص من علم العالم ولا سمو المفكر.

التفرقة العنصرية

ويذكر أن اليهود هم الذين أعادوا الدعوة إلى التفرقة العنصرية والاستعلاء بعد السبي البابلي ثم حملت أوروبة لواء هذه الدعوة، وقد ظلت زمنًا طويلًا، وبالاستعمار أصبحت العنصرية قاعدة حملت لواء تجارة الرقيق على نحو مهين للجنس البشري. كما يذكر تفاصيل كثيرة تتعلق بجريمة التمييز العنصري التي ارتكبتها أوروبا وأميركا حتى يومنا مما يرفضه الإسلام ويتنافى مع وحدة البشرية التي أقرها قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان. ويفصل نظرية (الإنسان الأبيض) وامتيازه عن الأجناس الملونة، وهي النظرية التي اتخذها النفوذ الأجنبي مسوّغًا لوجوده وسيطرته في بلاد الآخرين.

وينتقل إلى الحديث عن الأخوة العالمية بوصفها أعظم ما جاء به الإسلام في سياق وحدة البشرية، ولا يستطيع باحث أو مدع أن يزعم إنكارها. فقد أشار الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا إلى وحدة البشرية- كما سبقت الإشارة - (كان الناس أمة واحدة)، ثم التطور إلى أجناس (واختلاف ألسنتكم وألوانكم) وتمام ذلك عن طريق التناسل (فأنبتنا فيها من كل زوج كريم)، وقد ثبت أن النوع البشري قد امتزج امتزاجًا شديدًا نتيجة هجرات واسعة مستمرة لم تتوقف على مدى العصور.

البيض والسود تحت راية الإسلام

لقد تحرر المسلمون البيض من عقدة التمييز اللوني حتى قال آرنولد توينبي:

(ولقد اتصل المسلمون البيض مع الزنوج والأفارقة ومع الشعوب الداكنة اللون في الهند واستمروا في تعزيز ذلك الاتصال. وحتى اليوم فإن البيض والسود يندمجون تحت راية الإسلام عبر القارة الإفريقية والهندية طولًا وعرضًا.

ويعرض نماذج أخرى عن تحرر المسلمين من عقدة اللون والشعور العنصري، فقد زوجوا بناتهم بالمسلمين السود، وصور مالكولم إكس الأميركي الأسود الشهير، هذا الامتزاج بقوله:

" لقد كان هناك عشرات الآلاف من الحجاج من كل الأقطار، كانوا من شتى الألوان زرق العيون إلى الأفارقة السود، ولكنا جميعًا كنا نشارك في الشعائر ذاتها مبدين روح الوحدة والأخوة التي ساقتني تجاربي في أميركا إلى اعتقاد أنها لا يمكن أن توجد بين البيض وغير البيض.

ويفصل ملامح التسامح والمساواة في الإسلام بين أصحاب الألوان والأعراق، مستشهدًا بما ذكره التاريخ الإسلامي وما قاله كبار المفكرين والمستشرقين في العالم، من ذلك ما ذكره المستشرق عبد الكريم جرمانوس:

"إن أوروبة لم تعرف فكرة الإخاء بين الناس إلا بعد الثورة الفرنسية، بينما دعا الإسلام إليها وطبقها المسلمون قبل ذلك بنحو ألف عام. لقد كانت فكرة الشورى من ابتكار القرآن عرفتها أوروبة في القرن السابع عشر، بينما هي من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأته"[1]..

التسامح والمساواة

ونلاحظ هنا أن التعريف بوحدة البشرية يكشف عن جوهر نظرة الإسلام إلى البشر في إطار الأخوة الإنسانية، ويصحح المفاهيم المغلوطة عن دين الإسلام، فيجلي طبيعة التسامح والمساواة والنظر إلى الأعمال والأفعال، وليس الأشكال والأموال، ومن ثم تبدو صورة المصطلح ناصعة وساطعة ترد على المتعصبين ضد الإسلام أو الذين يعادونه بدوافع غير خلقية أو مقبولة، وأيضًا ترد على الجاهلين به أو يرددون ما يقوله المتعصبون والمتحاملون.

ويُضاف إلى المعلمة كثيرٌ مما كتبه أنور الجندي دفاعًا عن الإسلام ومفاهيمه في عشرات من كتبه، ومنها ما كتبه في سلسلة في دائرة الضوء، وهي تشبه المعلمة في موادها أو مصطلحاتها أو موادها. وكان ينشرها في رسائل قصيرة من القطع المتوسط وتبلغ صفحاتها عادة قدر ملزمتين (٣٢ صفحة)، يستهدف بها الشباب بالدرجة الأولى الذي يحتاج إلى شرح المفاهيم وبيان صحيحها أكثر من غيره.

وتضم سلسلة في دائرة الضوء أيضًا عشرات من المصطلحات والأحداث منها على سبيل المثال:

وحدة الفكر الإسلامي - الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون- في سبيل إعادة كتابة تاريخ الإسلام- في مواجهة الفراغ الفكري والنفسي للشباب-

(1) راجع أنور الجندي، معلمة الإسلام، طبعة خاصة محدودة على نفقة المؤلف، الجزء الأول/ المصطلح ٣٤

التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام- تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث- مؤامرة تحديد النسل وأسطورة الانفجار السكاني- الخلافة الإسلامية- السلطان عبد الحميد -...

السلطان عبد الحميد

وإذا أخذنا على سبيل المثال مادة "السلطان عبد الحميد" الذي يُعدّ صفحة ناصعة من الجهاد والإيمان والتصميم في مواجهة تحديات الاستعمار والصهيونية، وشوّهه الصهاينة والغرب الاستعماري وأتباعهم من بني جلدتنا؛ بسبب مواقفه التاريخية ضد أطماعهم في فلسطين وغيرها، نجد أنور الجندي يكشف طبيعة هذه الشخصية في التاريخ الإسلامي المعاصر التي لقيت كثيرًا من الغبن والظلم والإعنات، ويشير إلى أن التعتيم على السلطان العثماني عبد الحميد الثاني انزاح بعد سنوات طوال، وظهر جهاده الباسل ومقاومته العنيدة للمؤامرة الضخمة التي حاولت أن تستغله وتخدعه أو تغريه كي يفرط في أرض المسلمين، ويسلم فلسطين لليهود الغزاة. لقد تحمل الوعيد والتآمر صابرًا صامدًا طوال حياته وبعد موته.

تولى السلطان عبد الحميد الخلافة عام ١٨٧٦، وتم خلعه عام ١٩٠٩، وتوفي عام ١٩١٨. وشنت عليه صحف المارون في مصر ولبنان حملات ضارية عندما أبدى صلابة وصمودًا في مواجهة المتآمرين، وامتدت الحملات لتصل إلى مناهج المدارس والأدب المقررة على الطلاب في مدارس معظم البلاد العربية، وتصوره في ثوب الطاغية المتسلط. ظلت هذه الصورة زهاء خمسين عامًا، وأخذ موقف الرجل الحقيقي يتضح عقب ترجمة بروتوكولات حكماء صهيون التي كشفت مخطط المؤامرة على الدولة العثمانية والخلافة، واتضحت بصورة أوضح بعد ترجمة مذكرات الصهيوني تيودور هرتزل الذي روى باستفاضة وتوسع قصة العروض والوساطة بينه وبين السلطان ورد السلطان عليه.

لقد فهم السلطان أبعاد المؤامرة التي اشترك فيها اليهود والغرب والماسون والدونمة والاتحاد والترقي، بينما خفيت على الرأي العام في حينه. وكانت تصرفاته انطلاقًا من فهم خفايا المؤامرة.

الوطن القومي

لقد وصفه أعداؤه بالدهاء، فقد كان يدرك أن الدولة العثمانية فقدت التفوق العسكري، واستطاع أن يواجه الأمر بحكمة أزعجت خصومه وأعجزتهم.

بعد مؤتمر بال في سويسرا عام ١٨٩٧ تحدد أمر الاتصال بالسلطان عبد الحميد لإقامة ما يسمى الوطن القومي لليهود. وبدأت المعركة الخفية بين السلطان واليهود عقب إصراره على عدم التسليم لهم بأي مطمع في فلسطين.

عزم السلطان على أن يمضي في دعوته إلى الجامعة الإسلامية وتجميع المسلمين من خارج دولة الخلافة؛ ليدخلوا تحت لوائها لمواجهة خطر النفوذ الاستعماري الزاحف على العالم الإسلامي، وقد نجحت هذه الدعوة في تصفية الخلاف السياسي بين تركيا وفارس، وبين السنة والشيعة، ويؤثر من كلامه في هذا السياق:

"إن السم القديم يجب ألا يسري في جسد آسيا القوي، وعلى السنيين والشيعة أن يتحدوا لمقاومة أوروبة في محاولتها قهر العالم".

كما تؤثر عنه صيحته الشهيرة:

"يا مسلمي العالم، اتحدوا"

سكة حديد الحجاز

لقد اتخذ وسائل عملية عصرية لترسيخ الوحدة الإسلامية فأقام سكة حديد الحجاز التي جمع لها سبعة ملايين من الدنانير، وكذلك سكة حديد بغداد.

وبلغت قمة ذكائه ودهائه أنه كان يسارع بإفساد خطط الغرب لإشعال الحروب، ووصفت خطته بأنها تمثل "سياسة التوازن الدولي" التي تبقي سياسة الدول الغربية متحاسدة متنابذة في الأمور التي تتعلق بتركيا ومستقبلها.

وكانت رؤيته إزاء الغرب بعد قرنين من هزيمة الدولة العثمانية وتقهقرها كما تقول الدكتورة ألما ولتن تقوم على الجرأة والتحدي. ومن ذلك قوله:

" يجب ألا ندع الغرب يبهرنا، فإن الخلاص ليس في المدنية الأوروبية وحدها".

وقوله:

"إن تركيا هي نافذة الإسلام التي سيشع منها النور الجديد".

لقد لقي السلطان تأييدًا وترحيبًا كبيرين على امتداد العالم الإسلامي إيمانًا بفكرة الجامعة الإسلامية وتأييدًا لها.

وقد أشار إلى ذلك سفير بريطانيا لدى الباب العالي عام ١٩٠٧ إلى خطر ما يدعو إليه السلطان؛ حيث قال:

"يمكننا أن نقرر أن من أهم حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل (١٨٩٧ - ١٩٠٧) خطة السلطان الباهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ٣٠٠ مليون مسلم (تعداد المسلمين في العالم آنئذ) في ثوب الخليفة- الذي هو الرئيس الروحي في الدين الإسلامي- وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز، ونتيجة لهذه السياسة فقد أصبح حائزًا على خضوع رعاياه له خضوعًا أعمى".

تمزيق الخلافة

ومن المفارقة أن السلطان ضُرب من هذه الناحية، توحيد المسلمين تحت راية الخلافة، فقد كان يواجه مطامع كبيرة من الدول الأوروبية واليهود وروسيا بقصد تمزيق الإمبراطورية الإسلامية، ووراثتها بعدما أطلقوا عليها الرجل المريض، فاستخدموا سلاح العنصرية الذي تبناه أعضاء تركيا الفتاة والاتحاد والترقي بالدعوة إلى الطورانية، وآزرهم يهود الدونمة الذين كانوا يمهدون للوصول إلى فلسطين.

واجه السلطان عبد الحميد هذا المخطط بقوة وبسالة، وأخضع دائرة القدس لإدارته مباشرة بعد فصلها عن ولاية سورية بمجرد أن عرف بالمخطط الصهيوني للسيطرة عليها واحتلالها. وعندما شرع هرتزل يفكر في مقابلة السلطان وتوسل إلى ذلك بالسياسي الألماني بسمارك؛ حيث كانت ألمانيا حليفًا لتركيا، وشخصيات أخرى بارزة من أجل أن يقنع السلطان بمنح اليهود مساحة من أرض فلسطين، مقابل استعداد اليهود دعم مالية الدولة العثمانية وتصفية ديونها، بدفع خمسين مليونًا من الجنيهات الذهبية للدولة وخمسة ملايين أخرى لخزينة السلطان الخاصة، ثم التأثير على الرأي العام الأوروبي ليقف إلى جانب السلطان.

موقف حاسم

وكان للسلطان موقف تاريخي حاسم حين رفض العرض اليهودي، وقال لهرتزل:

"أنصح للدكتور هرتزل ألا يسير أبدًا في هذا الأمر. لا أقدر أن أبيع ولو قدمًا واحدة من البلاد؛ لأنها ليست لي بل لشعبي، ولقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة الدماء وقد غذاها بعد بدمائه، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا.

ليحتفظ اليهود بملايينهم فإذا ما قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون قتال. إننا لن نقسم إلا جثثا، ولن أقبل بتشريح أجسادنا لأي غرض كان- يونيو ١٨٩٦).

بعد يأس هرتزل من السلطان بدأت مرحلة التهديد والتآمر، وانطلقت صحف المارون: المقطم والأهرام والمقتطف والهلال في الحملة على السلطان، وراح كتابها من أمثال جورجي زيدان وسليم سركيس وفارس نمر يصفونه بالسلطان الأحمر، وألف الأول قصة الاستبداد العثماني، ورمي السلطان بعشرات الاتهامات الباطلة تمهيدًا للقضاء عليه وبعدها جرت محاولات اغتياله ثم إسقاطه.

المادة الخامسة

لقد أخذ اليهود بعد إخفاقهم- كما يقول المؤرخون المنصفون - ينفذون المادة الخامسة من بروتوكولات حكماء صهيون التي تنص على وجوب تلفيق الوقائع بحق الأشخاص المحترمين لدى الناس؛ للحط من كرامتهم وكسر اعتبارهم، وبدأت حملة كراهية السلطان، واتهموه بالقتل والحرق والإغراق، وجاءت محاولة اغتياله بتفجير قنبلة على موكبه عقب صلاة الجمعة، وتوالت أحداث المؤامرة حتى تم عزله وسيطرة الاتحاديين على السلطة، ففتحوا الطريق لليهود نحو فلسطين وسلموا طرابلس الغرب للطليان. ويورد أنور الجندي تفصيلات لهذه المؤامرة بأبعادها المتشعبة مع التركيز على الصورة المزيفة التي صُنعت للسلطان ومنها ما يسمى مذبحة الأرمن، ودسّ السمّ لجمال الدين الأفغاني، وكشف الصورة الحقيقية من خلال كتابات المنصفين من كتاب الغرب الاستعماري، ومنهم لوثروب ستيوارت والدكتورة ألما ولتن.

ولم يمنع ذلك أنور الجندي من الإشارة إلى بعض أخطاء السلطان في سنوات حكمه الطويلة، ومنها:

١ - تعاونه مع ألمانيا مما جرّ عليه خصومة إنجلترا وفرنسا.

٢ - تردده في اتخاذ اللغة العربية لغة الدولة العثمانية.

٣ - الاتجاه إلى الطرق الصوفية وليس إلى التيار الإسلامي الأصيل.

٤ - إهمال التدريب العسكري وعدم العناية بالأسطول.

وقد ظهرت في العقود الأخيرة مجموعة من الدراسات التاريخية والبحوث الجامعية، فضلًا عن مذكرات السلطان عبد الحميد، وكلها تصب في جلاء صورة السلطان عبد الحميد التي طمسها اليهود وأتباعهم في الغرب والشرق بالزيف والبهتان والضلال[1]..

المسار الصحيح

إن تصحيح المفاهيم والتاريخ حول السلطان عبد الحميد ودوره في الدفاع عن الخلافة الإسلامية في أواخر أيامها يعيد الوعي الإسلامي إلى مساره الصحيح بمعرفة الحقائق الأصلية التي زيفها أعداء الإسلام.

لقد ارتبط السلطان عبد الحميد والخلافة العثمانية في أذهان كثير من العرب والمسلمين بالاستبداد والبطش والجهل والغرق في بحار الرذيلة والشهوات. يبدأ هذا الارتباط من مراحل التعليم الأولى وكتب التاريخ التي يتم تقديمها للطلاب فيرون شخصية مخيفة مناقضة لأخلاق الإسلام وقيمه ومفاهيمه. ومن ثم تبدو أهمية الدور الذي قام به أنور الجندي في تصحيح المفاهيم خدمة للحقيقة وإنصافًا للمظلومين، وقبل ذلك وبعده استجابة لنداء الإسلام بقول الحق والصدق وكشف الزيف والبهتان.

(1) انظر: أنور الجندي، السلطان عبد الحميد، سلسلة في دائرة الضوء رقم ٤٣، دار الاعتصام، د.ت

لقد ألح أنور الجندي في كثير من كتبه على جانب تصحيح المفاهيم وجلاء حقائق التاريخ بوصف ذلك ضرورة على طريق النهضة الإسلامية المعاصرة وتحرير المسلمين من التبعية والهيمنة الغربية.

إنه يرى في المفاهيم المغلوطة تحديات وعقبات في وجه النهضة الإسلامية واستقلال المسلمين؛ ولذا نراه يؤكد كثيرًا على مجموعة من المفاهيم في الثقافة والأدب واللغة العربية والتاريخ والعلم والفلسفة والفن؛ فيصححها ويتناولها بالمفهوم الإسلامي السليم، حتى لا ينخدع الناس بما يعلن أو يقال حول هذه المصطلحات.

مفهوم الفن

إنه يرى مثلًا أن المفهوم الإسلامي للفن يقوم على استحالة التناقض مع الفطرة، وإذا كانت الفنون من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الإسلام في شيء، وحين تخالف الفنون الدين في أصوله ودعت صراحة أو ضمنًا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لمحاربتها وعاقت الإنسان عن أن يعمل بالفضائل التي أوجبها الدين عليه؛ فهي فنون باطلة.

والفن في المفهوم الإسلامي عنصر من عناصر الفكر يتكامل مع الأدب والاجتماع والأخلاق والدين والحضارة، وله طابعه الأصيل الواضح المباين لمفهوم الفن في الحضارات الأخرى، قوامه الأخلاق وطابعه التوحيد والتسامي بالغرائز والارتفاع بالنفس الإنسانية إلى الكمال دون أن يبتعد عن الواقع. إنه في المفهوم الإسلامي أداة لتجميل الحياة ووسيلة الإسعاد الروحي بتحرير الإنسان من عالم الأهواء والغرائز وإطلاقه في نظرة حرة إلى الكون والوجود؛ ليتعرف على قدرة الله تبارك وتعالى ويزداد بها إيمانًا.

لقد أدخل النفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية مفاهيم الوثنية والمادية التي عرفها الفن في الغرب من قبيل الصراع بين الآلهة والإنسان أو بين القدر والإنسان، وهو ما لا يتفق مع التوحيد، أضف إلى ذلك أن المسلم لا يؤمن بفكرة الخطيئة الأولى ولا تجسيد الإله في صور حسية وثنية ولا عبادة الطبيعة أو المحسوسات، أو عبادة البطولة في صورة مادية؛ رغبة منه في تحرير البشر من التجزئة بين الماديات والمعنويات.

ولهذا حقق الفن الإسلامي مذهبًا جديدًا مستمدًا من حقائق الإسلام، فكان فنًا منطلقًا وتجريدًا معبرًا وليس جامدًا، وصارت الزخرفة أو الزرقشة كما يسميها أنور الجندي بغير ابتداء ولا انتهاء، وتمثل مفهومًا من مفاهيم التوحيد؛ لأنها تسعى وراء الله (تبارك وتعالى) الذي هو الأول والآخر، ومنه تبدأ الأسباب وإليه تنتهي المسببات[1]..

مصححو المفاهيم

ويبدو أن فكرة تصحيح المفاهيم ألحت كثيرًا على أنور الجندي فكتب رسالة عن تصحيح المفاهيم في تاريخنا الإسلامي البعيد، ووجد في الغزالي وابن تيمية وابن حزم وابن خلدون أعلامًا لهذا التصحيح.

وهؤلاء الأعلام لم يكونوا متخصصين في مجال بناء السنة والفقه والعقائد، ولكنهم عملوا في ميدان تصحيح المفاهيم وتجديد الفكر الإسلامي، وهي مهمة ضخمة لم يتصدر لها إلا قليل.

لقد كان هؤلاء العمالقة المصححون يهدفون في منهجهم إلى التماس مفهوم القرآن أساسًا؛ شجبًا لكل انحراف يحاول أصحابه صرف الفكر الإسلامي عن مجراه الأصيل ومنهجه الطبيعي.

(1) أنور الجندي، عقبات في طريق النهضة، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت، ص ٣١٨ - ٣٢٠

ابن حزم

فابن حزم، أبو محمد علي بن حزم الأندلسي (٩٤٤ - ١٠٦٤م) دافع عن مفهوم الوقوف عند النص في مقابل الإسراف في تجاوزه والمبالغة في الاستنتاج منه وتحميله كثيرًا من المختلف مما يحتمل وما لا يحتمل؛ حيث استفاضت في عصره نزعة التوسع في تحميل آيات القرآن ما تطيق وما لا تطيق؛ ولذا سمي ابن حزم الظاهري لوقوفه عند ظاهر النص.

إن معارضة ابن حزم للتأويل وحضه على التماس المفهوم القرآني الواضح والوقوف عنده؛ هي دعوة ابن حزم الأساسية.

رأى ابن حزم أن القياس والرأي قد باعدا بين المفهوم الأساسي وبين التفسير الذي وصل إليه الفقهاء، وكان ذلك مصدر فساد كبير تعرضت له الحياة الاجتماعية في الأندلس (موطن ابن حزم الأصلي).

وجاء مفهوم ابن حزم على هذا النحو:

"جملة الخير كله أن تلزموا ما نص عليه ربكم تعالى في القرآن بلسان عربي مبين، لم يفرط فيه من شيء تبيانًا لكل شيء، وما صح من نبيكم- ﷺ- برواية الثقات من أئمة أصحاب الحديث رضي الله عليهم، مسندًا إليه- عليه السلام- فهما طريقان توصلكم إلى رضا الله ربكم عز وجلّ.. واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن له، وجهر لا سر تحته، كله برهان لا مسامحة فيه، واتهموا كل من يدعو إلى أن يتبع بلا برهان، وكل من دعا للديانة سرًّا وباطنًا فهي دعاوى ومخارق، واعلموا أن رسول الله- ﷺ- لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها، ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب؛ على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم، ولا عنده- عليه السلام- سر ولا رمز ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه، ولو كتمهم شيئًا لما

بلّغ كما أمر، ومن قال هذا فهو كافر، فإياكم وكل قول لم يتبين سبيله ولم يوضع دليله، ولا تخرجوا عما مضى عليه نبيكم- ﷺ".

في موسوعته الضخمة "المحلى" استطاع ابن حزم أن يكشف عن جوهر رأيه ومفهومه التصحيحي، فاستطاع أن يجدد شباب الفكر الإسلامي والفقه الإسلامي، وأن يقدم آراء ناصعة جديدة دفعت تيار الثقافة الإسلامية إلى الأمام[1]..

الغزالي

وإذا كان ابن حزم قد جابه الجمود والتقليد وجدد الفكر الإسلامي من خلال الكتاب والسنة والاحتكام إلى العقل ومقاومة التقليد؛ فإن الغزالي، الإمام أبو حامد محمد الغزالي الطوسي النيسابوري (١٠٥٨ - ١١١١م) واجه عناصر عديدة من خصوم الفكر الإسلامي كالباطنية والدهرية وفلاسفة الإلهيات وعلماء الكلام وشجب مفاهيمهم جميعًا، وأعلن أن أسلوب القرآن هو أعلى الأساليب وأبلغها وأدقها وأقربها إلى مختلف العقول والنفوس، وأنه أصدق من أسلوب المتكلمين وأنفع وأعم وأشمل للطبقات والمستويات المختلفة.

واجه الغزالي الفلسفة فأثبت حقها في مجال الفلسفة الطبيعية والرياضية، ولكنه هاجم "الفلسفة الإلهية" وحدها؛ لأن أغلب العلوم الفلسفية الطبيعية والرياضية أمور برهانية، ولم يتعرض لها الشرع بالنفي أو الإثبات، فلا يخدم الإسلام إنكارها، وليس فيها ما يتعرض للأمور الدينية.

الأغلاط والتخيلات

أما الفلسفة الإلهية ففيها كثير من الأخطاء، ولم يستطع أصحابها أن يفوا بالبراهين على ما شرطوه في المنطق. والإلهيات ليست كالعلوم الأخرى (الرياضة

(١) راجع: أنور الجندي، مصححو المفاهيم، في دائرة الضوء، رقم ٢٨، دار الاعتصام، د. ت، ص ٣ - ٧

والطبيعة)، وليس لها مقدمات ومحسوسات ومبادئ، ولهذا (كثرت أغلاطهم وتخيلاتهم)، وقد ألحدوا وأنكروا الدين. وحصر الغزالي خلافه مع فلاسفة الإلهيات في ثلاث مسائل:

١- قولهم بقدم العالم.

٢- قولهم بأن الله- سبحانه- لا يحيط علمًا بالجزئيات الحادثة من الأشخاص.

٣- إنكارهم بعث الأجساد وحشرها.

ومن هنا فإن الحملة التي توجه دومًا إلى الغزالي بأنه خصم للفلسفة هي دعوى باطلة؛ لأن الغزالي هاجم الفلسفة الإلهية الإغريقية الوثنية التي لا تتفق مع عقيدة التوحيد.

لقد استطاع الغزالي بقدرته الفكرية العريضة أن يستصفي الفكر الإسلامي من الدعوات المنحرفة التي اتصلت به عن طريق الشعوبية والباطنية لتغيير مفهومه أو هدم مقوماته.

وقد اختار الغزالي منهج "التعليم والثقافة" بدلًا من أسلوب "الجدل الكلامي"، وناقش المسائل على أساس "العقل المتأدب بالشرع".

ثم إنه يمزج علم النفس والأخلاق والدين، ويرى أن هدف الدراسات النفسية هو أن تكون وسيلة إلى تهذيب النفس، وأن دوافع السلوك في الإنسان هي: الطعام والجنس والمال والجاه.

واجه الغزالي أكبر معضلات الفكر الإسلامي كله بالتقاء هذا الفكر وتكامله مع الفقه والتصوف والفلسفة والدين والعقل والقلب. (السابق، ص ٩ - ١٤).

ابن تيمية

أما ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (١٢٦٣ - ١٣٢٨م)، فهو حامل لواء الوسطية في مواجهة الانحراف، والتكامل في مواجهة التجزئة، والحركة في مواجهة الجمود، وفق سنة ثابتة وقانون صارم يتمثل في مجرى الفكر الإسلامي منذ نزول القرآن.

وأعلن ابن تيمية أن الأساس الأصيل للفكر الإسلامي يتمثل في الكتاب والسنة، وأن الكتاب ليس علم عقائد بالخبر والنقل فحسب، بل بالدليل والبرهان، وأن النبي- ﷺ- فسر القرآن كله؛ لأنه هو الذي عليه أن يبينه ويوضحه، وبيانه من أركان تبليغ الرسالة.

ويرى ابن تيمية أن منهاج القرآن ليس هو منهج الفلاسفة ولا المتكلمين ولا الماتريدية ولا الأشاعرة، بل هو غيرها؛ لأن العقائد لا تؤخذ إلا من النصوص التي هي وحي أوحي به إلى النبي- ﷺ- وأن الأساليب العقلية المنطقية مستحدثة في الإسلام، ولم تكن معروفة قطعًا عند الصحابة والتابعين.

وجملة منهج ابن تيمية: "أن الفساد لم يأت من قبل النصوص فهي حق في معناها ولا تحتاج إلى تأويل، وإنما جاء من حملها على معان فاسدة ليست معانيها المرادة بها"(١)..

المفارقة أن ابن تيمية يلقى هجومًا عنيفًا في زماننا من أطراف عديدة، أظن أنها لم تقرأ إنتاجه ولم تتابع فكره وسلوكه ضد الغزاة، والخونة الذين انضموا إليهم من بعض الطوائف المتمردة في بلاد الشام، ولكنه يبقى علامة مضيئة في تاريخ الفكر الإسلامي، والجهاد ضد الغزاة والمستبدين والخونة وأعداء الدين.

---

(١) انظر: السابق، ص ١٥ - ١٩

ابن خلدون

وقد جاء ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) في القرن الثامن الهجري ليرى عالم الإسلام قد تغيّر تغيّرًا كاملًا بعد أن مرت به جحافل الصليبيين والتتار وصارعته، وكان ابن خلدون على مستوى الثلاثة الكبار السابقين (ابن حزم والغزالي وابن تيمية) في تجديد الفكر الإسلامي؛ حين هاجم أسلوب الجدل اللفظي والمماحكات الكلامية في التأليف والشرح والتعليم، وأنكر منهج التقليد ودعا إلى التماس منابع الفكر الإسلامي في الإسلام نفسه، وأنكر طريقة الجمع والاختصار التي شاعت في عصره، وقال إنها مخلّة بالتعليم، وبيّن الطرق الصالحة فيه.

وتميز ابن خلدون أنه كان على قدر وافر من الإحاطة بالحركة العلمية في العالم الإسلامي كله وفي بلاد أوروبة أيضًا.

كما كان وسطًا في الرأي بين ابن رشد في الفلسفة والغزالي في التصوف، فلم يذهب في الفلسفة ذهاب ابن رشد، ولم يعارض التصوف وأخذ فيه بمنهج الغزالي.

الأصول المؤصلة

وإذا كان الفكر الغربي قد أفاد من حصيلة الفكر الإسلامي في مجال "منهج العلم التجريبي" الذي أنشأه المسلمون؛ فإن عصارات ضخمة من الفكر الإسلامي في مجال الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية قد حصل عليها الفكر الغربي وحاول الادعاء بأنه مبتدعها أصلًا، بينما كانت كتابات ابن سينا والغزالي وابن خلدون والماوردي وعشرات غيرهم؛ هي (الأصول المؤصلة) لعشرات من النظريات العلمية الحديثة في مجال الفكر.

وآراء ابن خلدون في طليعة هذه الحصيلة، ومنها:

أولا: اكتشف نظرية الأجيال الخاصة بظهور الأسرار ونهوضها قبل أن يعرفها (أوتو كار لوتيس) في أواخر القرن التاسع عشر.

ثانيًا: عرف ابن خلدون قانون (التشبه بالوسط) قبل أن يعرفه العالم الطبيعي (داروين) بخمسة قرون.

ثالثًا: اكتشف مبدأ وجود المادة قبل أن يكشف ذلك العالم الألماني آرنست هيجل بأكثر من خمسة قرون أيضًا.

رابعًا: سبق ميكافيللي ومونتيسكو وفيكو في وضع أصول علم الاجتماع.

خامسًا: اكتشف مبادئ العدالة الاجتماعية قبل كونسيدران وماركس وباكونين بخمسة قرون.

سادسًا: اكتشف مبدأ الحتمية الاجتماعية قبل الفلسفة الإسبانية وعلم النفس بقرون عديدة، وأعلن تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة في القرن الرابع عشر الميلادي.

سابعًا: أدرك أن علم الاجتماع يضم مظاهر كثيرة منها: السياسة والاقتصاد والعلم والتعليم، وبعد ابن خلدون بخمسمائة عام؛ قال الفكر الغربي إن العلوم كلها مظاهر من علم الاجتماع.

ثامنًا: قوّى من الروح التجريبية والنظر العلمي الواسع الأفق.

ومع أن ابن خلدون عرف بوصفه مؤرخًا وواضع علم الاجتماع، فقد كان غير منفصل عن مجرى الفكر الإسلامي، وشارك بقوة في تصحيح المفاهيم وتجديد الفكر التربوي والتعليمي[1].

(١) راجع: أنور الجندي، مصحح المفاهيم، ص ٢١ – ٢٤

مدرسة حديثة

ولاريب أن هذه المدرسة التي قامت بتصحيح المفاهيم قديمًا تلهم مدرسة حديثة تصحح وتقوّم وتجدد، وتمنح أملًا في بناء مستقبل إسلامي أفضل.

ويجب ألا ننسى أن أنور الجندي واحد من رواد هذه المدرسة الحديثة إن لم يكن رائدها الأول.

وهو يخبرنا أن هناك علمًا جديدًا يولد في أفق الفكر الإسلامي الحديث يسمى: "علم المواجهة وكشف الشبهات وتصحيح المفاهيم، وتحرير القيم".

ويبنى هذا العلم على سؤال فحواه:

قولوا لنا أولًا من الذي كتب؟

نحن نعرف الحق بالرجال، ولكي نعرف الحق فلابد من معرفة أهله أولًا قبل القراءة، ثم نضعه على منصة التشريح، كما نضع عقله على مائدة التحليل.

لقد عرف المسلمون قديمًا علم الجرح والتعديل فدرسوا الرجال الذين يؤخذ عنهم العلم وصنوفهم، وعلينا أن نطبق هذا العلم على المعاصرين الذين يتصدرون حياتنا الأدبية والفكرية فلا تبهرنا الأسماء اللامعة ولا الأضواء المسلطة,ولا تأخذ بألبابنا الأوراق الناعمة والأغلفة البراقة والصور الملونة، فإن الزيف يغلف دائمًا ويبهر، أما الحق فإن أصحابه فقراء.

العلم وصاحبه

إن فصل العلم عن صاحبه نظرية لا يقرها الإسلام:

روى الحافظ أبو ليلى عن حماد عن الشعبي عن جابر عن رسول الله- ﷺ:

"لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق".

والمسلمون يأخذون العلم الطبيعي والتجريبي عن أي مصدر فهو من الأمور الإنسانية العالمية المشتركة، ولكنهم لا يأخذون مفاهيم العقائد ونظرة الوجود إلا من القرآن والسنة لأنها من الأمور الخاصة.

لقد نقل الغرب علومنا دون أن يعتنق ديننا أو ثقافتنا واحتفظ بقيمه ومفاهيمه، وكذلك فعل العرب والمسلمون حين نقلوا العلوم وترجموا الفلسفات.

بيد أن المحاولات الدائبة ما زالت مستمرة لحمل المسلمين والعرب على قبول الذهنية الغربية والخروج من ذهنية الإسلام وإزالة ذاتيتهم، من خلال بعث هويات مناقضة للشخصية الإسلامية الأصيلة، وهي:

- اليونانية الإغريقية.
- الفرعونية الوثنية.
- الجاهلية العربية.
- الغربية الأوروبية والأميركية.

والإسلام في كل الأحوال يرفض تأليه العلم وتقديس العقل، وعبادة البطولة[1].

•

وأظن أن بداية هذه المدرسة قد أخذت شكلًا أكاديميًّا في المغرب الشقيق من خلال فكرة دراسة المصطلح التي بدأها صديقنا الشاهد البوشيخي في المجال الأكاديمي، وأظنها الآن قد توسعت من خلال المؤتمرات والندوات التي انعقدت حول الموضوع فضلًا عن بعض الدراسات والمقالات التي تظهر في بعض الدوريات، ولا ريب أن ذلك سيوسع دائرة تصحيح المفاهيم من خلال تمحيص المصطلحات واستخدامها الدقيق.

***

---

(1) انظر: أنور الجندي، تصحيح المفاهيم الإسلامية، ص ٢٣ - ٢٥

خامسًا: الفكر الوافد ومخططاته

وسيلة أخرى

لم تكن الجيوش العسكرية الجرارة الوسيلة الوحيدة للغرب الاستعماري واليهود الصهاينة في سعيهم الحثيث للسيطرة على البلاد الإسلامية والهيمنة على مقدراتها وإخضاعها تمامًا للإرادة الأجنبية حتى تصير تابعة ذليلة مهيضة الجناح.

كانت هناك وسيلة أخرى أقسى وأخطر. فقد قامت الجيوش الاستعمارية والمنظمات العسكرية الإرهابية باحتلال معظم بلاد المسلمين وفلسطين، ولكن هذا لم يكن كافيًا لعملية الإخضاع والهيمنة؛ لأن الشعوب الإسلامية واجهت الجيوش والمنظمات بالجهاد والمقاومة، وهي مقاومة بذلت الدم والمال والثروات في سبيل الاستقلال والتقدم، فسحب الغزاة جيوشهم الجرارة من كثير من البلاد الإسلامية، بيد أنهم تركوا أصدقاءهم وأتباعهم من أهل البلاد المحليين ليكونوا امتدادًا لهم، يقوم بتنفيذ مخططاتهم في الواقع الإسلامي، ويتطوّع بنشر أفكارهم وفقًا لمشيئتهم المتسلطة. وكان هذا الامتداد متمثلًا في النخب والطبقات التي صُنعت على أعينهم وحظيت برعايتهم وتربيتهم.

لقد عمل الغزاة بجد ودأب ومن خلال تخطيط مدروس وبأساليب في غاية الخبث والدهاء والشمول على تنشئة هذه النخب وتلك الطبقات طوال عقود مديدة، منذ غزوة نابليون لمصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر على الأقل. وظل هذا العمل الدءوب عقب أن فشلت الحملات الصليبية المسلحة التي بدأت في أواخر القرن الحادي عشر وظلت نحو قرنين من الزمان، واستأنفوها في الأندلس حتى تم

إسقاطه وطرد المسلمين منه، وتنصير من تبقى؛ حيث عرف العالم آنئذ ما يسمى بمحاكم التفتيش في وحشيتها الهمجية، ودمويتها البشعة.

لقد نهب الغزاة الصليبيون ثروات المسلمين والمخطوطات والمكتبات، وعرفوا كثيرًا من معالم الحضارة الإسلامية التي دفعتهم إلى دراسة ما يتعلق بأهلها وكيفية السيطرة عليهم، ثم استطاعوا بمخترعاتهم أن يعاودوا الكرة من خلال ما عرف بالاستعمار والسيطرة على العالم الإسلامي كله، وكان القرن التاسع عشر والقرن العشرين مسرحًا زمنيًّا لهذه التجربة الدموية الجديدة التي بدأها نابليون باحتلال مصر والشام، ثم السيطرة على أطراف العالم الإسلامي في إفريقية وآسيا حتى سقطت معظم بلاد المسلمين في أيديهم.

صناعة النخب

كان العمل على قدم وساق من جانب الغزاة الاستعماريين لصناعة النخب والطبقات الموالية لهم، وفي الوقت ذاته يثابرون على نشر أفكارهم ومنظماتهم السرية والعلنية؛ لإخراج الأمة من دينها وقيمها، وتحويلها إلى مسخ إنساني شائه، لا يستطيع أن يمضي مثلهم في بناء الحضارة، ولا يمكنه أن يعود إلى طبيعته وخصائصه القومية والوطنية.

ومن المفارقات أن وجود هذه الأفكار وتلك المنظمات كان مغلفًا بالرغبة الحماسية في النهضة والتجديد والاستجابة لروح العصر، والخروج من التخلف والجمود والتقليد، ومواجهة الرجعية والظلام، والبحث عن مناهج الغرب المتقدم للحاق به ومساواته في المستوى الحضاري!

وكان الأستاذ أنور الجندي على امتداد حياته الفكرية مشغولًا بهذه المسألة، والنداء على قومه وعلى المسلمين عامة كي ينتبهوا إلى الفكر الوافد ومخططاته

التي لا تريد بهم خيرًا، ويحثهم على اليقظة والمقاومة والاستمرار فيها من أجل دينهم وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.

منطلق الفكر الوافد

ويمكن القول إن الفكر الوافد انطلق من مصدرين، أولهما فكر الاستشراق أو الرؤية الغربية التي تشكك في الثوابت الإسلامية، وتزيف التاريخ الإسلامي، وتلح على القضايا الخلافية وتضخمها بهدف إثارة الفتنة والنعرات المذهبية والعرقية، فضلًا عن الخلافات الطائفية.

والآخر هو فكر الصهيونية التلمودية التي تسعى للسيطرة على فلسطين والعرب والعالم عن طريق المكر والدهاء والخطط السرية والعلنية التي توظف الصحافة والإعلام والكتّاب والمنظمات النوعية والعامة والفنون الآداب والمذاهب الفكرية لتمرير الأفكار والآراء التي تخدمها أو تمهد الأرض لتنفيذ أهدافها.

إن تجنيد القوى المنظورة وغير المنظورة في كل موقع على امتداد العالم يهيئ للسيطرة الاستعمارية أو الصهيونية.

هناك مثلًا ماسونية رمزية تدخل فيها أندية الروتاري والأونرهويل، وما شابه، ولها وجود مؤثر داخل مصر والبلاد العربية والإسلامية، وهناك ماسونية ملوكية وثالثة كونية لا يدخلها إلا قادة العمل الصهيوني.

تحت كل واحدة من هذه الماسونيات عشرات الأنشطة ومئات الصحف والقنوات والإذاعات وآلاف المرتزقة في كل بلدان العالم العربي والإسلامي وخارجه.

والغاية لهؤلاء المرتزقة العمل على تدمير الإنسان معنويًا وهدم الأديان وتزييف التاريخ وفرض الفكر المادي البشري، وترويج الانحلال والتجسس الفكري بما يخدم الصهيونية العالمية والقوى الكبرى.

رأس الحربة

لقد استطاعت المفاهيم والنظريات الوافدة أن تتغلغل في المدارس والمعاهد الجامعات مع وقوع العالم الإسلامي في قبضة النفوذ الاستعماري، وقامت الإرساليات ومؤسسات التبشير والاستشراق برأس الحربة في هذا الميدان، وآزرتها طبقة المثقفين الموالية للفكر الوافد حيث تصدروا المشهد الثقافي والإعلامي والتعليمي، في ظل إقصاء تيار الفكر الإسلامي.

كان للفكر الوافد أثر خطير في حياة المسلمين؛ حيث صارت الحياة العقلية تمضي شبه نائمة وراء هذا الفكر وتستجيب لما يمليه من خطط وأوامر.

بيد أن اليقظة الإسلامية راحت تواجهه، وتكشف أخطاره وسلبياته، وتقدم البديل الإسلامي الذي يعيد للأمة توازنها، ويدفعها لتمضي على طريق الصحوة والبناء والاستقلال.

لقد جاء الفكر الوافد بالفلسفة المادية والعلمانية والتفسير المادي للتاريخ والبراجماتية والعنصرية والنسبية والإباحية والوجودية والهيبية والبهائية.. وغيرها.

إن موقف الإسلام من الفكر البشري محكوم بالوحي، والفلسفة ليست قرينة الوحي ولا مناظرة له؛ ولذا فالإسلام حاكم على الناس والمدنيات والأمم ولم يجئ محكومًا بالناس أو تبرير النظم والأيديولوجيات، فضلًا عن كونه نظامًا متكاملًا له مقوماته المستقلة التي تخضع للأهواء والأغراض. وقد جنب مفهوم التوحيد في الإسلام المعارف الإسلامية الانقسام إلى ديني وعقلي[1]..

وفيما يلي بعض النماذج التي أسس لها الفكر الوافد ومخططاته، ووجدت لها صدى في الواقع الفكري والثقافي العربي والإسلامي، وكسبت بعض الأنصار

(1) أنور الجندي، التفسير الإسلامي للفكر البشري، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت، ص ٢٨٤

على تفاوت، ولكنها جميعًا شاركت في تعويق مسيرة النهضة العربية الإسلامية، وتسببت في كثير من المضاعفات والسلبيات.

النموذج الأول

ويمكن في هذا السياق مثلًا معالجة فكرة "الحضارة الواحدة" التي يتبناها الفكر الغربي الوافد. فهو يطرح مفهومًا فلسفيًا تاريخيًّا يقول بأن العالم لم يشهد غير حضارة واحدة؛ هي حضارة البحر الأبيض المتوسط، هذه الحضارة التي تتصل من القديم بالفينيقيين والبابليين والحيثيين والآشوريين والكلدانيين والآراميين وغيرهم، وهي التي لم تلبث أن أصبحت حضارة يونان ورومان، ثم دخلتها عناصر عربية في فترة من فتراتها، ثم لم تلبث أن عادت إلى أوروبة، ويرى أصحاب هذه النظرية أن الحضارة قامت على ثلاث قوائم هي: الفكر اليوناني والنظام الروماني والدين السامي.

وهذا المفهوم يحمل لواء العنصرية التي تنسب الحضارة إلى الغرب وحده، وأن الإسهام الشرقي فيها من جانب الوثنية البابلية والآشورية والفرعونية، وأن الشرق كله تابع لحضارة الغرب قديمًا وحديثًا.

والأمر ذاته ينطبق على ما يسمونه الدين السامي فهو يعود إلى عناصر هندوسية وفارسية ومصرية تم صهرها والانتقاء منها حتى انجلت عن دين حيّ فعال بعث في قلب الإنسانية الرجاء والأمل..! وهي ما يعني إزاحة الشرائع السماوية الكبرى التي ظهرت في الشرق.

موقف ظالم

ويقف المستشرق البلجيكي "جورج سارتون"(١٨٨٤ - ١٩٥٦)، وغيره من دعاة الحضارة الواحدة موقفًا ظالمًا من الإسلام، ينتقص من دوره الضخم في التغيير الجذري الذي أدخله على الفكر والتاريخ والجغرافيا. إذ يسند إلى العرب

دور الناقل لما ورثوه عن الفرس وما اقتبسوه من البيزنطيين والأقباط وما أخذوه من النصارى واليهود وصابئة حران الوثنية.

ويرى أصحاب هذه النظرية أن العرب لم يدخلوا التاريخ العالمي إلا عندما خرجوا من الصحراء وأنهم حين خرجوا من الصحراء ولّوا وجوههم نحو الغرب لا الشرق، ولم يكن للصحراء أثر محسوس في ثقافتهم وحضارتهم.

والحق أن العرب قد استمدوا وجودهم الفكري من محور "مكة" الأصيل الذي بدأ به إبراهيم وانتهى به محمد - ﷺ.

محور مكة ليس هو الصحراء الذي تصوره هذه الكلمة، ولكنه مهبط الوحي واكتمال الرسالة الخاتمة. فالصحراء بهذا المعنى هي التي أهدت للإنسانية أروع معطيات الحق والتوحيد. والمسلمون لا تطرف لهم عين في الاتجاه نحو الكعبة قبلتهم في الصلاة. فأثر الصحراء بهذا المعنى كان محسوسًا في كل مقدرات حياتهم منذ يوم بزغ ضوء الإسلام وإلى اليوم وإلى آماد بعيدة لا حصر لها.

مفاهيم الفكر البشري

لقد جاءت الأديان السماوية المنزلة بثمار المعرفة الإنسانية، ولكنها اختلطت بالفلسفات والتفسيرات البشرية فانحرفت المفاهيم الأصيلة واستعلت مفاهيم الفكر البشري التي سيطرت بالوثنية والعنصرية وعبادة الأجساد والأبطال وإعلاء العقل أو الوجدان؛ كما جرى في الفلسفتين الإغريقية والهيلينية الشرقية، وكذلك انحرفت الأديان السماوية عن مضامينها الأصيلة انحرافًا خطيرًا فظهرت نظرية: إله الجنود عند اليهود، والأبوة الإلهية عند المسيحية، ومن وراء ذلك نظريات إنكار البعث وما يسمى الالتزام الأخلاقي ممثلًا في وحدة الوجود وغير هذا من انحرافات.

ومن ثم فقد جاء الإسلام راسمًا المنهج الرباني الذي يهدي الإنسانية إلى التوحيد الحق ويحرر العالم من زيف نظريات الفكر البشري ومن اضطرابها وفسادها. ولم يكن كما صوره جورج سارتون وغيره من دعاة نظرية الحضارة الواحدة وارثًا للفرس والبيزنطيين والأقباط واليهود وصابئة حران الوثنية.

لقد حرفت اليهودية التلمودية التوراة والإيمان بالله الواحد ومفهوم الحنيفية السمحاء التي تجعل الناس أمة واحدة؛ لا فضل لأحد على أحد ولا جنس على آخر إلا بالعمل والتقوى، وأحلت العنصرية أو شعب الله المختار مكان ذلك.

الإله يهوه

في كتابه قصة الحضارة، يقول وول ديورانت:

"يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه على الصورة التي كانوا هم عليه وجعلوا منه إلهًا (هو الإله يهوه) فهو ليس خالقهم بل مخلوق لهم. وفي يهوه صفاتهم الحربية ويهوه إله قاس مدمر متعصب لشعبه؛ لأنه ليس إله كل الشعب بل إله بني إسرائيل فقط. وهو بهذا عدو للآلهة الآخرين، كما أن شعبه عدو الشعوب الأخرى، ومن خلال هذا التحريف نشأت نظرية الشعب المختار وفكرة السيطرة على العالم، وتغلغلت فكرة الشعب المختار في أعماق النفسية اليهودية حتى أصبحت جزءًا لا يتجزأ من الديانة اليهودية بحيث إنها تصبح والعدم سواء إذا جردت منها"[1].

ومن هنا كانت انطلاقة السيطرة على أساس أن المال هو الإله الحقيقي: على حد تعبير كارل ماركس حين يقول: إن المال هو إله إسرائيل المطاع وأمامه لا ينبغي لأي إله أن يعيش!

(1) وول ديورانت، قصة الحضارة، ص ٣٤/ ٢.

وكانت محاولة اليهود فرض هذا الإله على العالم، فإذا تحقق ذلك كان نصرًا ساحقًا لليهود. وأخذت اليهودية التلمودية تفرض نفسها مصدرًا للحضارة منذ فجر التاريخ واحتواء كل ما قامت الأمم المختلفة في منطقة الشرق من خلال دين إبراهيم، مع تجريف التاريخ بما يوافق هذه الغاية.

تجريف التاريخ

ويجري هذا التجريف مجاري عدة:

فهو يحاول أن يستوعب الفكر الإغريقي الوثني القديم ويستعيده من جديد، كما يجري تجديد الدعوات السابقة للإسلام كالفينيقية والآشورية والفرعونية.

ويحاول إنكار رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الجزيرة العربية وما يتصل بها من بناء الكعبة ونبوة إسماعيل، ومقاومة دعوة المسيح بالعنصرية التي جاء المسيح لمقاومتها.

وقد فصل القرآن الكريم في هذه القضية بإعلان نبوة إبراهيم وإسماعيل، وأشار إلى أن إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، وأن التوراة والإنجيل أنزلا من بعده، وقرر أن الحنيفية السمحاء هي التي شادت الحضارة التي عرفها الشرق كله وقامت على التوحيد، وأفسدتها العنصرية اليهودية!

إن العرب بالإسلام لم يكونوا قطعة غيار في الحضارة الواحدة، ولم يكونوا جزءًا منها، كما لم يكونوا حملة علوم قديمة وفلسفات وثنية لتقديمها مرة أخرى، بل كانوا واجهة عريضة خاصة، مختلفة كل الاختلاف متباينة كل التباين، تفرق فرقًا واسعًا بين فكر وفكر، ومفهوم ومفهوم، وحضارة وحضارة.

حضارة إسلامية متميزة

ومن العسير أن يقال إن هناك حضارة في حوض البحر الأبيض المتوسط، فإنه مذ جاء الإسلام انشطر هذا الحوض وقامت حضارة إسلامية لها تشكيلها الروحي

والفكري والنفسي والاجتماعي، ولها منهجها المعرفي والعلمي التجريبي الذي قدمته إلى البشرية كلها وقامت عليها الحضارة الحديثة.

إن الحضارة التي سبقت الإسلام حضارة وثنية؛ لأنها قامت على الفكر البشري الوثني، أما حضارة الإسلام فقد جددت الدعوة الحنيفية القائمة على التوحيد والأخلاق، وهو ما يؤكد زيف الدعوة القائلة بأن العرب كانوا جزءًا من حضارة البحر المتوسط القديمة والجديدة، ومرحلة من مراحلها.

لقد نوه هنري بيرين في كتابه "محمد وشارلمان" بأن الإسلام كان القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأوروبي حتى ليمكن أن يقال إن العصر الوسيط والنهضة الحديثة ثمرتان من ثمار جهود الإسلام.

لقد تلاشى ما كان للرومان من آثار ومعالم بمجرد وصول الإسلام إلى أراضيهم، ولولا ظهور الإسلام لظلت الإمبراطورية الرومانية، ولظل البحر الأبيض بحرًا رومانيًا، ولما قامت الثورات الأوروبية التي خلقت دول أوروبة الحديثة ولا الثورات الفكرية التي تمخضت عن الحضارة الراهنة[1]..

والغريب أن هناك من يحاول الآن أن يبعث فكرة الحضارة الواحدة بمفهومها العنصري الوثني، بقصد إقصاء الإسلام عن حياة المسلمين، وطمس دوره المتميز في بناء الحضارة الحديثة.

ولا شك أن الصحوة الإسلامية الراهنة تقوم بدور مهم في مواجهة هذه الفكرة الوافدة التي تخدم الصهيونية التلمودية، وتؤسس لتثبيت الوجود الاحتلالي في فلسطين العربية المسلمة.. والمأمول أن يكون هناك دور أكثر فعالية في التصدي لهذه الفكرة وإسقاطها من الحقل الثقافي المعاصر.

---

(١) راجع: السابق، ٢١٥ - ٢٢٨

النموذج الثاني

ومن القضايا التي شغلت الفكر المعاصر لزمن طويل ما سمي بالفلسفة الوجودية، وهي فلسفة تطبيقية نشأت من خلال مفاهيم فرويد في الجنس والنفس ودور كايم وليفي بريل في الاجتماع والأخلاق. وقد تحولت إلى حركة اتخذت من الكهوف وأندية العري وغيرها مجالًا لإبراز أجيال من الذين اتخذوا من هذه المفاهيم منطلقًا لحياتهم وعقائد سلوكهم.

مرت الوجودية بمرحلتين: الأولى رفض المجتمعات، والأخرى التمرد والغثيان والغربة والعبث واللامعقول، وأسست لدعوة جاءت بعدها وهي "الهيبية" التي سادت في مجتمعات الغرب فترة السبعينيات من القرن الماضي.

تسعى الوجودية لتحرير الإنسان من كل القيود الاجتماعية والدينية والخلقية كي يصل إلى الغربة واليأس والانفصال التام عن كل القيم حيث لا معنى للحياة، ويصبح الفرد سيد نفسه، ويستمد سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠) الذي تنسب إليه الوجودية؛ فلسفته من داخله ومن تحدياته الشخصية، كما استمد فرويد فلسفته ومفاهيمه.

يقول سارتر: "لقد صنعت ذاتي لأني لم أكن ابنًا لأحد، والإنسان لا يوجد بل يصنع نفسه، واليوم كغد، والغد كبعد الغد، وإنه لا طعم لشيء ولا لذة لشيء ولا أمل في شيء".

وتحاول الوجودية أن ترسم طريقًا للإنسان تضعه سيد العالم الحر الطليق لا رقابة عليه من أحد ولا مسئولية عليه لأحد، يفعل ما يشاء دون حدود، وينطلق وراء رغباته وغرائزه، فالإنسان محكوم بالحرية دون أن يكون خاضعًا لأية سلطة.

الوجودية المؤمنة

وقد بدأت فكرة الوجودية بكتابات كيركجارد (١٨١٣ - ١٨٥٥) التي سميت بالوجودية المسيحية أو المؤمنة؛ حيث حمل في مؤلفاته العشرين على مجتمعه الديني وهاجم الكنيسة داعيًا الناس إلى الإيمان بأنفسهم، وكانت بذلك حربًا على المسيحية ودعوة لهدم الأديان جميعًا.

ثم تحولت الوجودية من خلال كتابات هيدجر نحو الإلحاد، ثم جاء سارتر لِيُوَسّع النظرية ويعمقها من خلال مسرحياته وكتاباته الأخرى وتبعه على الطريق ذاته كثيرون في مقدمتهم ألبير كامي (١٩١٣ - ١٩٦٠).

لقد استلهم سارتر مفاهيمه الوجودية الملحدة من نيتشة، وجرى على نهج فرويد في اتخاذ الأساطير اليونانية منطلقًا لآرائه.

وجاء هذا التيار الوجودي الذي غلب على الفكر الغربي تحديًا للكنيسة في عدم استجابتها لطبائع النفوس وتعقيدات العقيدة؛ وأسرارها التي لا تعرفها إلا الكنيسة، ثم الجبرية والوصاية على الفكر البشري.

انتشار الوجودية

ساعد على شيوع الوجودية سببان أساسيان، أولهما: ما خلفته الحربان العالميتان الأولى والثانية من ضحايا بعشرات الملايين، ومن دمار هائل تم بمختلف الأسلحة ومنها الأسلحة النووية، وهو ما هز النفوس البشرية، والآخر: ما يرتبط بالكتاب الوجوديين أنفسهم من مشكلات ذاتية وَصَمَت حياتهم بالمرارة والألم، وتجعل منهم في الوقت نفسه غير صالحين ليكونوا من قادة الفكر، فليسوا في الطليعة من الأبرار الذين يحفزهم إيمان بالإنسانية أو يتطلعون إلى تقديم إضافات لرفع مستوى البشرية، ولا هم من العقل أو الحكمة في المحل الأول؛ فهم

مضطربون عصبيًّا، وقد صدمتهم أحداث الحياة بكثير من الأزمات التي حملت نفوسهم بالمرارة والحقد على المجتمعات فاندفعوا إلى هدمها، وهو ما بدا أكثر استجابة لخدمة الأهداف اليهودية التلمودية من النظريات الأخرى التي خفت صوتها وقل تأثيرها على مستوى العالم.

كان سارتر - كما تصفه رفيقته سيمون دي بوفوار (١٩٠٨ - ١٩٨٦) - يكره الحقوق والواجبات وكل شيء رصين في الحياة، وهو لا يهضم أن تكون له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعى وتفرض، ولن يكون أبدًا رب أسرة حتى ولا رجلًا متزوجًا. لم يكن سارتر يرى في الزواج شيئًا عظيمًا، كان فوضويًّا أكثر منه ثوريًّا، كان يجد المجتمع على ما كان عليه شيئًا محتقَرًا". وهو ما حفز كثيرًا من الشباب للسير على خطاه.

ولعل من أسباب نزعة سارتر هذه كما يقول بعض الباحثين؛ أنه ولد حيث لا أب ولا أم ولا أسرة. مات أبوه في شهره الثالث، أمه ممسوخة الشخصية لم تشعره أبدًا بسلطان أمومتها. والأسرة لا تتعدى جدين عجوزين يؤيانه مع أمه ويشعرانهما بأنهما ضائعان. فكان ينظر إلى البشرية نظرية مليئة بعطف مشوه أساسه الاحتقار.

وكان كيركجارد ونيتشه يعانيان مثل سارتر في حياتهما الخاصة مع تفاوت، فكانت وجهتهم بصفة عامة مقاومة الاعتقاد بالله، وكانت الصيحة الغربية "إلغاء الإله!".

ومن مقولات سارتر الشهيرة:" هذا العالم وجد بلا داع ويمضي لغير غاية".

ترس في آلة

انعكست هذه المعاني على الإنتاج الفكري والأدبي لسارتر، فظهرت بوضوح في كتابيه: الوجود والعدم، والغثيان، وإذا أضفنا أزمة العصر التي ترى الإنسان ترسًا في آلة أو قطعة غيار في جهاز؛ إلى مشكلة الدين لدى مفكري الوجودية،

فسوف نرى مأساة بعيدة الأثر في حياتهم، عجزت المعطيات الدينية والفكرية في الغرب عن تقديم حل لها، فكان الفراغ الروحي، والفزع من الحروب وأخطارها، وإنكار المقدسات، والاتجاه إلى الفوضى، وهو ما حاولت اليهودية الصهيونية استغلاله لإغراء الأجيال طريقًا للحياة.

فلسفة هدم

لقد وجدت الوجودية معارضة كبيرة بسبب مخالفتها للفطرة ومنطلقات البشرية إلى التقدم والحياة. وصفها روجيه جارودي بأنها فلسفة هدم لا بناء، ومحاولة لتدمير الشخصية الإنسانية، وإسقاط النفس البشرية في مجالات اللذة والشهوات حتى تصبح غير قادرة على الدفاع عن نفسها أو تركيز وجودها.

وقال جاك بيرك:" إن الوجودية ظاهرة زمنية عابرة لن يلبث الإنسان أن يتخطاها، وهي ليست روحًا Essence ".

ولعل أهم بواعث الفلسفة الوجودية أنها لبنة في مخطط اليهودية التلمودية لتحطيم الأديان والأخلاق والقيم، أما مصادرها فهي الشخصيات الموصومة غير السوية المتميزة بالقلق والحيرة، وجاءت القوى المصدرة للفكر فأذاعتها ونشرتها ودقت لها الطبول.

وقد أجمعت المراجعات التي تناولت الوجودية على حقائق مهمة، منها:

أولاً: إنكارها لمحصول البشرية من التجارب في الماضي وتدعو إلى تجاهله، فضلًا عن احتقارها لقيمته.

ثانيًا: إنكارها للواقع الإنساني والتاريخ الاجتماعي كله؛ لأنها تنطلق من مفهوم الوجود الذاتي الفردي.

ثالثًا: تقوم الأخلاق في الوجودية على القلق والقنوط والتشاؤم والرغبة في الموت والغموض والأنانية المفرطة.

رابعًا: تدعو كتابات الوجوديين إلى التفكك والانحلال والفوضوية، وانتقلوا إلى الواقع بالعيش في كهوف الوجوديين لممارسة لون مريض بشع من الحياة.

خامسًا: اتسم الفن والأدب والصحافة والسينما في الوجودية بطابع البدائية المغرقة في الإباحة والعري والجنس.

سادسًا: ظهور الحقد الدفين على الكنيسة حيث اتخذت الوجودية من الدين هدفًا لحملاتها.

سابعًا: عزل الوجوديون الإنسان عن الجماعة، وركزت على إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الإنسانية، وأنكرت القيم الخالدة.

ثامنًا: التجرد من القيم والمبادئ التي قدمتها الأديان المنزلة للبشرية في مجالي العقيدة والأخلاق.

ويذكر الأستاذ أنور الجندي أن الأستاذ العقاد نبّه منذ زمان إلى علاقة الفلسفة اليهودية التلمودية بسلسلة الفلسفات الحديثة المتتابعة، وأن الوجودية حلقة من حلقات هذه السلسلة، ولن نفهم هذه الفلسفات مالم نفهم هذه الحقيقة وهي أن إصبعًا من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالأخلاق والقيم والقواعد الاجتماعية. فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية، واليهودي دور كايم وراء علم الاجتماع الذي يجعل نظام الأسرة مصطنعًا، واليهودي أو النصف يهودي سارتر وراء الوجودية لتعزيز الفردية والجنوح بها إلى الحيوانية التي تصيب الفرد والجماعة، واليهودي سيجموند فرويد كان من وراء علم النفس الذي يرجع

السلوك والميول البشرية إلى الغريزة الجنسية[1]..

وأذكر أنه طوال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي كان الاهتمام كبيرًا بسارتر وزملائه في الوجودية، وراحت المجلات الأدبية ودور النشر والصحافة والإعلام في العالم العربي وخاصة في بيروت والقاهرة وبغداد تترجم ما يكتبه الوجوديون من كتب ومقالات وتصريحات.

زيارة إلى القاهرة

وكان الاهتمام الأبرز في أواسط الستينيات؛ هو دعوة جريدة الأهرام المعبرة عن النظام المصري ومن خلال رئيس تحريرها محمد حسنين هيكل لجان بول سارتر ورفيقته سيمون دي بوفوار التي تعيش معه دون زواج رسمي لزيارة مصر.

وقد حظيت الزيارة باهتمام كبير، ثم لقاء سارتر مع رئيس النظام، مع حفاوة غير عادية قامت بها الحكومة والجريدة والكتاب الشيوعيون خاصة، فقد كان من ضمن قبول الدعوة إطلاق سراح من تبقى منهم في المعتقلات قبل وصوله إلى القاهرة.

المفارقة أن بعض المحتفين بسارتر ورفيقته كانوا يطمحون إلى أن يؤيد سارتر العرب في القضية الفلسطينية، ولكنه بعد عودته إلى باريس كان موقفه مغايرًا لموقف العرب مؤيدًا للعدو، وإن أبدى بعض الأسف من أجل اللاجئين في المخيمات الفلسطينية، وجاءت هزيمة ١٩٦٧ ليقود سارتر أكبر مظاهرة في باريس دعمًا للكيان الصهيوني في فلسطين وتعبيرًا عن الفرح بانتصاره واحتلاله للقدس وأراضي ثلاث دول عربية، وراح يدعو إلى اكتتاب وجمع تبرعات مالية لمساندة الغزاة اليهود المعتدين!

(1) راجع: أنور الجندي، التفسير الإسلامي للفكر البشري، ص ١٨٧ - ١٩٩، ومعلمة الإسلام، الوجودية، مادة رقم ١٤ / ١، وتوماس آرفلين، الوجودية، ترجمة: مروة محمد عبد السلام، ط١، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٤م

تراجع الوجودية

وقد ظهر التأثر جليًا بالوجودية في كتابات بعض الأدباء والمفكرين المصريين، طوال الستينيات والسبعينيات، ولكن الوجودية بوجه عام تراجعت مع الصحوة الإسلامية وانفراجة حرية التعبير نسبيًا في عهد السادات وما بعده، وسقوط الشيوعية وتفكيك الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية.

النموذج الثالث

على المستوى السياسي الاستراتيجي كانت هناك فكرة القومية العربية التي نشطت في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، وصورها الإعلام العربي آنئذ في صورة الحلم الذي يحلم العرب بتحقيقه ليقيموا دولة واحدة قوية من المحيط إلى الخليج يخشاها الأعداء وتحرر فلسطين من الصهاينة، ولكنها في الحقيقة كانت بمثابة مؤامرة لتمزيق الوحدة الإسلامية السياسية والاجتماعية والفكرية التي كانت تستظل بكلمة التوحيد. وتبين فيما بعد أنها جاءت لترسخ الإقليمية في الدول التي لها تاريخ قديم سابق على الإسلام، وتفصم عرى العروبة والإسلام، واستخدمت في مصر باسم الفرعونية وفي سورية باسم الفينيقية وفي العراق باسم الآشورية والبابلية، وفي المغرب باسم البربرية لقطع الارتباط بين أمة الإسلام وتاريخها ولغاتها القديمة.

وقد تردد تصريح خطير على ألسنة كثير من دهاقين السياسة في أوائل القرن العشرين لخصه كبير المبشرين البروتستانت الدكتور صموئيل زويمر حيث قال:

"إن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات".

وكان مضمون القومية الغربية الوافدة مقترنًا على الدوام بفكرة التفوق الشعبي واحتقار الأمم الأخرى، وهو معنى عنصري لا يقره الإسلام ولا يرضاه، بالإضافة

إلى أن الفكرة القومية الوافدة تعارض مفهوم الإسلام وتعده دينًا لاهوتيًا، وهو ليس كذلك بالطبع، بل هو منهج حياة ونظام مجتمع.

القومية الغربية الوافدة

ولا شك أن القومية الغربية الوافدة دعوة عنصرية تستهدف قطع الروابط والصلات الجامعة بين المسلمين، وتفريق الأمة الإسلامية إلى كيانات؛ فضلًا عن عملها في عزل العرب عن التاريخ الإسلامي ببطولاته ومواقفه، وحصرها في التاريخ الإقليمي، وأيضًا عزل الأدب العربي الحديث عن الأدب الإسلامي، وفرض مناهج التفكير الغربي في السياسة والاقتصاد والقانون والتربية على المسلمين[1]..

وبصفة عامة فإن النظرية الغربية في القومية تحمل ثلاثة محاذير خطيرة:

أولاً: طابع الاستعلاء الجنسي المغلق في مواجهة الأمة الإسلامية.

ثانيًا: الانعزال الكامل عن التاريخ والتراث والمقومات الإسلامية.

ثالثًا: خلق وجود معاصر منفصل تمامًا عن الإسلام وعن العالم الإسلامي متصل بالغرب، مطمئن إلى تفسيراته وقيمه وطوابعه. (انظر السابق: ص٧)

وقد عمد الاستعمار أو النفوذ الغربي إلى طرح مفهوم للعروبة مستمد من مفهوم القوميات الغربية استشرى أمره، وتجاوز إلى طرح عدة نظريات لتمزيق وحدة الفكر الإسلامي، والحيلولة دون الالتقاء في كيان جامع واحد. فكانت هناك الدعوة إلى القومية الوطنية، والدعوة إلى القومية اللبنانية، والقومية السورية والقومية المصرية، وكانت هناك دعوة القومية المستمدة من مفهوم النظرية الألمانية أو النظرية الفرنسية، وإحداهما تعتمد اللغة أساسًا، وتعتمد الأخرى مفهوم المشية[2]..

---

(1) انظر أنور الجندي، سقوط مفهوم القومية الوافد، دار الأنصار، القاهرة، د.ت، ص ٢٢

(2) راجع السابق أيضًا، ص٦،٥

ساطع الحصري

كان من أبرز دعاة القومية العربية السياسي العراقي ساطع الحصري (١٨٨٠-١٩٦٧)، وتبنى دعوته القومية حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية والعراق، وقد لمع نجمه مع الحرب العالمية الثانية، وحظي بشهرة واسعة حتى وُصف بفيلسوف القومية العربية، وكان من أوائل دعاة الفصل بين العرب والمسلمين وفقًا لمفهوم القومية الوافد.

نشأ ساطع الحصري في ظلال المدرسة الاتحادية التركية التي نادت بالقومية الطورانية التركية، وكان مديرًا للتعليم في الدولة الاتحادية التي حكمت تركيا بعد خلع السلطان عبد الحميد. وقد آمن بفلسفة الاتحاديين ونقل فكرهم إلى العرب، وكان أول من حمل لواء العنصرية والعرق والدم بديلًا لمفاهيم الإسلام الذي يقوم على الإخاء الإنساني. وقد ركز على اللغة والتاريخ وعزلهما عن الفكر الإسلامي الجامع.

عرب نعم. إسلام لا

وينقل الأستاذ أنور الجندي عن مختار الوكيل مدير مكتب الجامعة العربية في جنيف، وهو رجل مؤمن صادق كما يصفه الجندي؛ أنه في خلال عمله زار ساطع الحصري سويسرا، ورأى عبد الفتاح حسن السفير المصري وقبِلَ دعوته إلى طعام الغداء، فلما قدم مع الوكيل حيّاه السفير المصري قائلًا:

"مرحبًا بالمناضل الكبير في خدمة العروبة والإسلام"

وقد عجب الرجلان من ساطع الحصري الذي ردّ في حدّة وعنف:

"عرب نعم، إسلام لا. أنا لاييك.. أنا لاييك".

وكلمة لاييك تعني أن صاحبها علماني أو لا ديني. (تشيع الآن في الميديا لائكي أو لائكية، وتسند غالبًا إلى الشيوعيين أو اليساريين، أو العلمانيين عمومًا).

وعلى كل حال فقد فشلت نظرية ساطع الحصري بعد ثلاثين عامًا؛ لأنها فرغت مفهوم العروبة من قيمه وتاريخه، وعناصره الخلقية والروحية وجعلته مفهومًا ماديًّا خالصًا.

والمفارقة أن ساطع الحصري اعترف بأن قومية الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة تقوم على الدين، ولكنه رفض الإسلام بوصفه- كما يزعم- دينًا لاهوتيًّا![1].

والمدهش أن طرح فكرة القومية العربية كان عامل تمهيد لطرح فكرة القومية الصهيونية، ومجالًا لظهور دعوة القومية الكردية وغيرها من قوميات، وكان أخطر ما هنالك محاولة دعاة القومية إلى إيجاد بديل أشبه بالدين يحل محل الإسلام، وصياغة عقيدة قومية كلية تضاهي في كليتها وشموليتها الفكرة الشيوعية. أي إن الهدف الحقيقي هو إحلال القومية محل الإسلام، وأن يصبح العرب بين خيارين: إما الشيوعية أو القومية المادية الوثنية.

وكانت النتيجة في نهاية الأمر أن الوحدة العربية لم تتحقق بين دعاتها وأنصارها الذين اتخذوها شعارًا لهم، ولم تحقق القومية شيئًا للعرب المؤمنين بها، ثم إنها استنفدت أغراضها، بعد أن دفع العرب ثمنًا غاليًا لفشلها، وانفتح الباب أمام الإسلام من جديد والصراع مع الغرب والصهيونية[2]..

النموذج الرابع

بيد أن الفكر الوافد من الشرق- وهو صناعة غربية في الأساس - قدم ديانة جديدة اسمها البهائية؛ تمزج أخلاطًا من الديانات السماوية والوضعية، ووجدت لها أتباعًا في عديد من الدول وخاصة دولة المنشأ وهي إيران.

(1) راجع السابق: ص ٢٣ وما بعدها

(2) انظر: السابق: ص ١٩ وما بعدها

جاءت البهائية لتمثل محاولة لخلق دين أو مذهب جديد يحتوى على رغائب فرق العالم والمولعين بالجديد وتذويب الأديان المنزلة (اليهودية والمسيحية والإسلام)، في مذهب واحد يقوم على أساس ما يتفقون عليه جميعًا وهو التوراة ودين موسى.

وتقوم البهائية على التأويل شأنها شأن الدعوة الباطنية القديمة، وتستهدف أساسًا تأويل نصوص الشريعة بما يغير أحكام الصلاة والصيام وإبطال الحج، وإنكار المعجزات الإلهية، والقول بقدم العالم، ولها كتاب مرجعي يسمى "الأقدس" إلى جانب كتب أخرى.

كما تستهدف تحويل القرآن والسنة وصرفهما عن الحكمة والهداية، والزعم بأن البهائية ناسخة للشريعة الإسلامية، ومن ذلك مساواتها الرجال والنساء في الميراث ومعارضة الجهاد والدعوة إلى نزع السلاح وعدم مقاومة العدو ونشر السلام ونبذ العصبيات الوثنية وإنكار البعث والجنة والنار وتأويل ما جاء بشأنهما في القرآن الكريم؛ فتقول إن الجنة والنار في الكتب المقدسة حقائق مرموزة. كما تنكر البهائية صفات الله وإعجاز القرآن وأنه من عند الله.

وتنسب البهائية نفسها إلى بعض فرق الشيعة، ولكن علماء الشيعة هاجموها، وحكموا بكفر دعاتها وارتدادهم.

ومن أهدافها: مهاجمة اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن، والدعوة إلى ما يسمونه اللغة النوراء، على أساس أن اللغة العربية هي وعاء القرآن، لغة العبادة والثقافة للمسلمين، فضلًا عن أنها لغة العرب كافة ولغة الفكر الإسلامي كله.

فارس الإمبراطورية

نشأت البهائية في إيران ودخلها اليهود هناك بشكل جماعي، وبلغ عددهم في أربع مدن وفي خلال وقت قصير ٣٨٥ يهوديًا، وقد روَّج لها المستشرق الماسوني جولد زيهر، والمبشرون لورد كرزون، واستلين كاربنتر، براون، فامبري، الكونت جوبينو، البروفيسور جيمس وغيرهم.

وقد أنعمت بريطانيا على عباس عبد البهاء- مؤسسها- بأعلى الألقاب (فارس الإمبراطورية البريطانية) تقديرًا له على ما أبداه من الكرم والإكرام للجنود البريطانيين في فلسطين (كان مقيمًا بحيفا في أثناء الحرب العالمية الأولى)، وقد احتفل بدفنه في فلسطين في احتفال كبير حضره هربرت صمويل المندوب السامي البريطاني اليهودي الأصل.

وكان عباس عبد البهاء (١٨٤٤ - ١٩٢١) ماجنًا مفرطًا في مجونه، واتضح ذلك إبان زيارته لسويسرا وإنجلترا وفرنسا، فأساس دعوته التحرر من كل شيء، حتى العري صار مباحًا لدى البهائية. كما كان يشيد بالأفكار المجوسية ويندد بدعوة الأنبياء، ويصفهم بأنهم أصحاب أوهام وخرافات أفسدت عقائد الشرق.

الكابالا

وقد انعقد المؤتمر العالمي للبهائيين في فلسطين المحتلة عام ١٩٦٣، وهو أخطر الأحداث في حركة البهائيين؛ لأنه أظهر العلاقة الوثيقة بين الماسونية اليهودية التلمودية.وهذه الحركة التي استمدت أغلب مفاهيمها من الكابالا اليهودية.

ويؤكد ذلك استجابة البهائيين لأهداف الصهيونية في تحريم الجهاد على أتباعهم، وقد ذكر أحد البهائيين أنه لو أجبر على حمل السلاح في مواجهة الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة لأطلقه في الفضاء وأن ذلك هو شعار البهائية.

تحاول البهائية أن تصبح دينًا عالميًّا جديدًا بدعم من قوى كبرى وأموال ونفوذ وإعلام، ولكنها لم تحقق ما تريد، فالبشرية- كما يقول العلامة محمد فريد وجدي- ليست في حاجة إلى دين جديد بعد الإسلام؛ فإنه استكمل شرائط الدين العام جميعًا[1]..

(1) أنور الجندي، التفسير الإسلامي للفكر البشري، ص ٢٤٠ - ٢٤٥

وللأسف الشديد، فإن اليساريين المصريين خاصة والعلمانيين عامة يظاهرون البهائيين، ويدافعون عنهم، بل يطالبون بالاعتراف بهم دينًا من الأديان، وإثبات ديانتهم في بطاقات التعريف بالشخصية، وتخصيص مقاعد لهم في المجلس النيابي، ومشاركتهم في أعيادهم المزعومة، وبناء معابد لهم.

قراءة في الوثائق

وقد تصدى للبهائية نفر من كبار الكتاب في مقدمتهم الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)- رحمها الله- فكتبت سلسلة من المقالات المهمة طوال شهر رمضان ١٤٠٥هـ في الأهرام؛ حيث كان يستضيفها سنويًا في الصفحة الرمضانية طوال الشهر الكريم، ثم أصدرت بعدها مباشرة عن مركز الأهرام للترجمة والنشر سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، كتابها الضخم "قراءة في وثائق البهائية"، ويقع في ٣٦٠ صفحة من القطع الكبير، صدرته بالآية الكريمة "هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" (إبراهيم: ٥٢).

وختمته بوصيتها إلى الأمة حيث لم تنظر إلى البهائية بوصفها نحلة لطائفة من غير ديننا، ولكنها تنظر إليها من ناحية الكيد للإسلام وعداوة أمته.

والكتاب يعد من أوفى المراجع الموثقة في بيان بواعث النحلة ودوافعها، ومسيرتها وأهدافها، ورجالها وصناعها، وواجب المسلمين في التصدي لها.

النموذج الخامس

ولعل أخطر ما جاء به الفكر الوافد وكشفت عنه الدراسات الجادة والبحوث الرصينة ما قامت به اليهودية التلمودية في مجال غزو الفكر الإسلامي انطلاقًا من التاريخ القديم، فقد زيفت هذا التاريخ لتنقض على التاريخ الإسلامي وتؤسس للفلسفة الماسونية المسمومة مؤامرة الصهيونية على أرض فلسطين والعالم العربي الإسلامي.

فقد قام اليهود بتزييف التاريخ القديم والأديان والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) واللغات، وحاولوا التبديل والتغيير، ويلتمسون ما يستطيعون التماسه من القرائن والمعارضات والتناقضات بفكر مسبق يستهدف إثبات أن لهم حقًّا في فلسطين، وأن لهم تاريخًا متصلًا وأثرًا في الفكر الإنساني ودورًا في الحضارة.

بدأت هذه المحاولات بنشر التوراة متصلة بالإنجيل على ما بينهما من تناقض واختلاف، وذلك لحمل المسيحية على تبني دعواهم الباطلة في الوعد الإلهي لإبراهيم لقصره على إسحق وأبناء إسرائيل (يعقوب) وحجب إسماعيل أبي العرب والمسلمين وابن إبراهيم الأكبر. ثم محاولة إيجاد تاريخ لهم في فلسطين بينما الحقائق التاريخية الدامغة تؤكد أن اليهود لم يكن لهم وجود قائم أو مستمر فالعرب أقدم منهم في استيطان فلسطين، وأن الإسلام قد ألقي إليه ميراث النبوة كله، وأن الحق تبارك وتعالى أورث محمدًا- ﷺ- الأرض المقدسة وجعلها لأمته إلى يوم الدين، وأن عمر بن الخطاب أجلى فلول اليهود من فدك وتيماء ووادي القرى.

اليهود نوعان

وقد أثبتت الحقائق التاريخية أن اليهودية ليست دمًا، وأن يهود اليوم ليسوا أبناء اليهود الذين سكنوا فلسطين مدة قصيرة من الزمان، واليهود الآن نوعان: الشرقيون (السفارديم)، والغربيون (الأشكناز)، والفريقان يتناقضان تناقضًا صارخًا في المزاج والتقاليد. ويلاحظ أن النوع الثاني (الأشكناز) متهودون تهوّدوا في التاريخ الوسيط، ويتكلمون لغة اليديش، وهي إحدى اللهجات الألمانية المحشوة بكلمات عبرية محرفة على الأغلب.

جنس الخزر

إن اليهود الذين يقومون بالحركة الصهيونية ليسوا من بني إسرائيل، وإنما هم من جنس خزري آري (أي ليس ساميًّا) ودخلوا في صراع مع المسيحية الأرثوذكسية في روسيا وبولندا، فقُتلوا وشُتتوا بعد اغتيال القيصر! ويلاحظ أن اليهود يحولون

بين ورود مادة الخزر في معظم دوائر المعارف العالمية حتى لا ينكشف أن هناك شعبًا تهوّد قبل المسيح بقرنين أو ثلاثة في الحوض الشمالي لنهر الراين بأوروبة وتفرع هذا الشعب الذي اعتنق اليهودية إلى جماعات متعددة، استوطنت بولندا ووسط أوروبا وروسيا الغربية. ومعنى هذا أن تسعة أعشار اليهود في العالم من سلالة غير سلالة يعقوب، وأن من يتصدرون الدعوة الصهيونية اليوم هم من سلالة جرمانية سلافية أوروبية محضة تكاثرت منذ القرن الثالث الميلادي.

التوراة المتداولة كتاب بشري

إن التوراة التي يحاول اليهود أن يجعلوها مصدرًا من مصادر التاريخ هي كتاب بشري كتبه أحبار اليهود بأيديهم في منفاهم البابلي، وليس لها أية قيمة علمية أو تاريخية، وليس فيها أي نفحة من نفحات الروح أو الإيمان أو الخير، فهي تصور اتجاهًا عنيفًا قاسيًا مستعليًا على البشرية يهدف إلى السيطرة ويدمر ويقتل ويرسم طريقًا عنصريًا يحجب حقائق التاريخ الأصيل وينكر حقائق التاريخ. وأبرز الأدلة على بطلانها أنها لا تعترف بإسماعيل أبي العرب والمسلمين، ثم إنها تجعل العلاقة بين الأنبياء وبين الله سبحانه تقوم على الصراع وعدم الثقة.

وقد وجه الباحثون الغربيون وخاصة بعد إخضاعها للنقد في القرن السادس عشر عديدًا من الانتقادات التي تجعلها كتابًا بشريًا لم يكن وحيًا ولا من عمل موسى. على سبيل المثال رأوا تشابهًا بينها وبين الأساطير اليونانية والسومرية والبابلية والسورية، وأن عقيدة التوحيد التي تقدمها التوراة قائمة على ركائز وثنية موغلة في القدم.

لقد صمتت التوراة عن حقائق أوردها القرآن الكريم مثل البعث، ولم تفصّل خلق آدم، وتصوّر خطيئته تصويرًا بشريًا صرفًا، وفكرة الإله في التوراة لا تختلف عن فكرة البابليين عن الآلهة الذين يمشون على الأرض.

والأخطر أن الصهيونية تتخذ من التوراة وسيلة لخداع الغربيين زعماء وشعوبًا في محاولة اكتسابهم إلى جانبها في معركتها مع العرب باسم الدين، وقد زينوا لهم فأطلقوا على التوراة (العهد القديم) وعلى الإنجيل (العهد الجديد)، وأوهموا مسيحيي الغرب أن إيمانهم يظل منقوصًا ما لم يؤمنوا بكل ما جاء في العهد القديم، وقد أدرجوا التوراة في المناهج الدراسية في دول الغرب على أنها مادة تاريخية.

موقف الإسلام

ويمكن تلخيص موقف الإسلام من التاريخ القديم الذي يحاول اليهود صياغته من جديد على نحو يخدم أهدافهم العدوانية ودفاعهم عن دعوتهم الصهيونية؛ في النقاط التالية:

أولاً: يقرر الإسلام أن اليهودية خرجت عن أصولها وغرقت في الوثنيات القديمة، وشكلت فكرًا يستهدف غايتهم الباطلة في السيطرة المادية ونشر الإباحية والفساد، وصارت مفاهيمها قائمة على المادية الطاغية والربا والتحلل والدهرية وإنكار الآخرة والحساب وثبات الأخلاق.

ثانيًا: كشف الإسلام عنصرية اليهود وادعاءهم التميز عن خلق الله.

ثالثًا: كما كشف فساد مفهومهم للألوهية؛ حيث غيروا المفهوم الرباني وادَّعوا إلهًا خاصًا لهم سموه الإله يهوه، وهو كما وصفته التوراة متوحش شرير شغوف بالفساد وإراقة الدماء (يهوه رب الجنود). ويعد إنكار البعث من أخطر مفاهيمهم وأن الدنيا هي كل شيء، والسعي لها هو وحده العمل.

رابعًا: وضح الإسلام خطأ مفهومهم عن "الغاية تبرر الوسيلة" وجواز اتخاذ الوسائل الشريرة في سبيل تحقيق الغايات العليا والنجاح مثل الكذب والغدر والوقيعة، زعمهم تطور الأخلاق، بينما يؤمن الإسلام بثبات الأخلاق والتماس الخير والبر والصدق سبيلًا إلى تحقيق الغايات العليا.

خامسًا: أبان الإسلام عن تزييف اليهود للصلة بين التوراة والأديان التي جاءت بعدها، وخاصة ما يتصل ببعثة النبي محمد- ﷺ- الذي جاء وصفه في التوراة، وقد حرّف اليهود هذا النص كي يجعلوا اليهودية دينًا نهائيًا، وأنكر عليهم الإسلام دعوى الجبر التي يدينون بها ودعوى التشبيه وما يعتقدونه عن الرجعة، فكل هذه المفاهيم ليست من دين الله الحق.

سادسًا: قرر القرآن الكريم أن التوراة المتداولة قد أصابها التحريف والتعديل والنسيان والإخفاء، فهي ليست التوراة الإلهية ذات التعاليم المقدسة والشريعة الربانية. قال تعالى: "فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً - يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ - وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ - وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ - فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ.."(المائدة: ١٣).

سابعًا: حفلت التوراة بأكاذيب نفاها القرآن وكذّبها، واتهامات للأنبياء: لوط وسليمان وداود، كما تضمنت الشريعة التفرقة العنصرية، بوصف اليهود أنهم الشعب المختار، والشعوب الأخرى أقل درجة، ومباح لليهود قتل غير الإسرائيليين وغزو الشعوب الأجنبية "ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (آل عمران: ٧٥)[1]..

وبصفة عامة؛ لقد ارتبط الفكر الوافد من الغرب بمخططات عدوانية مسلحة صريحة، تأتي من جانب الغرب واليهود، أو تحدث بالوكالة يقوم بها عرب ومسلمون أو غيرهم من أطياف المقيمين في العالم العربي.

وما كان هذا الفكر الوافد إلا تمهيدًا لتحريك العناصر المسلحة المقاتلة التي استهدفت البشر والحجر، واستنزفت كثيرًا من الموارد والثروات، وصنعت كثيرًا

(١) راجع: أنور الجندي، المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية، ط٢، دار الاعتصام، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م، ص ١٨٣ - ١٩١

من الهزائم المذلة التي تسببت في تخلف الأمة وضعفها وهوانها. وما حروب أفغانستان والعراق وسورية وجنوب السودان واليمن وليبيا... وغيرها إلا تجسيد لهذا البؤس الذي تعيشه الأمة نتيجة لبعدها عن منهج الإسلام، واستجابتها- بالأحرى استجابة النخب المهيمنة- للفكر الوافد ومخططاته بصورة وأخرى.

اعتراف الجنرال

ويبدو أن مرور الأيام يكشف عن كثير من مخططات الغرب وفكره الوافد، وعلى سبيل المثال بعد مرور أكثر من عشر سنوات على غزو الولايات المتحدة للعراق وتدميره يعترف الجنرال الأميركي فلين بأن الرئيس العراقي الراحل صدام حسين كان قاسيًا، لكنه اعترف أيضًا أن القضاء عليه لم يكن صائبًا، وقال "لو لم تقم الولايات المتحدة بغزو العراق لما ظهرت داعش (تنظيم الدولة الاسلامية)".

ولكن الجنرال لم يتحدث عن أن هذا الغزو كان من أجل الكيان الصهيوني بالقضاء على جيش عربي كان يمكن أن يكون له دور كبير في إيقاف تمدد الاحتلال اليهودي وردعه. وقد آثرت الولايات المتحدة ومن معها من دول الغرب أن تقضي على الجيش العراقي وتبث الفتنة الطائفية والمذهبية والعرقية في أرجائه، فيشتعل الصراع بين الشيعة والسنة، وبين العرب والكرد، وبين المسلمين وغير المسلمين.

لقد كان من وراء الغزو والتخطيط له فريق من اليهود والصليبيين المتعصبين؛ بزعامة المؤرخ البريطاني برنارد لويس، وريتشارد بيرل، وبول وولفوفيتش وبرنارد هنري ليفي، فقد وقفوا خلف الحملات الإعلامية والسياسية والفكرية لتسويغ العدوان(1).

إن الفكر الغربي الوافد مع مخططاته نجح إلى حد كبير في إبعاد النخب

(1) تصريح الجنرال فلين ورد في أخبار وكالات الأنباء ٣٠/ ١١/ ٢٠١٥

الثقافية التي تقود العرب والمسلمين عن معطيات الإسلام وغاياته، فسقط أغلب المسلمين فريسة للوحشية الغربية الصهيونية التي استطاعت أن تحتل فلسطين كلها بما فيها القدس العتيقة، وأراضي دول عربية أخرى، بالإضافة إلى أفغانستان والعراق وسورية، مع تمزيق السودان وإشعال الحروب في أماكن أخرى.

ومع تجدد الأحداث اليومية التي تمر بالعرب والمسلمين، ندرك كم كان أنور الجندي يؤذن في الناس ويدعوهم إلى الوعي بما يجري من حولهم وفي داخلهم وكم كان مجاهدًا عظيمًا في مناخ كله حصار واشتباه وعدوانية ضد الفكر الإسلامي، وفي حدود إمكاناته المحدودة، ضحى بمعاشه وموارده القليلة، ووقته وجهده؛ ليترك لنا تراثًا ضخمًا من الكلمات والصفحات التي ترشد وتهدي وتضيء وتحلل وتتابع وتفرز وتصنف وتنقب وتفتش، وتقول لنا: احذروا! وخذوا بالأسباب كي لا تؤخذوا على غرّة.

***

خاتمة

هذا رجل من بقايا السلف الصالح- ولا أزكيه على الله- فقد نذر حياته وجهده وما يملك لله، وخدمة الدعوة والفكر الإسلامي، وعاش زاهدًا في الدنيا وزخرفها، غير طامع في منصب أو جاه أو شهرة. همه الأول إضاءة جوانب الإسلام الرائعة وقيمه الإنسانية العظيمة، والدفاع عن المسلمين ضد المخططات الشيطانية الشريرة، وكشفها بالوثائق؛ لينبّه ويحذر، ويحثّ على الدفاع والمقاومة.

وقد أخذ نفسه بالعمل الجاد والإصرار والمثابرة في تحصيل المعرفة والثقافة، وتقديم ما يصل إليه من خلال الإقناع والدليل والبرهان، فكان عطاؤه الأدبي والفكري غزيرًا وسخيًّا.

ثم إنه كان في كل الأحوال نموذجًا للكاتب المسلم الذي يتحرى في كل كلمة يكتبها أن تكون خالصة لوجه الله ثم خدمة الإسلام والمسلمين، فكان في كتابة القصة والرواية والمقالة والحوار والبحث يعمل لتكون غايته إسلامية غير مفصولة عن المعتقد والإيمان، وجعل قضاياه الأدبية والعامة مرتبطة بسلامة الدين والنفس، فتناول محاولات التزييف والتضليل تحت أقنعة الحرية والتجديد والحداثة والمصطلحات الغائمة والفضفاضة.

كانت متابعته لحركة اليقظة الإسلامية والصحوة الإيمانية ودفاعه القوي الذي لا يتزعزع عن منهج الإسلام وارتباطه بحركة المجتمع، وعن اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم والتشريع الإسلامي مبدأ ثابتًا في كل ما خطه قلمه.

وفي أدبه وكتاباته كان حريصًا على فكرة ارتباط الأدب العربي بحاضنته الفكرية الإسلامية في مواجهة من قطعوا أواصر أدبهم بالدين الحنيف، وقلدوا بعض المذاهب الأوروبية التي ثارت على الكنيسة، وحاربت المسيحية، بل الأديان بصفة عامة.

ولعل هذا كان من وراء كشفه لمواقف الشعوبية في الأدب العربي، ومحاولاتها الدءوب لمسخه وتشويهه، وفصله عن قيم الإسلام، وربطه بالمادية والغريزة.

لقد ظل أنور الجندي مهمومًا بحركة الإسلام والمسلمين منذ البعثة النبوية حتى رحيله إلى رحاب الله، فأرَّخ لتاريخ الجهاد عند المسلمين، ومواجهتهم لأعداء البشرية والفطرة الإنسانية، وتصدى لنظرياتهم المادية الهدامة التي أرادوا بها أن تحل محل الإسلام وفي مقدمتها العلمانية في صورتها الكلية الوحشية.

لم يكتف أنور الجندي بذلك بل كان معنيًّا بتحرير الواقع الثقافي من الوثنية والصنمية التي حولت بعض الشخصيات الأدبية والفكرية إلى أصنام معبودة، وأوثان تقدم لها القرابين طاعة وخضوعًا واستسلامًا، فتجرأ عليها وهدمها، وجعلها تعود إلى طبيعتها الإنسانية يجري عليها ما يجري على بقية الناس من الصواب والخطأ.

ورأى أن المفاهيم الإسلامية الصحيحة تتوارى أمام المفاهيم الخاطئة والملوثة والوافدة المليئة بالسموم والأخطار، فوجَّه جهده لتصحيحها، وحذر من الفكر الوافد ومخططاته، وخاصة ما تقوم به الصهيونية التلمودية ومؤسسات الاستشراق والتبشير أو التنصير بمعنى أدق.

إن إنتاج أنور الجندي تصعب الإحاطة به في مثل هذه الدراسة المتواضعة التي استهدفت التعريف الموجز به. فهناك كثير من التفصيلات تحتاج إلى دراسات مستقلة وبحوث عديدة.

لقد صار من المأمول أن تنهض مؤسسة إسلامية أو ثقافية بنشر إنتاج الرجل الغزير الذي يشمل معظم جوانب الفكر الإسلامي الحديث، وهذا العمل سيكون خدمة جليلة للإسلام والأمة الإسلامية جميعًا.

وأتصور أن عملية النشر تقتضي وجود فريق من المتطوعين المخلصين تعمل على تصويب الأخطاء المطبعية أو التصحيفات الكثيرة التي ظهرت في الطبعة الأولى من أعمال أنور الجندي؛ بسبب النشر المتواضع الذي كان يتحمل عبئه وحده في الغالب، بدءًا من كتابته مخطوطًا حتى ظهوره مطبوعًا، وبين ذلك تصحيح تجارب الطبع ومتابعة الحمالين الذين يحملون الملازم المطبوعة من المطبعة الأولى على عرباتهم الكارو حتى تصل مطبعة التغليف ومكتبة التوزيع.

هناك قضية التوثيق الخاصة بالمصادر والمراجع، وقد كان الرجل غالبًا يسند النصوص إلى أصحابها دون أن يذكر المكان والزمان أو المصدر الذي نشرت فيه، وهو ما أخذه عليه كثير من نقاده. ولكنه- كما أعرف- كان يعتمد على شيئين: أولهما: ظنّه أن القارئ الذي يتوجه إليه يعلم طبيعة المصدر ويثق في الكاتب.

والآخر: أنه فيما بدا لي كان يسابق الزمن لينجز كتبه وبحوثه قبل أن ينتهي العمر المبارك، ولهذا كان حريصًا على أن يسجل ما يصل إليه وينشره بأسرع ما يمكن.

وأظن الأجيال الجديدة في حاجة إلى مصادر موثقة ومحددة حتى تعود إليها، وتنطلق على أساسها في البحث والدرس والنتائج.

على كل حال؛ فإن نشر إنتاج أنور الجندي بصورة أكثر دقة، مع إرجاع النصوص والوثائق إلى مصادرها مكانًا وزمانًا؛ مهمة ضرورية، وإن كان فيها صعوبة لا تخفى، ولكن شرف الغاية يجعل المشاركة في الأمر إحسانًا كريمًا إلى

الإسلام والمسلمين.

ثم إن هناك بعض السلاسل المهمة التي تخاطب الشباب، ولها فائدة كبيرة، إذ تيسر تقديم الفكرة في حيز محدود، ووقت قليل، وتمنح القارئ مادة جيدة، في موضوع مهم. ولعل من يسعى إلى إعادة نشر إنتاج أنور الجندي يبدأ بهذه السلاسل التي أشرت إليها في الفصل الأول. وهي على كل حال لا تتكلف كثيرًا، ويمكن طبعها بكميات كثيرة.

أختم سطوري بدعاء أطلب فيه الرحمة للرجل الذي أفنى عمره في خدمة الإسلام والمسلمين، دون أن يعلن عن نفسه، أو يطلب شهرة ومالًا، أو يأخذه العجب بما ألف وأنجز، فقد طلب جائزته من ملك الملوك، وضحى بموارده القليلة ليصوّب للأمة طريقها، ويرشدها إلى سبيل العزة والقوة وخدمة الإنسانية.

وبالله التوفيق. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

حلمي محمد القاعود

المصادر والمراجع

- أنور الجندي، (ذكرنا كتبه ومعلمته ورسائله في مواضعها من البحث، فضلًا عن ذكر مؤلفاته جميعًا في الفصل الأول، ومنها مصادر هذا البحث).

- بدر شاكر السياب، كنت شيوعيًّا، دار الجمل ألمانيا، ٢٠٠٧م.

- توماس آرفلين، الوجودية، ترجمة: مروة محمد عبد السلام، ط١، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٤م.

- روبير جاكسون، حسن البنا الرجل القرآني، ترجمة: أنور الجندي، المختار الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.

- صباح الموسوي، دور الحركة الشعوبية في صنع الفرق الباطنية، ٢٠٠٣.

- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، قراءة في وثائق البهائية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٤٠٦ هـ= ١٩٨٦م.

- علي كاشف الغطاء، الشعوبية في السياسة والتاريخ المنشورة في مجلة الاعتدال ١٣٦٥هـ.

- عمرو بن بحر بن الجاحظ (أبو عثمان)، ت: عبد السلام هارون، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

- كارين آرمسترونج، النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، دار الكلمة، دمشق ٢٠٠٥.

- محمد عمارة "طه حسين: من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام"، صدر أول مرة ملحقًا لمجلة الأزهر في عددها الصادر في شهر ذي القعدة ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م، ثم صدر في طبعة أخرى عن دار الفكر، القاهرة، ٢٠١٥

- محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

موسوعات ودوريات ووكالات:

أولًا: موسوعات:

- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب، الرياض، ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩م.

- موسوعة ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

ثانيًا: دوريات:

- الأهرام، ٢٥ / ١١/ ١٩٦٩م.

- إسماعيل الفخراني، الأهرام، ١٨/ ٢/ ٢٠٠٣م.

- جريدة الشرق الاوسط، لندن، العدد١٣١٢٧، الخميس ١٣ محرم ١٤٣٦ هـ/ ٦ نوفمبر ٢٠١٤م.

- جريدة "كوكب الشرق"، ٣١يوليو ١٩٢٨.

- رجاء النقاش، مقال بالأهرام أول مايو ٢٠٠٥.

- مجلة "الأمة" الإسلامية، عدد رجب ١٤٠٣هـ = أبريل ١٩٨٣م.

- مجلة الثقافة الجديدة، وزارة الثقافة، القاهرة، عدد أغسطس ٢٠١٥

- مجلة (منار الإسلام) في ربيع الأول ١٤٠٦هـ

كتب للمؤلف
الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود

أولا: كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض

١ - النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م

٢ - تيسير علم المعاني، ١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦م

٣ - الأدب الإسلامي: الفكرة والتطبيق، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م

٤ - محمد - ﷺ - في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة)، ١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٩م. الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة (مصر)، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م

٥ - المدخل إلى البلاغة القرآنية، ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧م

٦ - القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة)، ١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩م

٧ - تطور النثر العربي في العصر الحديث، ١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨م

٨ - مدرسة البيان في النثر الحديث، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٦م.

٩ - تطور الشعر العربي في العصر الحديث، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م

١٠ - المدخل إلى البلاغة النبوية، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

١١ - الأدب المقارن: المفهوم والتطبيق، ١٤٣٦ هـ = ٢٠١٥م

ثانيًا: كتب صادرة عن دار العلم والإيمان (دسوق- كفر الشيخ):

١ - الإخوان والنظام: برنامج الحزب المستحيل، ٢٠٠٩م

٢ - وجوه عربية وإسلامية، ٢٠٠٨م

٣ - الورد والهالوك: شعراء السبعينيات في مصر (طبعة ثالثة)، ٢٠٠٩م. الطبعة الأولى، دار الأرقم، الزقازيق (مصر)، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م

٤ - الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة)، ٢٠٠٨م، الطبعة الأولى، دار البشير، عمّان (الأردن)، ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦م

٥ - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة ثالثة)، ٢٠١٠م. الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

٦ - الرواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية)، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى، نادي جازان الأدبي (السعودية)، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨م

٧ - روائع القصص النبوي: في رياض النبوة (٤ أجزاء). الطبعة الثانية، دار الصحابة، طنطا (مصر)، ٢٠١٢م

٨ - شعراء وقضايا: قراءة في الشعر العربي الحديث، ٢٠٠٨م

ثالثًا: كتب صادرة عن مكتبة جزيرة الورد- القاهرة:

١ - التمرد الطائفي في مصر: أبعاده وتجلياته، ٢٠١١م

٢ - العمامة والثقافة: دفاع الإسلام وهجوم العلمانية، ٢٠١١م

٣ - عباد الرحمن وعباد السلطان، ٢٠١١م

٤- الأقلية السعيدة: يوميات التمرد والتسامح، ٢٠١١م

٥ - ثورة الورد والياسمين: من سيدي بوزيد إلى ضفاف النيل، ٢٠١١م

٦ - اخلع إسلامك.. تعش آمنًا؟!، ٢٠١١م

٧ – تدبير المنزل– ما بعد الثورة، ٢٠١١م

٨ – الضيافة والشهادة، ٢٠١١م

٩ – عواصف الربيع العربي، القاهرة، ٢٠١١م

رابعًا: إسلاميات:

١ – مسلمون لا نخجل (٤ طبعات)، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م

٢ – حراس العقيدة (٣ طبعات).الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩م

٣ – الحرب الصليبية العاشرة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت

٤ – العودة إلى الينابيع: فصول عن الفكرة والحركة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت

٥ – الصلح الأسود.. والطريق إلى القدس، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت

٦ – ثورة المساجد.. حجارة من سجيل، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت

٧ – هتلر الشرق...، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت

٨ – جاهلية صدام وزلزال الخليج، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م

٧ – أهل الفن وتجارة الغرائز (طبعتان). طبعة السعودية، مؤسسة آسام للنشر، الرياض، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م

٨ – النظام العسكري في الجزائر، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣م

٩ – حفنة سطور.. شهادة إسلامية على قضايا الأمة، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م

١٠ – الأقصى في مواجهة أفيال أبرهة، مركز الإعلام العربي، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م

١١ - الإسلام في مواجهة الاستئصال، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م

١٢ - تحرير الإسلام، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م

١٣ - دفاعًا عن الإسلام والحرية، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت

١٤ - التنوير.. رؤية إسلامية، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م

١٥ - معركة الحجاب والصراع الحضاري، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م

١٦ - العصا الغليظة، كتاب المختار، القاهرة، د. ت

١٧ - واسلمي يا مصر، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، طنطا (مصر)، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م

١٨ - ثقافة التبعية: المنهج.. الخصائص.. التطبيقات، دار الفضيلة، القاهرة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م

١٩ - انتصار الدم على السيف، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

٢٠ - المدافعة والمداولة- قراءة في السنن والتحولات، مكتبة سلمى الثقافية، تطوان (المغرب)، ٢٠١٢م

٢١ - أهل الفن وتجارة الغرائز، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت

خامسًا: كتب أدبية ونقدية:

١ - الغروب المستحيل (سيرة كاتب)، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، د. ت

٢ - رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان)، عدد خاص من مجلة الثقافة الأسبوعية، القاهرة، ١٩٧٤م

٣ - الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٦م

٤ - موسم البحث عن هوية (دراسات في الرواية والقصة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٨٧م

٥ - حوار مع الرواية في مصر وسورية، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٩م

٦ - الوعي والغيبوبة: دراسات في الرواية المعاصرة، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٧هـ=٢٠٠٧م

٧ - إنسانية الأدب الإسلامي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار (مصر)، ٢٠٠٨م

٨ - حصيرة الريف الواسعة، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار (مصر)، ٢٠٠٨م

٩ - أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، سلسلة روافد، الكويت، ١٤٣٠ هـ= ٢٠٠٩م

١٠- الحكاية كلها معاصرة (دراسات في الرواية)، دار حضر موت، المكلا (اليمن)، ٢٠١١م

١١ - الحداثة العربية: المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م

١٢- بالاشتراك مع آخرين، نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، تحرير وإشراف أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢م

١٣- بالاشتراك مع آخرين، أمل دنقل عابرًا للأجيال، تحرير وإشراف: أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م

١٤- مطولة على أحمد باكثير، مطبوعات نادي جازان الأدبي (السعودية)، د. ت

١٥- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)، دار الهلال، ١٩٧٦م

١٦- لويس عوض: الأسطورة والحقيقة، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م

١٧- نحو رواية إسلامية، ملحق المجلة العربية (٢٩)، الرياض، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

١٨- زمن البراءة: النيل بطعم الجوافة (الجزء الأول من السيرة الذاتية)، الوادي للثقافة والإعلام، القاهرة، ١٤٣٦ هـ=٢٠١٥ م

١٩- زمن الهزيمة: النيل لم يعد يجري (الجزء الثاني من السيرة الذاتية)، الوادي للثقافة والإعلام، القاهرة ١٤٣٦ هـ= ٢٠١٥ م

سادسًا: إعلام:

١ - الصحافة المهاجرة: رؤية إسلامية، ط٢، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ١٩٩٢م

سابعًا: كتب للأطفال:

١ - واحد من سبعة، هيئة قصور الثقافة، سلسلة كتاب قطر الندى- العدد ١٦٤، القاهرة، د. ت

ثامنًا: كتب محققة:

١ - فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية، دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠١٠م

٢ - طائفة من المؤلفين، أحسن ما كتبت، دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠١٠م

٣ - المتنبي، عبد الوهاب عزام (تحت الطبع) دار الفضيلة، القاهرة

٤ - تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، أحمد مصطفى المراغي (تحت الطبع)، دار الفضيلة، القاهرة

تاسعًا: كتب معدة للنشر:

- الإبادة والمقاومة: الشعب الفلسطيني لا يموت.
- خبز السلطة.. خبز الحرية (الحقل الثقافي في مصر المعاصرة).
- الحلم والدهشة (قراءة أدبية).
- اللحم الإسلامي المستباح.
- حضرت التبعية.. وغابت الهوية.
- صالون الشعر والأدب (أعلام وقضايا).
- نداء الفطرة.
- ثقافة تزغيط البط!
- محرقة غزة.. الشعب الفلسطيني يقاوم!
- القيم الإسلامية في رسائل النور.
- كهنة آمون!
- الصرب في مصر.
- الوطن على كتفي!
- القبضة الفولاذية.
- على باب الحرية.